الآلة

عمرو الجندى

دار الرسم بالكلمات

MARLEY BOOOOKS

الجندي؛ عمرو
الآلة : رواية/ عمرو الجندي. - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
/ القاهرة: ٢٠١٨
١٦٠ص؛ ١٤×٢٠
تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٦٥٠٢-٦١-١
رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٥٢٠٨

دار النشـــــر:	دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
عنوان الكتـــاب:	الآلة
الكاتـــــــب:	عمرو الجندي
تصحيح لغـوي:	عمر جوبا
تنسيق داخلـي:	ضياء فريد
تصميم الغلاف:	عمرو الجندي
إشراف عـــام:	محمد المصري



 elrasm.blkalemaat
 elrsmblklemat@yahoo.com
 ٠١٠٦١٤١٩٥٥٥



رواية

عمرو الجندي



إهداء

إلى الابن الذي لم يعش كثيرًا

وإلى الأب الذي بكي ومازال

إلى سليم ..

لأول لمرة وليس لمرة أخيرة

المقدمة

كان عليّ أن أدرك تلك اللحظة التي اقتنعتُ فيها بأنَّ كلَّ شيءٍ على وشك السقوط، ولكن الأمر لا يحدث أبدًا بهذه البساطة التي نحكي بها حكاياتِ ما قبل النَّوم للصِّغار، تلك اللحظة هي ما تُسَمَّى بعلم السهل الممتنع الذي اكتشفه الكثيرونَ ببساطةٍ وقحةٍ على مرِّ التاريخ، ومع ذلك بوقاحةٍ تامةٍ أيضًا لا ينتبهون له، ويعمهون في عنادهم نحو الانهيار والسقوط في عوالمَ خفيَّة؛ ليتذكروا هناك في الظلامِ أنَّه فيما سبق كانتْ هناك نقطةٌ ما لا بدَّ من العودة إليها، بل والتوقُّف حدها؛ لالتقاط الأنفاس على الأقل، لا أوجِّه تلك الكلمات كنصيحةٍ - لا سمح الله - أو لتنتبهوا مثلًا، ليس الأمر كذلك مطلقًا، أنا أعلم فقط وبكل بساطةٍ أيضًا أنكم لن تنفِّذوا وصيَّتي البسيطة والوقحة كذلك، فنحن بدون كلماتٍ فلسفيةٍ لن تؤتي ثمارها نعشق الصعب، بل ونتوق إليه، ولكن السُّؤال: لماذا نفعل ذلك بأنفسنا؟!، إنَّنا نفعله لسببٍ غاية في البساطة.

لكي نتألم، نعَمْ، إنها الحقيقة.

نحن نهوى الألم في أقصى أعماقنا، تلك الأعماق الدفينة الخفية المُظلمة التي تطلق لنفسها العنان ـ في أشدِّ لحظاتنا يأسًا وجنونًا وعشقًا وطربًا وافتتانًا وسعادة وحزنًا وأملًا ـ في أن تسخر منَّا، وتكسر كل القواعد التي ندركها عن أنفسنا؛ لتمنحنا بإرادتنا الألم بِلا سابق إنذارٍ، حتى لتجلس وحيدًا في غرفتكَ تتساءل: مَن كان السبب في ذلك الألم في الحقيقة ؟!، حينما هويتُ مَن لا يهوى؟! حينما أيقنتُ أنَّها النِّهاية، ورغم ذلكَ عاندتُ وأصررتُ على استكمال المشوار آمِلًا في إحداث الفارق الذي لم ولن يحدث، هل حينما أخبرَني الجميع بفشلي فأويتُ صارخًا وحيدًا إلى غرفتي نابذًا العالم بأكمله لمجرد أنَّها الحقيقة فآلمتُ نفسي أكثر بالهرب؟!، أم حينما عشتُ في الماضي، ونبذتُ الحاضر، وقتلتُ المستقبل بإرادتي الحرَّة، وادَّعيتُ العكس؟!، وحينما أدركتُ الحقيقة متأخرًا تركتُ نفسي ببساطةٍ لليأس لسببٍ بسيط وسهلٍ للغاية بأنَّ الوقتَ صار متأخرًا، وعليَّ وضع أوزاري وهرطقتي في حقيبتي منتظرًا رحلتي الأخيرة والأبديَّة نحو القبر المنتظر.

لا شيء يبدو حقيقيًّا في عالَمٍ يبالغ في حقائقه.

لا شيء يبدو صامتًا في عالَم يصرخُ على الدوام.

ولا شيء يجرفني للإيمان، لَا شيء على الإطلاق.

أعتقد أنَّ الوقت قد حانَ؛ لتبدأ الحكاية، ولكنَّها بالتأكيد لن تكون حكايةً للصِّغار.

يخرج الأمل أحيانًا من بين أشدِّ لحظاتنا يأسًا.



في نهايات القرنِ التاسع عشر كان علمُ الجينات المعروف بعلم الوراثة يحقِّق تقدمًا ملحوظًا ومُخيفًا أيضًا ممَّا أدَّى إلى استحواذه على عقول عددٍ كبيرٍ من قاعدةٍ لا بأس بها من الأغنياء والعلماء المهتمِّين بهذا المجال، علم الوراثة هو العلم الذي يدرس المورثات ـ الجينات ـ والصِّفات التي تورثها، وما ينتج عنها من تنوُّع للكائنات الحيَّة، وكانت مبادئ توريث الصفات مستخدمةً منذُ تاريخ بعيدٍ لتحسين المحصول الزراعيّ، وتحسين النَّسل الحيوانيّ من خلال تزويج حيواناتٍ ذات صفاتٍ جيدةٍ، ولكن علم الوراثة الحديث حاول فهم آليَّة توريث الصِّفات، وذلك ابتدأ من خلال العالم غريغور يوهان مندل Gregor Mendel (ولد ٢٠ يوليو ١٨٢٢ وتوفي ٦ يناير عام ١٨٨٤) منتصف القرن التاسع عشر، حيث قام مندل بمراقبة الصفات الموروثة للكائنات الحيَّة، وكيفيَّة انتقالها من الآباء إلى الأبناء، ولكنَّه لم يكتشفْ آلية هذا الانتقال التي تتمُّ عن طريق وحدات مميزة في توريث الصفات وهي المورثات ـ الجينات Genes ـ، ولكن كانتْ

هناك أيدٍ تعمل في الظلام، وقد شرعت ثورة هذا العلم تظهر على استحياء، ولكن لم يكن ظهورها سوى خلفِ الستائر التي يحدِّدها أصحاب النفوذ والمال والمصالح الخاصَّة، ولم يكن الأمر متعلقًا فقطْ بالتطوُّر الجينيّ لعلم النبات والحيوان، ولكنْ بالإنسان أيضًا، وهذا بعينه الدَّافع الحقيقيّ خلف اهتمام هذه الطبقة من الأغنياء الطَّموحين في التَّفكير بمستقبلِ العالم في ظلٍّ تطوُّر ذلك العلم، ودفعهم ذلك الأمر في الحلم بالتحكم مستقبلًا في مَجريات الأمور التي ربَّما تقود العالم، فشرعَ بعضُهم يغدق الأموال على تلك المشاريع في الظلام التي تتبنَّى ذلك العلم لا لخدمة البشريَّة، وإنَّما لتحقيق مآربهم المادية والسلطوية الخاصَّة.

ووسط كل ذلكَ كان هناك شابٌّ اسمه ـ كريستيان نيلسون ريفز ـ تلك هي الحياة التي سنخوضُها سويًّا بعيدًا عن هذا العالم، سنحيي ذكرَى ذلك الشاب الذي لم يقدِّره التاريخ، في الحقيقة إنَّ كريستيان لم يذكره التاريخ من الأساس، رغم أنَّه كان الأبرع في مجاله، ولم يظهر مَن يضاهيه حتى هذه اللحظة، إلَّا أنَّ اسمه غير معروفٍ لنا في الوقت الحالي، إنها حقيقةٌ مؤسفةٌ وقاسيةٌ، ولكن كما ذكرتُ سابقًا في أعمالي السابقة وأكررها الآن أنَّه ليس هناك ما هو أكثر سفالةً من كتب التاريخ.

2

في أحد أيَّام الآحاد وتحديداً في بدايات شهر كانون الثاني - يناير - من عام ١٩١٨ ، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وقف كريستيان ينظر إلى حقيبتِه الجلديَّة بجواره على المحطة منتظرًا بهدوءٍ وسط هدير القطارات القادمة الرَّاحلة أسفل الأمطار التي بدَتْ له في تلك اللحظة بأنَّها لن تتوقفَ عن السُّقوط حتى تغرق العالم وينتهي كل شيء، لم تكن ملابسه الرَّثة لتحميَه من غضب الطبيعة ولا من النظرات المسترقة التي تلدغه من وقتٍ لآخر لما يتمتَّع به من فقر مدقع - على عكسِ الحقيقة - يبرز في كلِّ تفاصيل هيئته المزرية، ولكنَّه على الأقلِّ كان يحمل وجهًا مختلفًا عن وجهه الحقيقي البشع، لقد أضناه هذا التنكر كثيرًا لدرجة أنَّه ظلَّ ينظر لنجاحه في المرآة ثلاث ساعات كاملة متأملًا ومندهشًا وغير مصدق أو واعٍ بأنه صار صاحب وجهٍ يمكِّنه من مواجهة العالم القذر بعد عناءٍ طال لسنين، هل كان كريستيان ينتظر شيئًا؟! هل كان ينتظر أحدًا؟! أم أنه في الحقيقة كان يهرب؟!، إجابة هذا

السؤال ليسَتْ بهذه البساطة، لذلكَ وقف كريستيان أسفل استراحةٍ قريبةٍ للمسافرين على رصيف الانتظار متأملًا.

⌛

ارتجف جسده والسَّوط ينهال عليه، فآثر الصمت كعادته عاضًا على شفتِه السفلى محاولًا بقدر ما استطاع كتم صرخاتِه، واكتفَى برجَّة قلبه وتقوُّس أمعائه واهتراء كبدِه وانسحاق حواسِّه، لكنها أبدًا لن تهين كبرياءه، فإن ذهبَ الكبرياء ذهب كل شيءٍ في الإنسان، تلك قاعدةٌ لم ينسَها كريستيان قط، سمعَها من رجلٍ كهل ذات يوم وهو يجلس وحيدًا متكوِّرًا على نفسه في الظلام في أحد أزقة لندن يبكي في صمتٍ، كان الكهلُ كفيفًا لا يرى في كريستيان شيئًا سوى قلبه، ولا يسمع منه شيئًا إلَّا دموعه التي تكسر الفراغَ والصمت متساقطة في بؤرة ضحلة من الماء الوسخ خلف بناية عجوزٍ، وقف الرجل متكئًا على عصاه في مواجهة كريستيان يتأمَّله من خلفِ نظارته السوداء القاتمة كالليل، ببصيرة عمر كهلٍ أضنَته وعقلته الأيام ثم ابتسم، توقف كريستيان عن البكاء، وارتجف قلبه، لكنَّه أدرك في لحظةٍ جليةٍ وقاطعةٍ أنَّ الرجل لا يراه، فآثر الصمت، فاتسعَتِ ابتسامة الكهل.

«**ولد طيب صاحب شرف**» قال الكهل مُشيرًا بيدِه إلى كريستيان.

رمقه كريستيان بنظرةٍ خاليةٍ إلا من بقايا دموعٍ وقد شرعَتْ ملامحه ترسم بصعوبة استغرابًا شديدًا، فلم يكن هَيِنًا عليه بأيّ حال من الأحوال أن يتحكم في ذلك الوجه الدميم، فإن ضحك كريستيان بدا كأنّه يتألم، وإن حزن كريستيان لا تعكس ملامحه شيئًا على الإطلاق سوى نتوءاتٍ كتلكَ التي يحدثها زلزالٌ مارٌّ في طريقه عبر مَبنى ما في مدينةٍ آيلةٍ للسقوط بالفعل، كريستيان لا يملك وجهًا، ولكنه يملك شبحَ وجهٍ أقرب إلى المسوخ بجبهته العريضة التي تكاد أن تحتلّ نصف وجهه، وعينين داكنتين كالذئاب يحيطهما جفنان متهدلان أسفل حاجبين كثّين كفرو دبٍّ قطبيٍّ، بينما أنفُه لا يكاد يلحظ، نقطتان بشعتان متراميتان في غير اصطفاف أسفل عينيه، بينما شفتاه المفلطحتان تبدوان كرسمةٍ مشوهةٍ لطفلٍ يصور فيها أشد مخاوفه، أمّا شعره المجعد فيبدو كأسوإ احتمالٍ لتداخل أسلاكٍ كهربائية لا يمكن أبدًا معالجتها، أمّا عن جسدِه فقد كان رفيعًا وهزيلًا ليكمل الصورة اللامعقولة.

جلس الكهل بمساعدة عصاه بجوار كريستيان، واستلقَى بجذعه العلوي على جدار المبنى، ثم ألقَى نظرةً واحدةً عليه، وببطءٍ نظر أمامه وكأنه بشكلٍ أو بآخرٍ رأى الحقيقة راسخةً أمامه، لم يبدُ الكهل مستاءً أو هلعًا حال كلِّ مَن رآه مصادفة قبل ذلك، شعر كريستيان بشيء من الحميمية يشوبها إحساسٌ دفينٌ بالرهبة أيضًا، ولكنه يبقَى شعورًا رائعًا منعشًا وجديدًا لم يجرِّبه يومًا، لم يختبر تلك الأحاسيس التي لا يعرف عنها شيئًا إلا من الكتب؛ فهو أقلُّ بقليلٍ من أن يختبر الحياة الحقيقية، هو مجرَّد مسخ يسكن قبوًا لا يقلُّ عن القبر في شيء، يعيش فيه، وسيموت فيه يومًا ما أيضًا، ولن يُسْمع عنه، لن يتذكَّره أحدٌ بل سيصلِّي كل مَن رآه مصادفة داعيًا الله محوه من الوجود؛ ليخلِّصه من آلامه.

«البكاء في صمتٍ من شيم الإنسان الحقيقي، والبكاء في عزلةٍ صفة الأقوياء»، قالها الكهل بهدوء وبنبرة عميقة.

بدت الكلمات لكريستيان غريبةً، نظر أمامه مفكرًا للحظة **«هل تعرفني ؟!»** قالها كريستيان بصوته الأجش المخيف وطريقتِه البطيئة في صنع الجُمَل، كان كريستيان يبذل مجهودًا حقيقيًا لكي يتكلم، لا أحد يعرف حقيقة هل ذلك ناتجٌ عن قلة حديثه؟! أم أن تلك مجرَّد صفة مكملة لهيئته الفريدة؟!، تبقَى الإجابة مجهولة.

«**بالتأكيد أعرفكَ، إن كنت هنا، فإنّني بالتأكيد أعرفكَ، أنت لا تتصور أنَّ هناك شيئًا يحدث مصادفةً في هذا العالم؟! أليس كذلك؟!**»، ابتسمَ العجوز في النهاية.

هز كريستيان رأسه مفكرًا لوهلةٍ، فقاطع أفكاره العجوز: «**البكاء بدايةٌ، لا تجعل منه نهايتكَ**».

نظر كريستيان تجاهه مفكرًا، وملامحه الغريبة تشِي بشيءٍ يشبه التساؤل: «**إنْ كنتَ تبكي، فذلك جيّد؛ لأنّكَ ما زلت تهتم بالعالم، فالإحساس نعمةٌ لا يدركها الكثيرونَ**»، أكّد الكهل جملته الأخيرة بهزّةٍ من رأسه.

«**لكن العالم لا يهتم بكريستيان**»، قالها كريستيان مطأطئًا رأسه بحزنٍ وأسىً.

نهض الكهل بصعوبةٍ من مكانه، وكريستيان يتابعه بناظريه مستغربًا ثم مشى بخطواتٍ وئيدةٍ حتى وصل إلى بؤرة مظلمة، فلم يظهر منه إلا عصاه، لكن كريستيان ورغم الظلام شعرَ بنظراته تخترق أعماقه وسمعه أخيرًا يقول: «**إذن فلتجعله يهتم بكريستيان، هذه هي مهمتكَ**»، وانصرف الكهل للأبد، انصرف وترك كريستيان في بؤرةٍ بعيدةٍ داخل عقله، بؤرة مظلمة لم تومض إلا الآن، والآنَ فقط، كانتِ الرسالة واضحةً من رجلٍ واضح يرى رغم عماه، تأكّد له في لحظات خلوه أنها الرسالة المقدسةُ التي يرسلها له كبقية البشر، فليس هناك إنسانٌ دون رسالةٍ، نعَم، هذه هي الحقيقة، فنحن لم نُخلقْ قطيعًا ولا تابعين، فكلمات الكهل

تحمل ذلك المعنى الذي منحَه سببًا للبقاء، والبقاء مجموعة من المعارك التي يتوجَّب خوضها حتى النهاية، لا تهمُّ النتيجة في شيء، هزيمة أو انتصار لا يهمُّ، فجلال المعاركِ يكمن في خوضها حتى النهاية، فذلك هو الانتصار الحقيقي..

أجفله هدير قطاره وهو يقترب كوحشٍ يزأر من الرصيف، نظر حوله وضجيج الواقع يعود من حوله، ابتَسم من خلفِ قناعه، فقد ولَّتْ سنون عديدة، وانقضَتْ من حياته، ولن يعاودَها مرَّة أخرى.

لن يعاودها أبدًا.



3

«رحلة إلى الواقع في الخارج تختلف كثيرًا عن الواقع في الداخل»، كلَّما تذكر كريستيان تلك الجملة التي ألقاها على مسامعه أستاذُ الدراما الإنجليزية ديفيد سبيلمان تأكَّد له أنَّ الرجل كان يقول نصف بؤس الحقيقة؛ لأنَّ الحقيقة في الخارج ـ وبكل أسفٍ ـ أشد بؤسًا، مَن كان يتخيَّل أن كريستيان المشوه سيجوب العالم يومًا وحيدًا وحرًّا دون حماية أو وصاية من أحدٍ؟!، ومَن كان يتخيَّل أنَّه سيلقَى هذا القدر من العناية من رجلٍ وقورٍ ومدهشٍ كنيلسون ريفز؟!، الطبيب والعالم المجتهد والمعروف على طول البلاد بنظريَّاته المدهشة والغريبة عن جسد الإنسان وخواصه.

عاد كريستيان قليلًا إلى الخلف في مقعدِه داخل القطار وهو يستعيدُ تلك الأيام البعيدة التي لم تخلُ يومًا من الحسرة والشغف، اليأس والأملِ، الهزيمة والانتصار، القطعِ والوصل. وفي النِّهاية العلم الذي سلكه دون مقدِّمات وشرع ينهلُ منه هو السبب الأساسي في وجوده الآن داخل قطارٍ يسبحُ في فضاءات جديدة نحو عالمٍ ومصير مجهولٍ.

⌛

نهض من مجلسِه بصعوبةٍ، بينما آثار لسعات السَّوط ما زالتْ تؤلمه ثم هرول بقدرِ ما استطاع حتى وقفَ على أول الشارع، ونظر تجاه الكهل وهو يختفي داخل ظلمات شوارع لندن بعينين ذاهلتين ترقبان باستغرابٍ وتفكيرٍ عميقٍ فيما قد يأتي، استطاع أن يسمع دقات ساعة بيج بن رغم المسافة البعيدة وهي تعلن عن انتصاف الليل، فأسرع خطاه خوفًا من العقابِ الذي ينتظره لمرة ثانيةٍ أو ربما لمرةٍ لا نهائية، فلم تعدْ لديه القُدرة على تذكر عدد المرات التي يتم توبيخُه فيها، وكم مرةٍ تم تجويعُه أو صعقه بالكهرباء، فقد كان الأمر بشعًا حين يكون والده مخمورًا سيئ المزاج، سيلهبه بالسوط لدقائق طويلة تمرُّ كساعات لا تنتهي كما حدث في هذه الليلة، لم يكن الرجلُ يشعر براحة حقيقيةٍ إلا عندما يتخلص من آلامه في كريستيان، من دفن مزاجيته المضطرمة والمتقلبة على الدوام إلا في جسد كريستيان الهزيل الضعيف، ورغم التجويع والضرب والاستهزاء والتوبيخ المستمر له إلَّا أن كريستيان لم يكن يؤلمه ثمَّة عقاب أكثر من الإهانات التي تهدر كرامته، بل تسحقها حينما يصفه بالمسخ الذي لا يستحق الحياة، لطالما بكى وهو يتذكر والدته التي رحلتْ بلا سابق إنذار هاربةً رغم وعودها المستمرة له على الدوام بأنها لن تتركه وحيدًا، لم يكن كريستيان قادرًا على استيعاب السبب وراء هرب والدته، هل

كان ذلك نتيجة لبشاعته؟!، أم نتيجة لبشاعة معاملة والده الفظة لها؟! أم أن الأمر كله وببساطة شديدة متعلقٌ بإيثار الهرب وما يتبعه من مجهولٍ على واقع بشع كوجهه؟!

كل ما في الأمر أنَّه نهض يومًا من نومه الصعب الذي اعتاده حيث كان ينام على أرضية القبو الرطبة شبه عارٍ يحارب بلا سندٍ أو سلاحٍ بردَ لندن الشنيع، انحدرت قطرات ماء من بين تجاويف السقفِ الخشبي المهترئ للمنزل لتسقط على وجهه، فاستفاق وقد خالجه شعور بالقهر وانقباض في قلبه، انتظر ساعة واثنتين وسبعاً، لكن في النهاية وبعد ثلاثة أيام قضاها وحيدًا يقاوم المرض والجوع والخوف والظلام ومرارة الانتظار لم يلقَ إلا ضربًا مبرحًا ومستمرًا من والده الذي كان في أشد لحظاته سكرًا ويأسًا، علم كريستيان بعد شهر متواصل من العقاب المستمر أن والدته قد رحلتْ، لم يكن يدري إلى أين؟، ولا لماذا رحلت؟!، ولكنه كان يدرك في أعماقه بما لا يقبل الشكَّ أنَّه كان سببًا في ضياعها، لكن السؤال الذي يتجلى بهيًا ومرهقًا أيضًا، متى علم كريستيان بحقيقته؟!، أنَّى له اكتشاف مَن يكون أو بالأحرى كيف حدث ذلك؟!، تلك الأخيرة يذكرها كريستيان جيدًا، يذكرها كوجهه الذي لا يُنْسَى أبدًا.

⌛

حينما تسمع تلك الجملة الشهيرة «**كان يا ما كان..**»، فإنكَ بالتأكيد ستتوقف، هنا عالم ساحر سيفتح أبوابه الآن: ليمنحك قبلةً ساحرةً وخفيّةً وسط ظلام العالم وجموحه الكئيب، ستنصتُ جيدًا إلى تفاصيل العالم الخفيّ خلف حواجز واقعنا، ستعيشه وتتمنّى لو أنكَ تغزوه بكامل إرادتكَ وشغفكَ، هنا تكمن الحقيقة التي تنشدها، لكنها لن تحدث أبدًا، فكريستيان يتمنّى لو أن يُقبّل الأميرة في أعالي البلاد التي لا تنام فرحًا، أو أن يلتقي الجنيات الطائرة؛ ليخبرها بمدى رغبته في الطيران، ربَّما حققت له ذلك، أو ربَّما يغدو نافذًا في المجتمع بامتلاكه لفانوس علاء الدين، ولكن تلك القصص تُروَى، وابتسامةٌ حالمةٌ تتعلق بملامح راويها، لكن أمه كانت ترويها وهي تكفكف دموعَها، بينما تعتني بجراحه الناجمة عن غضب أبيه، حينها كان كريستيان ينسى جراحه والعالم من حوله، بل ووجوده من الأساس، بينما الصوت الدافئ المنعش يتناول يدَه، ويجتاز به عوالم خفية كتلك الكتب التي تسربها له أمه خلسةً؛ كي يقرأها، فلا نستطيع أن ننكر ذكاءَ كريستيان الذي لا بدَّ لنا أن نصفه بالخارق إن كان ذلك ممكنًا، ولكنها الحقيقة، فقد استطاع كريستيان أن يتعلَّم القراءة والكتابة في مدة وجيزة، كما أنه يستطيع أن يفهم بسهولةٍ نبرة صوت محدثه، فيستنبط من خلالها ما يكنُّه من أحاسيس سواءً أكانت إيجابية أم سلبية، كما أنه يقارن ذلك بفهمه العميق لخطوط الوجه، يستطيع أيضًا أن

يحفظ عن ظهر قلب أيَ شيء تقع عيناه عليه، ببساطةٍ لقد كان الوجه بشعًا، ولكن العقل كاد يكون متقدًا بالفراسة.

«**لماذا يضرب بابا كريستيان؟!**»، قاطعها كريستيان بصوت مضطرم.

نظرت له أمه وهي تمسك دموعها، زمَّت شفتيها، ومسَحَتْ على شعره المجعد «**هل يفعل كريستيان شيئًا يستحق التوبيخ؟!**»، نبرته البريئة هدمَتْ حصون تحمُّلِها، فسالت دموعها ثم احتضنتْه بشدة ضامَّةً إياه إلى صدرها، مسح كريستيان على ظهرها، ثم ربت عليها، فأجهشت بالبكاء بشكلٍ متقطع يرثى له، ثم انهارت دموعها غزيرة على كتفه، عاد كريستيان للخَلف، ومسح دموعها وابتسم بصعوبة..

«**سأجلب لك شيئًا**» قالت أمه وهي تمسح دموعها ثم رسمت ابتسامة صادقة بصعوبة.

كانت في يدها مرآة بينما تتطلع له بإمعان وتردد، لكن الإصرار كان باديًا في صلابة وقفتها وقبضتها الحديدية على يد المرآة، «**كريستيان، أنتَ تبلغ من العمر الآن سبعة أعوام، ولكنك لا تدري مَن هو كريستيان**» ؟، أنهت أمه كلماتها بابتسامة قلقةٍ، مد يده لها، ثم اعتدل في وقفته، «**لكن عدني بشيءٍ واحدٍ**»، انحنت عليه وقبلته، «**عدني بأنكَ لن تُفاجأ، عدني بأنك ستبقى كريستيان رغم كل شيء**»، ثم احتضنته بيدٍ بينما المرآة متدلية في يدها وبهدوء قربت المرآة من وجهه كي يرى نفسه، في الحقيقة

لم يتفاجأ كريستيان أو يخشى هيئته، بل لم تزعجه من الأساس، لكنها حيرته كثيرًا وجعلته مرتابًا من حقيقة المرآة، إن كان ذلك وجهه، فَلِمَ لَمْ يرَه سوى الآن؟!، ولماذا يحمل وجهًا مختلفًا عن ذلك الذي يملكه أبواه؟!، ولمَ لا يبدو على الأقل لائقًا ومنظمًا وليس فوضويًا كما يبدو؟! هل كل مَن في مثل عمره يحملون نفس الوجه ثم يتحولون في وقت لاحق إلى أشكال تشبه أبويه؟!، في الحقيقة إنَّه لم يلتقِ خلال مغامراته السرية القليلة أي شخص في مثل عمره، لكن الصور في قصصه لا تحوي أي صورة قريبة من هذا الشكل، كل تلك الأسئلة دارت بخلده، لكنه لم يجدْ إجابة شافية لتساؤلاته، تطلع لوالدته بنظرات بريئة مستطلعة رغم دمامتهما، ولم ينطق بحرف واحد حتى تركته وذهبت للحياة العلوية حيث يمكث العالم بينما مكث هو حيث يُدفَن.

⌛

«هل أنتَ ذاهب في عطلة أم للعمل؟؟ انتظر، أعتقد أنك ذاهب إلى الدراسة، ظني في محله أليس كذلك؟؟!» ابتسم الغريب الجالس في مواجهته له؛ لينتشله من جوف ذكرياته الغامضة، تردد كريستيان كثيرًا قبل أن يجيب، تلك ليست المرة الأولى التي يوجه فيها أحدهم حديثًا له، ولكنها المرة الأولى التي يحدثه فيها أحدهم بودٍّ خالص على أمل فتح حوار معه، معَه هو الدميم، ابتسم كريستيان ببساطة، **«بلى، أنا ذاهب إلى الدراسة»**.

«اسمي نيلسون، أدرس الفلسفة»، مدَّ الشاب الوسيم يده؛ ليصافحه.

نظر له كريستيان بامتنانٍ وصافحه بقبضةٍ قوية ثابتة على عكس قبضته المرتعشة والتي اعتاد مَن حوله عليها إن حدث ومنحه أحدهم سلامًا.

«نيلسون اسم جميل، يحمله أيضًا أقرب الناس لي، أما أنا فاسمي هو كريستيان نيلسون ريفز.. كريستيان هو اسمي».

عام ١٩٠٧- نيلسون ريفز

كان دكتور نيسلون ريفز الثلاثيني العمر في هذه اللحظات يجلس في الحديقة الخلفية لمنزله، يتناول إفطاره كعادته صباحًا، لم يكن يفكر في أبحاثه والضغوط الممارسة عليه وعلى أقرانه الأطباء من قبل الممولين لمشروعه الجديد، ولأنَّ دكتور نيلسون كان رجلًا ذكيًا، فقد كان يعلم جيدًا أن الأمور في قبضة يده، ولن تخرج منها أبدًا، ولا شيء في العالم يمكن أن يغيِّر ذلك، فما آمن به لن يتحطم على صخرةٍ مفتَّتةٍ من الأساس يملكها بعض الأغبياء ذوى النفوذ والمال الزائل.

شيء واحد كان يشغل بال دكتور نيلسون في هذه اللحظات، زوجته الجميلة «**إيما**» التي تزوجها بعد افتتان ووله لم يتخيل أنه سيحدث له يومًا، نقطة ضعفه وقوته الوحيدة، إيما ونيلسون

مذ تزوجا منذ خمسة أعوام ولم يرزقهما الله بمولودٍ رغم الجهود الحثيثة لدكتور نيلسون العالم المتخصص في علم الوراثة الشهير الذي شرع يظهر على وجه هذا العالم جليًا ساطعًا ومخيفًا، ذلك العالم الذي يفاجئنا كل يوم بجهلٍ جديدٍ نكتشفه من خلال أنفسنا، في السنة الأخيرة لم تعد «**إيما**» الطفلة التي عشقها، أصبحت كئيبة بعد سعادتها، منطفئة بعد روحها المتوهجة بروح الحياة، منعزلة رغم أنها كانت أكثر امرأة اجتماعية عاهدها في حياته، كارهة للحياة إن كان ينبغي أن يكون الوصف دقيقًا، ولكنَّ أملًا كاذبًا كان يدفعها للحياة، انتظار مولود قد يغير حياتها، كلمة عادلة من القدر قد ترد لها الأمل.

كانا يعيشان في منزل كبير شاسع يقع شرق مدينة لندن، ورثه دكتور نيلسون عن عائلته فاحشة الثراء والشهرة، المنزل بهيئته المهيبة يصلح كقلعة، له سور ضخم يصلح كحصن مع بوابة حديدية ضخمة تحمل رمز الصليب في المنتصف وكأنَّها بوابةٌ لكنيسةٍ عتيقةٍ كانت تستخدم حصناً إبَّان الحروب، حديقته الرائعة تحيطه من جميع الجهات، رائحتها تعكس جمال وردها الرائع والنادر أيضًا، المنزل مكوَّنٌ من ثلاثة طوابق، الأحجار الجرانيتية كانت المادة المستخدمة في بناء هذا المنزل الذي يبلغ من العمر ما يفوق خمسمائة عام، حمل أجيالًا من عائلة ريفز الشهيرة بسلطتها وثرائها الفاحش فيٍ إنجلترا كلها، واجهته كلاسيكية، لا توجد بها شرفات، فقط نوافذ كبيرة وكثيرة في واجهته، الطابق الأرضي لا

يوجد به سوى غرف الخدَم والمطبخ وغرفة تناول الطعام والبهو الفسيح الذي يعكس ثراء دكتور نيلسون بما يحمله من تحف فنية ولوحات قد يكون بعضها أصليًا، فقد كان هناك لوحات متنوعة لتيتان ورامبرانت فان رين ومونيه-كلود أوسكا وأيضًا كانت هناك لوحة رائعة شهيرة «**The virgin and the child**» لدافنشي، ولكن مَن هو ذلك المجنون الذي يستطيع الجزم بأنها أصلية؟!، هناك أيضًا مكتب دكتور نيلسون الممنوع دخوله تمامًا حتى على إيما نفسها، أما الطابق الثاني فمخصَّصٌ لغرف النوم التي تقع على جانبي الطرقة الواسعة الطويلة المفروشة بسجادة فارسية قاتمة الحمرة من القرن السابع عشر، في المواجهة تمامًا وفي نهاية الطرقة توجد مكتبة عائلة ريفز الضخمة التي تجمع أنواعًا مختلفة من الكتب من مختلف المجالات العلمية والثقافية وبكل اللغات، ولا ننسى الروايات التي تعج بها المكتبة، تلك الأخيرة كانت الصديق الحميم ل «**إيما**» بعد أن انساقت تحت أقدام العزلة المميتة، أما الطابق الثالث فقد كان مخصَّصًا لأدوات دكتور نيلسون ومذكّراته، وهذا الطابق لا يدخله أحد إلَّا بأمرٍ من دكتور نيلسون لتنظيفه أو لجلب أشياء مهمة منه.

بعد أن سأل دكتور نيلسون عن زوجته إحدى العاملات بالمنزل، وقف في مواجهتها بطوله الفارع وهيئته المَهيبة، فقد كان صاحب بنيةٍ قويةٍ، قامة مشدودة، وكتفين عريضتين، يملك عينين سوداوين حادتين متقدتي الذكاء، يلوح فيهما بريق جنوني

لامعٌ، ويملكُ شعراً أسود منمقاً يزين بشرة بيضاء، شاربه الأسود الذي تم تشذيبه بعناية يعطي لملامحه الرجولية بريقًا ساحرًا، كانت إيما تجلس في مواجهة الشباك الكبير المفتوح في غرفتها على كرسي كبيرٍ وثيرٍ، تحتسي قهوتها، شاردة في عالم آخر، كانت إيما في عامها السابع والعشرين، شقراء جميلة لها عينان لوزتان رماديتان، وأنف مدبب صغير، ووجه مستدير، آية في الجمال، نحيلة بعض الشيء، ولكنها تملك جاذبية لا تملكها العديد من السيدات، بدتْ في هذه اللحظات وكأنَّ قطار خمسينيات العمر يلاحقها بالرغم من أنها لم تتعدَّ العقد الثالث من عمرها، ذلك القطار الذي يفلت العديد من ركابه دون سابق إنذار، وقد بدأ لنيلسون في هذه اللحظات أنها سوف تكون إحدى هؤلاء الذين سيفلتهم القطار بالفعل إن لم يغرس قدميه في أرضيته ويجذبها بكامل قوته من يدها ثم يدفعها بقوة أيضًا إلى داخل رواق الحياة، لكن بالتأكيد ستفلت منه إن لم يجد حلًا لشيء لا حلَّ له في قاموسه الطبي ولا يستطيع أن يمنح القدر شيئًا سوى الصلاة في ليالٍ ليلاء؛ ليمنح زوجته السكينة والسعادة وإن كان ذلك على حساب حياته بأكملها، فلا قيمة لحياةٍ أو لنجاحٍ دون ابتسامة إيما.

«اشتقت إليكِ يا إيما» قال نيلسون بلهفة يتخللها الأسف: **«أعلم أني تأخرتُ بالأمس، ولكن كما تعلمين العمل وأعباءه التي لا تنتهي».**

لم تردّ إيما، لم تكن تسمعه،بل لم تكن تراه، كانت تحلق بعيدًا في عالم آخر، عالم لا يدركه نيلسون، بل لا يدركه أحد على الإطلاق، ربما هي بنفسها لا تعلم تحديدًا أين تكون في هذه اللحظات؟، انحنى نيلسون قليلًا حتى جلس بركبتيه على الأرض بجوارها، ثم ابتسم ابتسامة رقيقة حزينة، ووضع يده برقة فوق يدها **«اشتقت لك»**.

نظرت له بهدوء، كانت تدفع نفسها بصعوبة بالغة؛ لتعود إلى واقعها المؤلم، تحاول بيأس محتل أن تدفع أحد جنود الأمل الضعاف إلى الخارج؛ ليقاوم في معركة الوجود، وبعد ثوانٍ قليلة ابتسمت ابتسامة حزينة باهتة، حاولت بقدر الإمكان أن تحمل شيئًا من العزاء لنيلسون الذي تحمّل كآبتها وإفراطها في الحزن، وفكرت في نفسها، **«لكَمْ آلمتكَ يا نيسلون!، لكَمْ كنت تلك المرأة التي نسيت مَن أحسن إليها ودفعَت الحزن في قلبه بدلًا من أن تدفع السعادة!، أعلم أنني أقتلك في وجودي، أصبحت وحيدًا رغم وجودي، آلامي أكثر ممَّا تتخيل، سامحني إن كان هناك شيء في هذا العالم ما زال يحافظ على تلك الكلمة السخيفة ـ المسامحة ـ، امنحني غفرانك وصبرك»**، أرادت أن تقول ذلك، لكنَّها أطرقَتْ إلى الأرض بمرارةٍ ولم تقل شيئًا.

«يا ترى بمَن تفكر حبيبتي وأنا موجود؟!» قال نيلسون مداعبًا **«لا يمكن أن يكون هناك شيءٌ في العالم يستطيع أن يسلب لُبَّكِ مني»**.

ابتسمت مرة أخرى وهي ترى فيه ذلك الطفل الذي لم ييأس قطُّ من محاولة رسم الابتسامة على وجوه مَن حوله ببراءةٍ ربما هو بنفسه لا يدركها، فنحن لا ندرك أجمل الأشياء فينا بسهولة، ضغطتْ على يده التي تحتضن يدها بإصبعها الرقيق دون أن تقول كلمة، نهض من مكانه بهدوءٍ ونظر إلى الخارج عبر النافذة المفتوحة وقد كان الجو باردًا، لكنه أفضل بكثير من الليلة السابقة التي انهمرتْ فيها الأمطار والثلوج دون توقفٍ، كان يفكر بحزن وترقب شديديْن، «**ماذا يمكنني أن أفعل أكثر ممَّا فعلت؟؟ إنني أفقدُها كل يوم أمام عينيَّ، تبًّا لذلك العالم، تبًّا للحياة نفسها، أشعر أحيانًا بأنها مؤامرةٌ سخيفةٌ لا تستحق عيشها، ولكن لستُ أنا مَن ييأس، لستُ أنا مَن يعطي للقمر مساحة مظلمة**».

«**الجو منعش اليوم**» قال نيلسون بلهجة مثيرةٍ «**ما رأيك أن نخرج الليلة؛ لتناول العشاء، دعينا لا نضيّع الفرصة**».

«**كما تشاء**» قالت إيما محاولة أن تبدي شيئًا من الاهتمام.

كان دكتور نيلسون متفهمًا جيدًا لزوجته، ويعلم ما يدور في عقلها تمامًا، فما قيمة المرأة دون أولاد؟!، وما هي الحياة الحقيقية التي يجب أن تعيشها إنْ لمْ يكن هناكَ من يُشْعِرُهَا بأنها اشتركتْ في صناعة الإنسانية بجلب مخلوقٍ لها؟!، اقترب منها مرَّةً أخرى.

«**إلى متى الحزن يا إيما؟!**».

نظرتْ له نظرة ممتلئة بالدموع «**أريد ولدًا يا نل**» – اختصار نيلسون – «**أنت لا تفهم إحساس المرأة التي حرمها الله الأبناء**».

«**ولكن إيما مَنْ مِنَّا يستطيع أن يغيّر القدر؟!**» صمت لوهلة وقد اتقدت عيناه فجأةً ببريقٍ غريبٍ وأردفَ: «**وَمَنْ مِنَّا أجزمَ بأنَّ الأمل مستحيل؟!**».

«**إلى متى سأستمع إلى هذه التُّرهات عن الآمال المستحيلة؟!**»، لم تقل إيما ذلك، ولكنها تمنَّتْ في أعماقها أن تفعل «**منذ خمس سنواتٍ وأنا أخضع لتجاربكم السخيفة**»، قالت وهي تجهش بالبكاء غاضبةً «**ومحاولاتكم الفاشلة، لم أسمعْ سوى تلك الكلمة (الأمل)، تلك الكلمة البلهاء الغبية التي تجعلني أعيش ليوم آخر بقلبٍ ينكسر**»، تحوَّل حزنها إلى غضبٍ محموم، وصارتْ نبرتها أعلى، ولكنها مختنقة بالألم، «**وينكسر.. وينكسرُ يوم تلو الآخر أيضًا حتى أصبحتُ رمادًا كما ترَى، انظرْ لي يا نل، هل أنا إيما التي عرفتَها؟! هل هذه هي حبيبتكَ؟! إنني ببساطةٍ ورغمًا عني لم أعدْ أكترث بحياتكم، قل لي بالله عليكَ، لِمَ الاكتراث بعالم يخدعكَ بأملٍ لا يتحقق؟!**» وانهارتْ تمامًا باكية.

شعر نيلسون في هذه اللحظات بأسى كاملٍ، أمسك نفسه عن البكاء بصعوبةٍ بالغةٍ، لم يكن يعلم ماذا يفعل في هذه اللحظات الصعبة؟، ولم يكن يدرى تحديدًا الواجب فعله؟، ولكن هذه المرة كانتْ كلماتها قاسيةً جدًا، بائسة، متجردة تمامًا من الأمل والحياة معًا، بل متجردة من كل شيءٍ حتى الوجود نفسه، شعر بعجزٍ كاملٍ

أيضًا رغم علمه الواسع المتَّقد كشمسٍ متوهجةٍ في ليلةٍ سوداءَ كئيبةٍ أمام قوةٍ لا يستطيع مجاراتها، إرادة غامضة خفية، تثاقل غريب شرع يهدُّ إرادته وبنيته، وغضب من نفسه ومن كل فكرةٍ تخللت عقله وشعر بها قلبه في هذه اللحظات، احتضنها بشدةٍ وهي ما زالتْ تبكي وهمس قائلًا بملامحٍ مَن أقسم في نفسه على النجاح لمعرفة السرِّ الخفي في لغزٍ بلا حل: «**سأحقق لك رغبتكِ يا إيما، سأكون يومًا الزوج والابن أيضًا كما كنتُ وسأكون**»، وأردف قائلًا بحزن وهو يضمها بقوةٍ من فرط إحساسه بالحب والألم: «**لن أطلب منكِ شيئًا بعد الآن**»، قال نيلسون بصدقٍ بالغ: «**ولكن عديني بأن تمنحي نفسكِ الحياة لأجل نيلسون، فبدونكِ أنا محكوم عليّ بالإعدام، أتريدين ذلك؟! قد أكون أنانيًا، ولكن أنانيتي تلك تعني الحياة بالنسبة لي، فأنت الأمُّ قبل كل شيءٍ**».

عادتْ للخلف قليلًا وهي تنظر له وقد شعرتْ بأنها أتعست الشيء الوحيد الذي تملكه في هذه الحياة البائسة القاسية، وابتسمتْ وسط حزنِها ابتسامة رقيقة، واختلجت عيناها، وسالت منها دموعها تجري، اختلاج العينين عادة تتمتع بها إيما حينما تشعر بشيءٍ صادقٍ، فتبكي إن كانتْ سعيدة جدًا أو حزينة جدًا أيضًا، وحرَّكت شفتيها بشكلٍ زاد منٍ رغبة نيلسون فيها «**حتى في الحزن إيما تهزم جميع النساء**» فكر في نفسه.

«**متى تريدنا أن نخرج؟!**» قالتْ إيما وابتسامة صادقة تلوح على وجهها «**ولا تنطق بكلمة**».

«الليلة إذا أحببتِ» قال بهدوءٍ وترقبٍ، وبعد صمت طويل أطرق فيه رأسه للأرض فكّر في كلِّ صراعات الماضي مع نفسِه، مع إيما، مع مبادئه واعتقاداته، مرَّ كل ذلك أمامه في ثوانٍ معدودةٍ، كانت أنفاسه هادئةً، ساكنة في حالة استسلام وترقب **«هناك شيءٌ يجب أن نتحدث فيه ولا أطلبُ منك الرد الآن، لم أعد أستطيع أن أراكِ بهذا الشكل، لقد فقدت القدرة على الاستطاعة نفسها»** وصمت قليلًا: **«لنتبنَّ طفلًا»**.

تطلعتْ إيما لزوجها بعيون ساهمة، مندهشة وغارقة في محاولة التصديق، اغرورقت عيناها بالدموع، وأمسكَتْ نفسها عن البكاء بصعوبة بالغة وهي تنظر له غير فاهمةٍ، لم تعلم ماذا تقول؟، ولكنه قطع بصوته العميق أحبال أفكارها وإحساسها المضطرب المفعَم بتوتر الانتظار والترقب: **«ليس هناكَ ما يستدعي في هذا العالم أن أظلَّ مُصرًّا على موقفي العنيد في هذا الأمر، الآن يمكننا أن نتبنّى طفلًا إن شئتِ»**.

احتضَنته بشدةٍ في هذه اللحظات، وبكَتْ بكاءً حارًّا، ولكنَّها الدموع الأولى منذ سنواتٍ التي تخرج منها بدافع الفرحة، بدافع الأمل والرغبة في الحياة، ما أغربها تلك الحياة التي تتحوَّل داخلنا من الثورة إلى السكون ومن الحرب إلى السِّلم!، لطالما رفض نيلسون تبنِّي طفلٍ رفضًا قاطعًا رغم محاولاتها المتكررة في طلب ذلك، أيّ رجلٍ ذلك الذي يتنحّى عن مبادئه من أجل امرأة؟!، أيّ رجلٍ ذلك الذي يتنحّى عن كبريائه أمام رغبةٍ نسائيةٍ خالصةٍ؟! هو

رجل يحبّني بنبل وصدق، رجل قادر على إدهاش العالم ببساطته وقلبه الرحيم قبل علمِه، فكّرتْ إيما وهي تعتصر يده بين يديها، أخرج الساعة من جيبٍ صغيرٍ في سترته معلقةً في سلسلة ذهبية ونظرَ لها: «لقد تأخّرتُ كثيرًا على العمل، سأصطحبكِ في السادسة، كوني مستعدّةً».

وانطلق دكتور نيلسون ريفز في طريقه راضيًا، ولكنّه في جزءٍ منه كان خائفًا لسببٍ مجهولٍ يحسه ولا يستطيع تمييزه، أو الإمساك به.

كان نيلسون بالفعل خائفًا جدًّا.

مفتش شرطة سكوتلاند يارد - عام ١٩٠٧. «تشارلز كافنديش».

كان تشارلز كافنديش يعمل مفتشًا في شرطة سكوتلاند يارد، رجل صاحب مسئولية كبيرة، له سبعة أبناء في مراحل عمريّة مختلفة وزوجة سقيمة معظم الوقت إلا أنّ ذلك لم يَحُل دون إتمام واجباته تجاه التاج الملكي وإنجلترا، يرى في مهنته العزة والعزاء، ويجد فيها ملاذًا لروحه الجامحة، يؤدي واجباتِه على أكمل وجه، لم تقع قضيّة في يديه مهما بلغتْ صعوبتها إلّا قام بحلها، لا يُعرَف عنه الرقة أو التقاعس أبدًا، طالما ارتبطَ الأمر بمجرمٍ ودائمًا ما يردِّد جملته الشهيرة بمناسبةٍ أو غير مناسبةٍ حينما يكونُ

ذهنه شاردًا في مجريات الحياة وأسرارها الدفينة العميقة، حيث تلمع عيناه السوداوان ويقول: «**بتر المجرمين من المجتمع كبتر الملاحدة من الجنة**».

يتمتع السيد تشارلز بصحة جيدة، متوسط الطول، مكتنز، صاحب جسد قوي، له رأسٌ يشبه المربع، يغطيه شعره الكثيف بنيّ اللون بينما يحيط سالفان كثّان جانبي وجهه حتى يكادا أن يغطيّاهما تمامًا، بينما قام بحلق شاربه تمامًا، له عينان نافذتان، وأنف مقوس إلى أسفل بشكلٍ غريبٍ حتى لتعتقد أنه يملك منقار صقرٍ بينما حنكه العريض بذقنه المدببة يتحرّك من وقتٍ لآخر بحركاتٍ عصبيةٍ على نحوٍ غريبٍ خصوصًا إن شعر بالغضبِ أو الرهبة، وتلك الأخيرة نادرًا ما شعرَ بها في حياته، في الحقيقة يكاد تشارلز كافنديش ألّا يخشى شيئًا.

بحكم عمله كانتْ له علاقات مختلفة ومتناقضة، مع كافّة أطياف المجتمع، من الطبقة الأرستقراطية الراقية وصولًا إلى الطبقة المتوسطة وانتهاءً بالطبقة الكادحة والرعاع على طول البلاد، فكم من مرةٍ تولى قضايا مختلفةً في أماكن وبلاد مختلفةٍ وكان له الفخر بحلّ كل تلك القضايا!، حتّى استقر بمدينته الأمّ لندن بناءً على طلب اللورد آرثر بلفور إلى مجلس اللوردات البريطاني بعد أن تولى المفتش قضيةً هامةً وسرية تخصّه، ونجح في حلّها على أكمل وجه، تلك اللفتة النبيلة المميزة منحتْ كافنديش هيبةً فوق هيبته، وعلاقات أوسع مع العديد من اللوردات على طول المملكة،

لكن كان هناك شيءٌ آخر تمامًا يجذب اهتمام كافنديش كجذب النُّورِ للفراشة وهو العِلم، كان الرجل مثقفًا بحقٍّ ولا يتوانى أو يتلكأ عن حضور أي ملتقى علمي أو ثقافي، ورغم مسئولياته العديدة التي تقع على عاتقه إلا أنَّه يجد في كل مرة الوقت؛ لينهل من ثقافة الأدباء وعلم العلماء وفطنة الحكماء، يرى فيهم النور وسط العتمة الكونية، يقدِّس الفلسفة ويعتبرها أمَّ العلوم، لكنَّه في نفس الوقت يرفض ما يتعارض مع اعتقاداته حيث يُمجِّد الدين ورجاله حتى إنَّه يعتبر كاثوليكيًا محافظًا، وفي أحيانٍ أخرى وفي ندرة من الأمور يُعَدّ متشددًا، مولع للغاية بالعلوم الغريبة والمعقدة، ويقف عاجزًا عن التعبير أمامها، لكنه دائمًا ما كان يتمتم بكلماتٍ غامضةٍ أمام ما يثيره أو يعجز عن فهمه، وفي النهاية يقول: «الله عظيمٌ، ونحن لا شيء»، كان له عادة ظريفة وغريبة بعض الشيء أيضًا، دائمًا ما يحمل منديلًا في يده، يغطِّي به فمَه وفتحتي أنفه، وكأنَّه موشكٌ على القيء أو مصاب بالأنفلونزا أو ربَّما خائف من العدوى، كلها أسبابٌ قد تكون صحيحة، فحينما يتحدّث يرفعه قليلًا ثم يعيده مرة أخرى إلى مكانه، لا أحد يعرف السبب وراء تلك الفعلة، ولكنها تُعَدُّ لَزْمَة ملتصقة به لا ينفك عنها أبدًا.

في يوم أربعاء كئيب، عاصف شديد البرودة، حيث تلفعت لندن بسحائب قريبة تكاد تسقط على الأرض، ورياح تعوي مُنذِرة بالسوء، دلفَ أحد الضباط إلى مكتبه لاهثًا ليجده غائصًا في كرسيّه، وعيناه شاردتان في ملفّ قضية، بدا على الضابط الجزع

ولمحَ كافنديش الرهبة والقلق في عينيه فنظر له مستطلعًا وقد غطى فمه بمنديله المميَّز ثم أشارَ إلى الضابط اللاهث أن يهدأ بإيماءةٍ من رأسه ثم أمرَه بالكلام، فقال الضابط بنبرة حاول أن تبدو عادية: «**أعتقد أنَّه يجب أن تحضر حالًا**».

⌛

وقف كافنديش على مسافةٍ قريبةٍ من صراخ ذلك الشيء الغريب القابع في قبو منزلٍ متهالك لعاملٍ مدمنٍ على الخمر في إحدى ضواحي لندن المترامية، وقف يتأمَّل المشهد كاملًا، مجموعة من رجال الشرطة الهلعين الذين تملك منهم الرعب تحاول الاقتراب بريبةٍ وتردُّدٍ من ذلك الشيء الغريب الذي يملك هيئة بشريةٍ ولكن الخوف السَّاكن في قلوبهم حال دون ذلكَ، فالتزموا أماكنهم متوجِّسين في انتظار إشارةٍ من كافنديش، بينما وقف الأخير ثابتًا يراقبُ ذلك الطفل وأفكارٌ عدَّة تدور برأسه، كان المكان مُعبَّأً برائحة الخمر والكدح والقهر والموت، هناك أيضًا جثَّةٌ لرجل ملقاة على الأرض وقد تهشَّم رأسه إثر سقطة على برميل من تلك البراميل التي يكتظ بها القبو، أو ربَّما ضربة قوية أودتْ بحياته في الحال، اقترب كافنديش من الجثة مغطيًا فمه بمنديله، وألقى عليها نظرة متفحصةً بينما صراخ الطفل يعوي كالرياح في الخارج، منذر بكل سوءٍ وشرٍّ، كانت الأمطار تنهل الشوارع في الخارج الآن؛ لتكتمل السيمفونية الكئيبة الموحشة،

ألقى كافنديش نظرةً أخرى على الطفل، ثم أشار لرجاله بالابتعاد بينما يقتربُ، وقف رجاله على مقربةٍ منه وقد استعدَّ كل منهم بتحفزٍ لأيَّة حركةٍ مفاجئة، رغم جدِّية كافنديش وقسوته في بعض الأحيان على رجاله إلا أنهم كانوا يكنّون للرجل كل محبة وتقدير لعلمهم أنَّ الرجل لا تحركه مطامع دنيوية يطمح لها مستعينًا بوظيفته ومكانته المرموقة، وإنما كان يعنيه العدالة، والعدالة فقط، استعدوا بأيدٍ مرتعشةٍ وإرادة متخلخلةٍ لأيَّة ردة فعلٍ.

اقترب كافنديش أكثر من الطفل الذي كان يغطي وجهه بيديه في هذه الأثناء موليًا ظهره لهم حتى صار على بعد خطواتٍ قليلةٍ منه، وفجأة التفت الولد لكافنديش ورمقه بنظرةٍ ناريةٍ لم يلقها من أحد على مر حياته المليئة بالمجانين والمجرمين من كل حدبٍ وصوبٍ، فتراجع خطوتين للوراء مرتعدًا حتى كاد يتعثر ويسقط على الأرض، حرَّك حنكه بحركةٍ عصبيةٍ ثم أسدل يده التي تمسك المنديل، وقال متمتمًا والذهول والرعب يحتلّانه: «**ليحفظنا الله من غضبه**».

* * *

<u>عام ١٩٠٧ - نيلسون ريفز.</u>

دق باب غرفة مختبر دكتور نيلسون في الساعة الحادية عشرة صباحًا يوم أربعاء عام ١٩٠٧، لم يكن أحدٌ ليتجرأ على إزعاجه أثناء خلواته وسط تجاربه وأفكاره العلمية، لذلك كانتْ نظرته تجاه

الباب تعكس غضبًا شديدًا حتى إنه قال في نفسه: لو أنَّ ذلك القادم لا يحمل سببًا وجيهًا لمقاطعتي فسيكون يوم شقائه، فتح الباب بهدوء بعد أن عدل من هيئته، وألقى بعويناته الطبيّة ذات السلسلة الذهبية على مكتبه، ثم نظر إلى ساعة الجيب المعلَّقة في صديريته بسلسلةٍ ذهبيةٍ رائعة، كان القادم هو مفتش شرطة سكوتلاند يارد، فكثيرًا ما استعانتْ شرطة سكوتلاند يارد بالطبيب في القضايا التي تتطلب تدخل عالم ضليع في الطب كنيلسون، لكن ذلك لن يحول نيلسون عن تأنيبِ المفتّش لمقاطعته إلا أنَّ النظرة الساهمة والمترددة المحفوفة بالمخاطر التي ارتسمتْ على وجه كافنديش أنسَتْه تمامًا غضبه وكبرياءه العلميّ وطبعه الأرستقراطيّ، فحدق فيه متسائلًا عمَّا يحدث خارج أسوار هذا المكان.

«**دكتور نيلسون، يجب أن تأتي معي**»، كانت لهجة المفتش وديةً، لكنها بدَتْ طلبًا يستعصي رفضه أو حتى التفكير في ذلك.

خلال الطريق داخل إحدى العرَبات التي يجرها حصانان إنجليزيان قويان أخرج المفتش ملفًا ثم تطلع إلى نيلسون الذي بدا هادئًا مرتسمًا على وجهه نظرة استخفاف وعتابٍ عميقٍ متمنيًا في أعماقه أن يكون الأمر الذي استدعاه يستحق إهدار كل هذا الوقت، ناوله المفتش الملفَّ ثم وضع المنديل على فمه كعادته، وقد بدا التوجُّس على وجهه، فرمقه نيلسون بنظرةٍ خاطفةٍ، ثم ألقى نظرةً على الملف، وسرعان ما فتحه ليلقى بعض الصور بالأبيض والأسود غير واضحة المعالم، ولكن حتى ذلك لم يمحِ نظرته

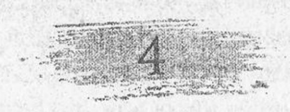
الأولى عن وجه ذلك المخلوق ذي الهيئة الغريبة، في صورٍ أخرى وجد لقطاتٍ مختلفةً لجثة رجل يبدو ميتًا أو بالأحرى مقتولًا، بينما هناك لقطات أخرى لقبوٍ وأدوات تعذيب مختلفة، في نهاية الملف وجد نيلسون ورقةً صفراءَ مهترئة وقد كُتِب فوقها بخط يدٍ مهزوز جملة واحدة «**الله لا ينتظر كثيرًا؛ لينزل عقابه**»، رفع نيلسون حاجبيه في اللحظة التي قال فيها المفتش بنبرة متوجسة: «**دكتور نيلسون، أعتقد أن الربّ غاضبٌ علينا؛ ليرسل لنا ذلك المخلوق، حينما تمّ استدعائي لهذه القضية تفاجأت، ولكن الواقع كان أكثر مفاجأة ممّا تخيّلتُ، الربّ وحده يعلم ما حدث في هذا البيت الملعون**»، أنهى كلماته وهو ينظر بتوجُّسٍ عبر النافذة على الطريق في الخارج، بينما العربة تقطع طريقها إلى جنوب لندن.

رمقه نيلسون بنظرة جانبية مفكرًا، ثم نقل بصره على صورة المخلوق الذي يواجهه، فسمع كافنديش يقول: «**لم يكن أمامي حلٌّ آخر سوى إحضاركَ؛ فأنا على علمٍ بمدى أهمية العلوم بالنسبة إليكَ، كما أنه واجبكَ تجاه إنجلترا؛ لتفكّ لنا ذلك اللغز، ماذا تعتقد يا دكتور؟!**»، رمقه نيلسون بنظرةٍ غامضةٍ لا تُفشِي سرًا أو فكرةً، فاسترسل المفتش حديثه، وقد بدا عليه شيءٌ من الخوف: «**لا أستطيع نسيان صراخِه المتواصل، لقد طوقنا المكان بالكامل حتى لا يهرب، وطلبت منهم أن يمهلوني بعض الوقت، وهأنذا**» ورسم ابتسامة عصبية.

«إني أقدر مشاعركَ حضرة المفتش، ولكن ما تراه في تلك الصور لا يُعَدّ سوى طفلٍ مشوهٍ ربما أوقعته الظروف في هذه الكارثة، فإن كان هناك بشاعةٌ تُذكَر في هذا العالم، فإنها بشاعتنا نحن» أنهى نيلسون كلماته مبتسمًا بغموضٍ، وفي نفسه يتمنى لو أنّه على صواب فعلًا.

«طفل ؟!،» اهتاج المفتش، وصارت نبرته قاسيةً: «ماذا تقول يا بروفيسور؟!، إني لم أرَ في حياتي وجهًا مهما بلغتْ بشاعته كهذا الوجه، ولم أسمع صراخًا في حياتي يشبه ذلك الصراخ حتى في أسوإ كوابيسي»، لاحظ دكتور نيلسون رجفةً خفيفةً سرَتْ في جسد المفتش، ولو لم يكن يعرفه جيدًا لفكر بأنّه جبانٌ؛ ولكن الحقيقة أبعد تمامًا عن ذلك، فمال برأسه تجاه الصور يتفحّصها لمرةٍ أخرى وقد أحسّ بشعورٍ غريبٍ دعمه حدسُه بأن هناك الكثير من الأمور الغامضة التي ستحدث قريبًا، أمور لم يتخيَّلْ يوما بأنها ستحدث له.

له هو بالذات.



«أنت دائمًا غائصٌ في أفكارك»، قال نيلسون الشاب بابتسامة.

كانت صافرة القطار تعلن عن وصوله إلى إحدى المحطاتِ في هذه اللحظة، بينما تجمهر عددٌ غير قليل من المسافرين والمنتظرين إمّا للقاءٍ وإمّا للوداع على رصيف المحطة، كان الجو موحشًا بحقٍّ، أمطار غزيرة لا تتوقّف، سماء ملبّدة بالغيوم، ورياحٌ تعوي، وثمّة رائحةٌ في الجو تشِي بالشر، تلك الرائحة يعرفها كريستيان جيدًا، حيث يهبطُ قلبه في قدميه، ويشعر باختناقٍ في صدره، وبأنّ التنفس أضحى مسألةً صعبةً للغاية، نظر لنيلسون مستطلعًا، وابتسم ابتسامةً عصبيةً، بدا كأنه يحاول إزاحة شيءٍ ثقيلٍ أو فكرةٍ غير مرغوب بها عن صدره.

«المعاناة أهمّ طريق للوصول إلى العبقرية، قرأتُ تلك الجملة في رواية لكاتب روسي، لكنّي - وبكلّ أسفٍ - لا أستطيع تذكّر اسم الرواية، أو حتى اسم المؤلف» قال نيلسون، ثمّ نظر من النافذة على الخارج ليلقَى مشاعر متباينة هنا وهناك، وجد الدموع

والابتسامات، اليأس والأمل، الانتظار والمفاجأة، استغرب في نفسه ما يراه حوله، ثمَّ أردف قائلًا ونظره معلَّق بحبيبين يتعانقان: «غرباء هم البشر، يحملون من المتناقضات ما لا أفهمه، ألا ترى ذلك معي؟!».

نظر له كريستيان نظرة العارفِ وهو يرمق نفس الحبيبين بنظرةٍ امتلأتْ بالشوق «تكلمت عن المعاناة يا نيلسون بأنَّها أولى الطرق وأهمّها إلى العبقرية وكنت محقّاً في ذلك، فإنَّ العباقرة جميعًا تعرّضوا لمعاناةٍ لا يتحملها الكثيرون، ولكن لي نظرةً أخرى للحياة، فأجد أنَّ المعاناة جزءٌ لا يتجزأ من حياتهم، أجد أن المعاناة وُهبَتْ لهم بطلبهم هم، لا تتعجّب ولا تنظر لي تلك النظرة، نعَم، إنَّها الحقيقة، لقد وُهبوا المعاناة والألم؛ ليروا منِ خلالهما طريقهم، فلا حيلة في حياةٍ مترفةٍ، لا أمل في دنيا فارغةٍ، ما القيمة إن كانوا سعداء دائمًا؟!، وما الذي سيبحث عنه العبقريّ إن وجد نفسه سعيدًا متخمًا بالمال والسلطة؟!، الترف يفسد العقل والدّعة تفسد القلوب، إنّ المعاناة تفتح لك آفاقًا أخرى، دروبًا لم تعرفها، قيمًا لم تتخيل يومًا وجودها من الأساس، البحث يا صديق، الطريق يبدأ من هنا، من تلك النقطة، وكما ذكرت سابقًا ولك الحق في ذلك بأنّ المعاناة أهمّ سلاح للعبقري، وكلما زادتْ معاناته أضحى أكثر عبقرية».

وجد نيلسون نفسَه يصفق بحرارةٍ لزميله الغريب، ثم قال: «حريٌّ بك أن تدرس الفلسفة الإنسانية فهي أجدر بكَ منّي».

ابتسم كريستيان مضيفًا: «علوم الأحياء أيضًا مهمّة يا صديقي، فلقد اكتفيتُ بالفلسفة، وحان الوقت لإيجاد معاناتي الخاصة، تلك المعاناة التي حتمًا ستجرفني نحو طريقي الذي رُسم لي منذ البداية، حينما تؤمنُ بأن أقدارك تسوقك لنقطة ما، حينها ستستريح؛ لأنكَ ستفتح ذراعيك مرحّبًا، آملًا أنّ الله قد هيأك جيدًا لهديّته، والهدية هنا هي الهدف الحقيقي من حياتك».

نظر نيلسون في الخارج متأملًا وقد زاغتْ عيناه وكأنه يفكر: «وماذا عن هؤلاء؟!»، وأومأ برأسه مشيرًا إلى الناس في الخارج والماكثين على رصيف المحطة.

«أعتقد أنك أجبتَ نفسكَ»، قال نيلسون ثم تنهّد ونظر متأملًا لوهلة تجاه الرصيف، «إنهم متناقضون، وهذا سرُّ جمالهم، الجمال يأتي من التناقض، فلن ترى الجمال إلا إن وجدتَ القُبح، ولن تملك الشوق إلا إذا كنتَ جوبتَ الجفاء، ولن تشعر بالثراء إلا إذا كنتَ جاريتَ الفقر والعدم».

أوما نيلسون برأسه موافقًا، وقال بعد شرودٍ لم يطُل: «أعتقد حقًا أننا جئنا؛ لنكتشف الجمال».

أثّرت تلك الجملة في نفس كريستيان كثيرًا حتى إنه شعر بالدموع تترقرق في عينيه، ورغمًا عنه انتزع وجهه من وجه نيلسون وزمّ شفتيه محاولًا كبح دموعه، أحسّ نيلسون بذلك فتساءل متوترًا: «هل قلتُ ما يغضبكَ مني؟!».

قال كريستيان وكأنه يحدث نفسه: «**بل فعلت ما أغضب الله مني**».

لم يتبين نيلسون معنى كلماته، فتطلع له مستفهمًا، لكنه لم يجد إجابة شافية، وبعد لحظةٍ نظر له كريستيان وبهدوء قال: «**ولكن أتدري يا نيلسون؟! الجمال موجود حقًا في قلةٍ من البشر، قلة قليلة من البشر**»، ثم نظر جانبًا وقد ملكه الشرود فغامت عيناه في نقطةٍ مجهولةٍ.

عام ١٩٠٧ - إيما ريفز

هدأ الجو فجأةً، واستكان كما يستكين الرضيع الباكي المذعور لحضن أمه، أحسَّت إيما بأنَّ ثمة عناية إلهية تظللها، وشعرت براحةٍ خفيةٍ تتسلل إلى جوانحها، متسرِّبة بخفة ونعومة إلى أواصرها، ففتحت النافذة الكبيرة في غرفتها وأطلت منها على العالم الواقع أمامها لتلقى حديقة المنزل المترعة بشتى أنواع الزهور المختلفة والفوّاحة بروائح من جنةِ عدنٍ كما يصفها نيلسون دائمًا، ثم أخذتْ نفسًا عميقًا؛ لتملأ رئتيها بنسيم تلك الظهيرة الدافئة والمفاجئة بعد أن ظن البعض هذا الصباح بأنَّ الرياح لن يهدأ لها زئيرٌ حتى تجتثَّ لندن من جذورها، على غير عادتها كانت متحمسةً بشكل أو بآخر، لديها رغبةٌ عارمة في ترك غرفتها والانطلاق كالأيام الخوالي؛ لتتسوّق أو لمجرد التسلية

ومتابعة البشر من حولها وقد ملكهم الحماس، فانطلقوا هنا وهناك لمشاغلهم المعتادة الرتيبة، وحياتهم الشخصية الروتينية. تتوق لأنْ تحتضن نيلسون، وتتأسّف له عمّا بدر عنها خلال كل تلك المدة المنصرمة، لطالما أوجعَه ألمها وخلوّها المستمر بنفسها عنه وعن الحياة نفسها، الحياة الآن وبدون مقدماتٍ وبمنتهي البساطة تدبُّ بثقةٍ وقوةٍ في قلب إيما، ما الذي حدث؟!، وكيف يمكن أن يحدث؟!، كل ذلك لم يكن له أهمية الآن، كل ما في الأمر أنها تتوق لترك ذلك المنزل حالًا، وهذا ما فعلَتْه.

اقتحمت مختبَر زوجها دون طرقات استئذانٍ وقد علا وجهها وميضٌ منعشٌ من السعادة، ما كان يسعد نيلسون حقًا رؤية غمازتيها وهي تبتسم، تلك الابتسامة المشرقة ولكن تلك الابتسامة ذابتْ تمامًا حينما وجدت نيلسون يجلس في مواجهة ذلك المخلوق الغريب، في الحقيقة إنَّ إيما لم تخف، بل إنها لم تتراجع عن موضعها قيد أنملةٍ، بل ظلت واقفةً تتأمل بهدوءٍ هذا المخلوق، وكأنها نسيتْ تمامًا وجود كل شيءٍ حولها.

تتذكر جيدًا حينما التفتَ لها بعينيه المخيفتين محدِّقًا بتلك البؤرتين الصغيرتين الحادتين اللتين تبثّان الرهبة في النفس، وقد اعتراه خوفٌ دفينٌ، رغم أن قراءة ذلك الأمر الأخير في ذلك الوجه يُعَدُّ أمرًا مستحيلًا إلا أنَّ ذلك هو ما حدث بالفعل، كان إحساسها به طاغيًا ومتفردًا، حاضرًا كحضور الأرض من تحتها، اقتربت قليلًا، فحاول نيلسون منعها إلا أنها وبلا إرادةٍ نحّتْ يده

جانبًا دون أن ترفع بصرها عن ذلك المخلوق وجلستْ بهدوءٍ في مواجهته، ظلتْ ترمقه لثوانٍ بدَتْ لنيلسون طويلة كعمرٍ مديدٍ، بينما تسمَّر الأخير في مكانه مندهشًا، وكذلك المفتش الذي بدا مذعورًا ومتحفزًا متلمسًا موضع مسدّسه في الحزام حول كتفه منتظرًا أن يصدر ثمَّة أيّة حركة عدوانية؛ ليرديَه قتيلًا كما يردي الحيوانات البرية في رحلات صيده المتكررة.

رغم محاولات دكتور نيلسون في تنحية زوجته إلا أنه علم بما لا يقبل الشك أنَّها محاولات بلا جدوى، لذلك وقف على مسافةٍ قريبةٍ منهما مستعدًّا لأيّة حركةٍ غير مرغوب فيها، كان عقله متوقفًا تمامًا عن العمل، فرغم محاولاته الحثيثة مع ذلك المخلوق؛ ليخرج منه بأي شيءٍ إلا أنه فشل فشلًا ذريعًا حيث ظل المخلوق ساكنًا يلهو من وقتٍ لآخر بخجلٍ وبهدوءٍ ببعض الأدوات الملقاة حوله، لم تبدرْ منه كلمة أو حتى إشارة مفهومة، لكن الغريب أنه حينما طلب منه دكتور نيلسون أن يهدأ حينما أتاه في القبو، هدأ بعد أن وعده بأنه لن يُمَسّ بأي سوء طالما أنه موجود هنا.

«لا تخف، أنا دكتور نيلسون ريفز ولن تُمَسّ بسوءٍ طالما أنني هنا»، قالها نيلسون مشيرًا بيده أن يهدئ من روعه.

حدجه المخلوق بنظرات خالية من أيّ تعبير، هذا ما رآه نيلسون، إنها ببساطة نظرات خالية من أيّ تعبير، لكن في الحقيقة كانت نظرات المخلوق ما هي إلا دراسة جيدة لمدى صدق نيلسون

وجدّيته، فهدأ المخلوق ثم نقل وجهه بريبةٍ وتحفز بين جميع أفراد الأمن المذعورين الذين يوجهون مسدساتهم وبنادقهم تجاهه، ويصرخون مهددين بشتى التهديدات الممكنة ناهيكَ عن الشتائم المقذعة التي قذفوه بها، لاحظ نيلسون ذلك ودون أن يدير وجهه عن المخلوق قال بلهجةٍ صارمةٍ: «**حضرة المفتش، مُرْ رجالكَ بالخروج فورًا من هنا**»، كانت لهجته صارمةً لا تقبل مناقشة.

تأمله المفتش للحظات مترددًا وقد بدا على وجهه الانزعاج والخوف، لكن لهجة نيلسون الصارمة قطعتْ كل ذلك «**إن لم تخرجوا فورًا فسأنصرفُ حالًا، أظن أنكَ جئتَ بإرادتك الحرة طلبًا في مساعدتي، والآن أرجوكَ..**» وأشار بيده طالبًا منهم الانصراف لآخر مرةٍ.

أشار المفتش مترددًا بعد وهلة تفكيرٍ لم تطل لرجاله بأن ينصرفوا إلى الخارج، وبالفعل قد كان، اقترب نيلسون بهدوءٍ من ذلك المخلوق حذرًا ومتأملًا، لكنه في الحقيقة لم يكن خائفًا، بل كانت الشفقة والعطف يعتصران قلبه، لكنْ ثمّة شيءٌ أُلقِيَ ببرودة خفية ومفاجئة في جسد نيلسون تسللتْ إلى روحه، إحساس غريب متوهج انتقل إليه بمجرد أن لمستِ المخلوق يده، ونظر في عينيه نظرة نافذة، تلك النظرة لم ينسَها نيلسون قط، ولم يستطع رغم محاولاته المتعددة والحثيثة تنحيتها بعيدًا عن أفكاره، كأنَّ تلك النظرة إشارة بعالم مجهولٍ وغريبٍ في انتظاره، عاد إلى الخلف مفكرًا ومستكينًا بشكلٍ غريبٍ، وفكر في نفسه «**هذا المخلوق لا**

يُعَدُّ أكثر من طفلٍ أوقعه القدر في هذا العالم الطاغي»، هل هذا ما رأته إيما في ذلك المخلوق؟!، هل شعرتْ بشيء جعلها هادئة غير خائفة أو حتى متوجّسة منه؟!، لا أحد يعلم الحقيقة تحديدًا، وما الذي كان يدور في ذهن إيما أو قلبها الطيب الشجاع حينما اقتحمَتْ مختبر نيلسون غير مدركة ما ينتظرها؟!

تأمل المخلوق بعينيه الغريبتين والمخيفتين وجه إيما، ظهرتْ على وجه الأخيرة ابتسامة هادئة وحنون، وهي تتأمله بدورها وقد عمَّ الصمت المطبق المكان بأكمله، كأنَّ الأصوات قد انمحَتْ تمامًا من الوجود، كان نيلسون والمفتش على وضعيتهما، وكأنهما قد تجمدا في أماكنهما.

«**لا تخف، أنا اسمي إيما، وهذا دكتور نيلسون زوجي، لن يمسَّكَ أحدٌ بسوء طالما أنَّنا هنا، أرجوكَ لا تخف**»، كانت نبرة إيما هادئةً ومطمئنةً للمخلوق، فرفع بصره تجاهها ورمقها لثوانٍ وكأنه يتأكَّد صدقها.

«**أنا إيما.. هل لكَ اسمٌ تحمله؟!**»، سألت إيما، لكنَّه لم يجبها، وظلَّ ناظرًا تجاهها متأملًا، فأعادتْ إيما نفس السؤال الأخير بهدوءٍ، ثم أشارت على نفسها وكأنها تُلقنُ طفلًا صغيرًا درسًا «**اسمي إيما، أنا إيما**» تأمَّلها المخلوق لثوانٍ، ثم نقل بصره بين المفتش ودكتور نيلسون بهدوءٍ، ثم ثبَّتَ بصره عليها وبصوته الأجشّ نطق لأول مرةٍ بنبرةٍ بطيئةٍ مترددةٍ ومتوجسةٍ: «**أنا.. اسمي كويستيان**».



ذات يوم من الأيام البعيدة كان النَّبي يوسف عزيز مصر يتفقَّد أحوال العامة في الأيام الأخيرة من القحط الذي ضرب مصر والشام لسبع سنواتٍ، وبينما كان واقفًا يتابع صرف الحنطة انتفض رجلٌ غاضبًا مطالبًا بالحنطة من أجل أولاده، فما كان من الناس حوله إلا أن اعترضوا عليه، فسألهم النبي يوسف عن الأمر فأجابه العديدون بأنَّ ذلك الرجل حين كان غنيًا وميسورًا كان يعاملهم بفظاظةٍ وخشونةٍ وظلم، ولم يرحم يومًا عبدًا لديه أو خادمًا، وقد توالت الأيام وانقلب الحال فصار الجميع فقراء إلى الله، فسأله النبي يوسف: أحقًا ما يقوله هؤلاء؟! فتلعثم الرجل، فسأله النَّبي يوسف مرَّةً أخرى عن ماله وجاهه، فأجاب الرجل بأنَّه قد زال، ثم سأل النبي يوسف: في أي شيء زال؟!

فأجاب الرجل: قررت أن أحفظ الحنطة على طريقتي بعيدا عن أيدي حكومة مصر، ولكنها فسدتْ، فنظر له النبي يوسف مفكرًا ثم سأله: وهل تملك المال لشراء الحنطة؟!، فأجاب الرجل بالنفي، فطلب منه يوسف النبي أن يقبل بالعبودية لدى دولة

مصر، وحينها يستطيع صرف الحنطة بالمجان، فاعترض الرجل بكبرياء وتعنُّتٍ، وقد علا وجهه الغضب واليأس أيضًا، فابتسم النبي يوسف ابتسامة عارفة ثم انحنى على الرجل المسؤول الذي يصرف الحنطة وأمره بصرف الحنطة له مجانًا فهو لا يقبل أن يهين كرامة أحدهم تحت أيِّ مسمّى، وحينما همَّ يوسف النبي بالانصراف أخبر الرجل المسؤول ذلك الرجل بأن ينتظر؛ لأنَّ الحنطة ستُصرف له مجانًا ودون أن يوقع صكَّ عبوديةٍ لدى دولة مصر، فتطلع الرجل بعينين دامعتين مستغربتين تجاه يوسف النبي وهو يرتقي حصانه، فابتسم رجلٌ من العامَّة قائلًا: «**ألا تُعَدُّ العبودية لدى هذا الرجل هي كل الحرِّية؟!**».

«**كلما قرأت القصة تساءلتُ: لِمَ يُصرّ البشر دومًا على سلب أحدهم كرامته كلما سنحت لهم الفرصة؟، ولِمَ تبدو القسوة والإهانة سهلة؟! والسؤال الأهمّ يا نيلسون: كم يوسف يوجد في هذه الحياة؟!**»، كانت عينا كريستيان ثابتتين على عيني نيلسون الشابّ الذي بدا مبهورًا بثقافة كريستيان وطريقته الهادئة في قصِّ الحكايات، لكن ما أبهره بشدة فلسفته العميقة ومعانيها الدفينة المغمورة في قصصِه، لم يسأل نيلسون سوى سؤالٍ واحدٍ: «**هل للقسوة جذرٌ انبثقت منه، وترعرعت حتى انتشرتْ بهذا الشكل المهيب لتفتكَ بنا؟!**»، وكانت الإجابة واضحةً رغم غرابتها، لكن رغم ما يخفيه صوت كريستيان إلا أن نيلسون شعر بأن هناك تحت تلك الطبقات الفلسفية شخصًا مهشمًا أو مغمورًا بالأسى

والحزن، عاد من شروده ليجد كريستيان جالسًا محدقًا في الفراغ نحو السّماء، وكأنه يطلب العونَ بلغةٍ لا يدركها سواه، هو فقط.. كريستيان..

⌛

في الحقيقة غاص كريستيان بأفكاره وذكرياته البعيدة داخل تلك الحجرة الواسعة ذات الروائح النفاذة والغريبة، لكن كانتْ هناك رائحةٌ دافئةٌ ومطمئنةٌ تجذبه بشدة رغم خوفه الشديد الذي تملَّك منه، رائحة إيما السيدة الإنجليزية الكريمة والعطوف، تلك التي تعاملتْ مع طفلٍ مشوَّهٍ دون خوفٍ أو توجُّس، تعاملتْ معه بإنسانية صادقة لم يعهدها في أحدٍ من قبل، حملتْ عيناها الحب لا العطف، الكرم لا الإحسان، عاملَتْه كإنسان حقيقي أوقعَته الظروف المخزية بين أنياب عالم سُلبت منه الرحمة، كان سيقبل بالعبودية لديها لو طلبت، بل كان سيقبل بالموت حد قدميها ونظرته الأخيرة ترمقها لتعزيه عن السنين البائسة والموحشة التي مر بها بعذاباتها وقسوتها، ولكن لم يكن يعلم كريستيان بأن تلك هي مجرد البداية لعالم آخر.

«أنا اسمي كريستيان» كانت تلك جملته الأولى الحقيقية التي انطلقتْ؛ لتغزو العالم، لذلك ظلَّتْ جملته المفضلة والواثقة كما تَعلّم على مدار الأيام والأعوام المختلطة بالأمل والألم أيضًا، يتذكر جيدًا حينما قرَّبت يدها تجاه وجه ذلك الطفل المنبوذ البشع

بلا خوف، ثم أخبرته ببساطةٍ «بأن لا شيء يدعو كريستيان للخوف طالما أنَّها هنا»، عاد كريستيان من شروده مبتسمًا ابتسامة هادئة ومتمتمًا.

«نعم، لم يمت النبي يوسف».

عام ١٩٠٧ - إيما ريفز

عادتْ إيما إلى منزلها في تلك الليلة وتساؤلات كثيرة تدور بخلدها، تحوَّل ظنُّها الحسن بالعالم إلى العكس تمامًا، سقطتْ في كوّة من نارٍ تلسعها وتشوي أفكارها المضطرمة، لم تتحدث ولم تتفوّه بكلمةٍ منذ خرجت من المعمل تاركة كريستيان في وحدته لدى زوجها في المختبر، تذكرتْ ابتسامة الصغير الصعبة التي ارتسمت على ملامحه الغريبة، في الحقيقة لم ترَ إيما كريستيان كما رآه نيلسون، حالة طبية متفردة ونادرة الوجود، ولم تره أيضًا من منظور كافنديش الصعب، غضب الله علينا، وحش يجوب العالم، كائن يجب الخلاص منه وفي الحال.

أزعجَتْها وحدتها بين جدران المنزل الكبير، وتاقَتْ للحديث لأي شخص كان، ولكن عمَّ تتحدث؟، وماذا تقول؟! وكيف تصف مشاعرها المتناقضة المضطرمة؟! فهي بنفسها لا تعي حقًا ما تشعر به، لا تجيد قراءته كي تكتبه في الفراغ كي يصل عبر الهواء مع الأفكار المتنقلة، تذكّرَتْ لمسة كريستيان الرقيقة،

نعم، تحسُّها تمامًا، تدرك الفارق جيدًا بين الوحوش والأطفال، بين الشراسة والبراءة، كريستيان مجرد طفلٍ اختار له القدر مهمة صعبة، مهمته هي اجتياز هذا العالم الموحش والظالم بكائناته المتحذلقة عديمة الرحمة التي لن تتوانى عن سَحْقِه بكل بساطةٍ، بكل قوةٍ وبرودٍ ودون أن يجفل لهم جفن مدّعين أن تلك هي الرحمة المنشودة لطفل ككريستيان.

ألا فليأخذ الله الجبناء ويهوي بهم إلى سعير!

حاولَتْ بشتى الطرق أن تتحايل على أفكارها وتنحي الموضوع جانبًا، قرأت بلا تركيز أو انتباه، حملقَتْ في الحديقة؛ لتستعيد مزاجيتها الصباحية، انهمكت مع الخدم في ترتيب المنزل، أصدرتْ الأوامر بإخراج فرستها «**جودي**» من الإسطبل، وركبتها حتى أنهكها الركوب والعَدْو حتى كادت تسقط، خلعَتْ ملابسها وانزلقت داخل الحوض الكبير، ودفنَتْ رأسها تحت الماء الساخن لثوانٍ طويلةٍ محاولةً إسكات أفكارها ودَحْر الكون الفوضوي تمامًا من حولها، ولكن كلّ ذلك كان بلا طائلٍ يُذكَر.

انتظرتْ لساعات طويلةٍ عودة زوجها من الخارج مع أخبار جيدة، تمنَّتْ ودعَت وتضرعَت بكل الصلوات التي تعرفها أن يتخذ زوجها قرارًا عادلًا بشأن كريستيان، انغمسَتْ أكثر في أفكارها محدقة في الفراغ، ما السر الحقيقي وراء اهتمامها بكريستيان؟!، هل هي النزعة الإنسانية التي تتمتع بها؟! أم أنه الإحساس المغمور بالعطش للأمومة؟!، ولكن أية أمومة؟!، «**إيما**

الجميلة تفكر بالوحش؟! كريستيان مجرّد حالة يا إيما سيجد نيلسون حلًا لها، كما أنَّ موت والد الطفل مشكوكٌ فيه ولا أحد يعرف أو يستطيع التأكيد ما حدث داخل هذا المنزل الملعون»
فكّرت في نفسها، لكن كيف تسمح لنفسها وببساطةٍ أن تكذّب حدسها؟! كريستيان مجرد طفلٍ يرتدي قناعًا وحشيًا، مجرد قناعٍ لا يغير من حقيقة كونه طفلًا.

البؤس على العالم، واللعنة على الغباء.

قاطع أفكارها صوتُ نيلسون في الخارج وهو يسأل عنها أحد الخدم، نظرتْ نظرة سريعة عبر النافذة لتجد عربته التي تجرها الخيول تنسحب تجاه الإسطبل في اللحظة التي انفتح فيها الباب؛ ليكشف عن وجهه المنهكِ وقد بدا عليه الإعياء، هرولتْ تجاهه مسرعةً وابتسامة قلقة تعلو وجهها، احتضنها برقة ثم أزاحها قليلًا بهدوءٍ دون أن يتفوّه بكلمةٍ، ثم جلس على الأريكة الكبيرة مرهقًا في جانب الغرفة الفسيحة الموشاة في السقف بصورٍ للملائكة كما في الكنائس، بينما هناك لوحة ضخمة معلقة على الجدار لريفز الكبير وقد بدا متجهمًا متأملًا ومراقبًا لكل شيء، الجَدّ الذي وضع حجر الأساس لعائلة ريفز، كان السرير كبيرًا للغاية حيث يتسع لأربعة أشخاصٍ وقد افترش بملاءة قرمزية موشاة حوافها بلون ذهبي يتلألأ مع نور القمر المتسرب من النافذة، بينما الأرض مفروشة بسجادٍ ثقيلٍ داكن الحمرة حتى يكاد يلفظه، بينما الستائر

المصنوعة من الحرير الدمشقي بلونها الأحمر المتداخل مع اللون القرمزي قد أعطى للمكان هيبة وكأنه كنيسة للصلاة.

ركعتْ إيما جالسة على الأرض بجواره حتى صارت ركبتاه في مواجهة وجهها، تطلعَتْ له بنظرة متسائلة وقلب أدمَته المشاعر المخيفة ورأسٍ أرهقته الأفكار المضطربة، كان نيلسون يعرف تمامًا ما يدور في رأس زوجته، ما يعتمل في صدرها، ابتسم ابتسامةً رقيقةً وهو يلثم وجنتها بأصابعه الغليظة ذات اللمسة الرجولية الودود.

«**كريستيان بخير**»، قال نيلسون «**لا تقلقي**».

ابتسمتْ إيما ابتسامة حذرة وهي ترمقه كقطةٍ تتمسح في صاحبها الذي غاب عنها طويلًا، وانتظرت أن يكمل حديثه، لكنه عاد بظهره إلى الخلف مُنهكًا، غارقًا في أفكاره.

«**ماذا سيحدث لكريستيان؟!**» أطلقَتِ السؤال وكأنها تسأل العالم كله، وليس نيلسون فقط.

نظر لها نيلسون محاولًا لَمَّ شتات نفسه الممزقة مع تجربة اليوم، تأمل وجهها الجميل وأدرك الحقيقة بأنَّ إيما تعاني، تباغتها الأوهام والافتراضات القاسية، تندلع نيران الحرب داخل قلبها المرهف، فكَّر قليلًا محاولًا بقدر ما استطاع من قوةٍ باقيةٍ لديه أن ينتقي كلماته جيدًا وفي نفس الوقت يخبرها بالحقيقة واضحة كما اعتادت منه.

نهض من مكانه بهدوءٍ، وولّى ظهره لها، ثم اقترب من النافذة محاولًا جلب بعض السلام والطمأنينة من السماء إلى نفسه، ثم أخذ نفَسًا عميقًا «**إيما، أنتِ تدركين جيدًا مدى حساسية هذا الأمر كما أدرك تمامًا مدى رجاحة عقلكِ، إن كويستيان لن يستمر بقاؤه لديَّ طويلًا، كما تعلمين أن كافنديش قبل أن يكون مفتش شرطة مرموقاً فهو أيضًا رجل مولعٌ بالعلوم، وهذا السبب الوحيد الذي جعله يُوْلِي ثقته فيّ، لذلك سيتوجّب عليّ بعد الانتهاء من كريستيان أن أعيده إلى المفتش وشرطة سكوتلاند يارد، وهناك سيتولّون أمره؛ لأن مهمتي في هذه الحالة ستكون قد انتهتْ**».

بدَتْ إيما غير فاهمةٍ ما يرمي إليه نيلسون، وفي الحقيقة إنَّ نيلسون بنفسه لا يدرك حقيقة ما يقوله «**ولكن أنتَ تعلم أنَّه ومع هذا الوجه سيُعامَل معاملة سيئة، وربَّما سيتخلَّصون منه أو يُزدونه قتيلًا، أنت تعرف ذلك يا نيلسون، كريستيان لن يتحمَّل يومًا واحدًا في الخارج في تلك الغابة التي نعيش فيها، سيكون منبوذًا!**».

«**ربَّما سيهبونه لكنيسةٍ ما للعمل بها، وليبقَى بها ما بقي من حياته**»، استدار نيلسون ناظرًا لها وقد بدا عليه لوهلةٍ شيءٌ من القرف، إحساس عابر أجاد إخفاءه سريعًا يوحي بإحساسه بالذنب أو الندم، ذلك الشعور تعرفه إيما جيدًا، أدركَتْ حينها أنَّ نيلسون

يفكر فيما تفكر فيه، يرهقُه ما آل إليه كلّ شيء حول كريستيان، يخنقه ويُعذّبه وجوده من الأساس.

«أيّة كنيسة تلك التي ستقبل بطفل مثله؟، الأطفال يجوبون الكنائس، الرجال والنساء أيضًا، سيصطدمون به يوم أحَدٍ مجيد، وحينها سيصير أضحية تُقدَّم للربّ باسم الواجب، حينها سيكون كريستيان الأداة التي ستُصلَب؛ لتغفر خطايانا».

«**إيما، كريستيان ليس المسيح**» قال نيلسون مهتاجًا بعض الشيء.

«**والمسيح بجماله وبهائه صلبوه يا نيلسون، ولو كان موجودًا لن يقبل بصلب آخر**» قالت إيما متحدِّية.

أخذ نيلسون نفَسًا عميقًا محاولًا تهدئة نفسه، ثم اقترب من زوجته قليلًا «**حتى الآن مصير كريستيان مجهولٌ تمامًا، صدقيني، إنّي لا أكاد أعرف شيئًا أكثر مما رأيتِه اليوم**».

«**وماذا عن والدته؟! أين هي؟**» تساءلَتْ إيما بضيقٍ: «**الشرطة تبحث عنها، ولكن إلى الآن لا أخبار**».

«**وماذا عن موت الوالد؟، ما الحقيقة التي توصلَتْ إليها الشرطة؟**».

«**لقد أخبرني كافنديش أن الرجل كان معروفًا بإدمانه ومعاقرته للخمر، ولا يوجد أي شخص من الجيران يدرك أي شيء عن حقيقة وجود طفلٍ في المكان من الأساس، يبدو أنه**

كان محتجزًا طيلة تلك الأعوام، وربما هناك حقيقة أخرى، الأمر كله غامض بالنسبة للجميع».

«وماذا عن موت الوالد يا نل؟!» أعادت سؤالها مصرَّة.

«لقد أفاد الطبيب المسؤول بأنَّ الموت جاء إثر سقطة عنيفة على جانب أحد البراميل» قال نيلسون ثمَّ جلس على الأريكة مرهقًا تمامًا بعد هذا التحقيق الطويل.

ابتسمتْ إيما وقد صدق حدسُها، البراءة وإن كان يحملها وحشٌ تظل براءة كما هي، لن تُمَسّ، لن يخربها ثمَّة شيء في هذا العالم مهما كان «والآن ماذا ستفعل معه؟!» سألتْ إيما محدِّقة فيه بينما نظر لها نيلسون نظرةً مستطلعة «ماذا تعنينَ بماذا سأفعل به؟».

«أعني أين هو الآن؟».

«في المختبر ما زال، سيمكث لديّ أسبوعين، كان هذا هو طلبي من كافنديش، وقد استجاب الرجل بعد إلحاحٍ وبعد أن أكدت له أنَّه سيظل في أمانٍ طالما أنه معي، وقد جعلني الرجل أوقِّع على ذلك، فأنتِ تعلمين أن الرجل يعرف واجبه جيدًا، وبما أنكِ تتساءلين عمَّا سأفعله به، سأحاول أن أساعده يا إيما، سأجري اختباراتي؛ لأفهم الحقيقة حوله، حول وجهه أقصد، لم أرَ منه شيئًا مقلقًا، مجرد طفلٍ يعبث كالأطفال، والآن بالله عليكِ أريد حمَّامًا وسريرًا دافئًا فقد أُنهِكَتْ قواي تمامًا اليوم».

ظهر على وجهها شبح ابتسامةٍ، ثم تركَتْه منسحبةً إلى خارج الغرفة؛ لتنادي إحدى الخادمات، والأفكار تدور بعقلها، تدرك جيدًا أنَّ هناك معركة منتظرة، ستحتاج فيها لكامل قواها.

عام ١٩٠٧- نيلسون ريفز

حينما عاد نيلسون إلى المختبر في اليوم التالي لاحظ أن المختبر في حالةٍ من الفوضى، تفكر قليلًا متسائلًا، ثمّ أخرج ساعته المتدلية بقلقٍ، ونظر فيها ثمّ رفع عينيه ليجد كريستيان في مواجهته، وشيء يشبه الابتسامة أو ربما القرف يرتسم على ملامحه، قال في نفسه: «**يا ترى ماذا تكون بالضبط يا كريستيان؟! أغضبٌ من الله علينا كما يقول كافنديش؟! أم اختبار صعب علينا اجتيازه؟!**» ابتسم رغمًا عنه ساعيًا لخلق حالةٍ من المودة بينه وبين الطفل، فاقترب منه كريستيان بهدوءٍ، ثم قال بصوته الغليظ ولهجته البطيئة في صنع الكلمات: «**دكتور نيلسون، لقد أسقَطتُ شيئًا، هل ستؤذي كريستيان كما كان أبي يفعل؟!**».

اجتاحتْ نيلسون مشاعر الشفقة، ولكنَّها ليست تلك الشفقة التي نحسها تجاه شخصٍ يمثل لنا أهمية، إنها تلك الشفقة العابرة التي تعترينا إن رأينا ما يثير مشاعرنا في الشارع، تلك الشفقة التي سرعان ما تنزوي بمجرد انتهاء الحدث، في الحقيقة وفي جزءٍ مدفونٍ في أعماق نيلسون كان هناك خوفٌ من ذلك الطفل، لم

يكن إحساسًا طافيًا ملموسًا، ولذلك شعر نيلسون بالغرابة تجاه نفسه حتى إنَّه كاد يلاحظ أنه يكتشف جزءًا في نفسه لم يعهده من قبل.

ابتسم نيلسون ابتسامةً صادقةً لكريستيان وربَتَ عليه بحنوٍّ: «**لن يعاقبكَ أحدٌ، ولكن عدني بألا تفعل ذلك مجددًا**»، تطلع إليه كريستيان وقد لمعت النقطتان في وجهه فأدركَ نيلسون أنه يبتسم.

مرت الأيام ونيلسون منهمكٌ في عمله وتجاربه على كريستيان، قام بعمل التحاليل وسحب منه الدماء محاولًا الوصول لخيطٍ لما هو أمامه، اهتم كثيرًا بالرجوع إلى الجذور ليفهم حقيقة الولد، استعان بكافنديش ليمدّه ببعض المعلومات المتعلقة بعائلة الطفل سواءً من ناحية الأم أو الأب، هل كانا قريبين؟!، هل كان الأب أو الأم أو أحد الفروع القريبة أو الأجداد مصاباً بنوعٍ غير معروف من الأمراض؟!، في الحقيقة كانت المعلومات شحيحةً، فالأب لم يكن سوى عاملٍ سكّير، والأم مجرد خادمة في منزل هربَتْ لسبب قد يكون متمثّلًا في كريستيان نفسه، لكنه طلب من كافنديش ألا يتقاعس في هذا الأمر وإن وصل إلى أيّة معلومةٍ بخصوص أهل الطفل فعليه أن يبلغه في الحال.

خلال تلك الأيام راقب نيلسون كريستيان جيدًا، فوجد فيه الحصافة رغم ثقل لسانه الذي شرع يكون أكثر خفّةً عن ذي قبل، وهذا ما جعله يستنتج أن الطفل لم يكن يتحدث كثيرًا، وكل ما

يحتاج له هو الممارسة لا أكثر، الأغرب من كل ذلك أنه وجد في كريستيان ذكاءً ملحوظًا لا يناسب سنّه على الإطلاق، بل يكاد يتفوق على ذكاء ممَّن يفوقونه عمرًا بعشر سنوات إن لم يكن أكثر قليلًا، يستطيع أن يقول ويمنتهى الهدوء: إنَّ الطفل يُعَدّ عبقريًا بحقٍّ، فقد استطاع مع شرح دكتور نيلسون له لبعض الأشياء المعقدة حينما ألحّ عليه بالسؤال أن يفهمها، بل ويناقشه فيها، كان ذلك في الحقيقة هو بداية الخيط لينظر نيلسون لكريستيان نظرة أخرى مختلفة تمامًا، فالعالِم لديه نظرةٌ ومشاعر تختلف تمامًا عن الشخص العادي.

شرع نيلسون في تلقين كريستيان بعض الدروس التي تتدرج صعوبتها، حيث بدأ بالسهل مرورًا بالصعب وانتهاءً بالمعقد منها، ووجد أنَّ الأمور بالنسبة لكريستيان سهلة، بل غاية في السهولة، أكثر الأمور تعقيدًا لا تحتاج منه أكثر من خمس دقائق لكي يفهمها ويحللها ببساطة، حينها قرر نيلسون في كتابة ملاحظاته والاختلاء بكريستيان قدر ما استطاع حتى إنَّه في بعض الليالي لم يكن يذهب لمنزله ويبيت مع كريستيان، واشتعل رأس نيلسون بسؤالٍ طالما راوده في سريرته، ما الذي حدث فعلًا لوالد كريستيان؟، وهل مات بالفعل نتيجة سقطة كما جاء في التقرير أم أن الأمر مغايرٌ وغامضٌ؟، وممَّا ثبت له من ذكاء يتمتع به كريستيان يدفعه للشك بحقيقة الأمر كله، فما كان منه يومًا وخلال حديثهما إلا أن

قال «**قل لي يا كريستيان: كيف مات أبوك؟! هل تذكر شيئًا عن تلك الحادثة؟!**».

تطلع إليه كريستيان والتمعَتْ عيناه ببريقٍ غريبٍ فأضفت على هيئته رعبًا آخر ثم قال بهدوء: «**لقد قرأت عن رجلٍ يسرق الأطفال ثم يعذبهم، لكن كانت نهايته مؤسفة جزاءً لما فعله بهم، أعتقد أنّ السماء لا ترضى بالعنف أو الإيذاء، ولذلك ترسل دومًا مَن يخلّصنا من مسببيه، أليس كذلك يا دكتور نيلسون؟!**» بدَتْ لهجته بريئة رغم ما تمتَّعت به أفكاره من فلسفةٍ اكتسبها من خلال الكتب، وعلى جانبٍ آخر لم يستطع أن يحصد إجابةً ترضي فضوله فقال بهدوء: «**بالتأكيد يا كريستيان، لكن يا ترى مَن أرسلت السماء هذه المرة؟!**».

ابتسم كريستيان ابتسامةً غريبةً، ثم شرع يلهو بأداة في يده حيث بدا أنّه نسيَ الموضوع تمامًا، وما كان من دكتور نيلسون إلا أن تنهَّد تنهيدةً عميقةً شاعرًا بثقلٍ على صدره، فكر كثيرًا بأمر هذا الموضوع وحاول جاهدًا تنحيته حتى نجح نسبيًّا في ذلك حتى لا تتعارض أفكاره مع معاملته لكريستيان الذي لم يُبْدِ له سوى تصرفات طفلٍ طبيعيٍّ يتمتع بقدرةٍ كبيرةٍ على التفكير والفهم كما ذكرنا سابقًا، أحس بشيءٍ غامضٍ في نفسه، بأن ذلك الطفل يربطه به خيط لا يفهمه، شيء خفي ولذلك كثيرًا ما كان يأخذهما الحوار سويًّا حتى يغرقا فجأة في النوم، وفي ليلة مطيرة رياحها باردة نام نيلسون من شدة الإرهاق والتعب فما كان من

كريستيان إلا أن نهض وجلب بطانية مصنوعةً من الصوف كان قد جلبها له نيلسون؛ لتقيَه من الليالي الباردة وغطّاه بها ثم بهدوءٍ جلس يراقب ويتلمس ملامحه بقدر ما استطاع من هدوءٍ ورقةٍ حتى لا يتسبب في إيقاظه.

حينما أجفل نيلسون في الصباح وجد كريستيان كما هو في مكانه، ولكنِ الوجه الدميم الذي فاجأه جعله ينتفض مذعورًا ويعود للوراء محاولًا لمَّ شتات نفسه وإدراك ما يحدث حقيقة حتى إنَّه قال في نفسه وما زالت أذيال السهاد عالقة به «**أي جحيم قذفوني فيه؟!**»، التمعت عيناه وهو يحدّق في كريستيان الذي يحاول تهدئته، اجتاحَتْه مشاعر مختلطة ومتباينة، وسرعان ما تملّكت منه وفي تلك اللحظة سمع كريستيان يقول: «**لقد نمت نمت بجلب الغطاء لكَ كي تستريح، لقد كنت تشخر كالغراب في القصة «امتعض دكتور نيلسون، ونهض من مكانه متلعثمًا ثم نظر في الساعة سريعًا فوجد أنَّ الوقت ما زال مبكرًا، فنفض ملابسه سريعًا ورغم ذلك كان يدرك بأن حالته مزرية، لم يتفوَّه بكلمةٍ واحدة، لكنه ألقى نظرة أخيرة على كريستيان قبل أن يغادر المختبر ويذهب في طريقه، ولكنه سمع صدى صوت كريستيان متسائلًا ولم يكن يعرف هل كان السؤال موجها له أو لنفسه «هل فعل كريستيان شيئًا يستحق التوبيخ؟!**».

مشى نيلسون هائمًا حتى إنَّه أهمل العرَبة التي انتظرته طيلة الليل، أمر الحوذي أن يذهب إلى المنزل؛ ليَطمئِن إيما عليه، أمره

أيضًا أن يخبر السيدة أنه ذاهبٌ إلى إتمام عملٍ مهمٍّ، فكَّر نيلسون بما حدث خلال الأيام العشرة الأخيرة، في الحقيقة شعر بتخبُّطٍ تامٍّ، هل كريستيان بالنسبة له حالة علمية استفزَّتْ عقله المتّقد وتأهُّبه المستمر لاكتشاف العوالم الخفية أم أن الأمر يتجاوز كل ذلك؟! ما حقيقة المشاعر التي يكنّها لكريستيان؟! تذكّر لحظات سعادته العميقة وانبهاره بتقدّم كريستيان في العديد من الأمور التي شرحها له بنفسه، فرحته الطاغية بتفرُّده، لم يتعامل نيلسون مع الأطفال مطلقًا، يكاد ذلك الأمر يكون مستحيلًا، فهو لم يتعرّض لطفل قطّ حتى أبناء الخدم نادرًا ما رآهم، حتى وإن حدث ذلك فلم يكن يأبه لوجودهم من الأساس، أمّا كريستيان فإن الأمر كله غارقٌ في الغموض.

«إنّ العباقرة يا سيّدي يتحلون بصفة البراءة رغم وحشيّتهم، وحشيتهم التي تظهر في أفكارهم الغريبة التي تبدو جليّةً في أكثر لحظاتهم جنونًا، إنهم منبوذون كالأنبياء، مولعون بالتحدّي ليس لأنهم اختاروا مصيرهم؛ لأن ذلك الأمر مقرر منذ البداية، يعرفونه ويؤمنون به جيدًا ولا يفصحون عنه حتى لأنفسهم كي لا يتفشى سرّهم العميق القديم كَقِدَمِ الزمن، المشكلة لديهم ليستْ في المصير، ولكن في كيفيّة تحقيقه».

تذكر نيلسون كلمات أستاذه إبّان أيام الجامعة، فكر فيها طويلًا، انتابه خليطٌ من الأحاسيس المتناقضة، ووجد نفسه فجأة وجهًا لوجهٍ مع كافنديش في شارع يكتظّ بالمارّة، بدا مشعثًا

ويبدو عليه الإرهاق، منهكًا، تعجب نيلسون من هيئته وبدا عليه الاهتمام، ولكن كافنديش قاطع أفكاره لاهثًا: «**إنَّ الدميم لديه أهلٌ في ساوثهامتون**».

عام ١٩٠٧ - إيما ريفز

لا شيء يضاهي الحبَّ في زمن مفجعٍ تشوَّه بالكره، لا شيء يضاهي الإنسانية في عالم انعدم فيه كلُّ دبيبٍ للرحمة، مبدآن لن تتخلَّى عنهما إيما، احتوَتْها مشاعر مختلفة وأرَقها السهر في الليلتين التاليتين بعد ما علمتْ من نيلسون بأنّ الصغير البائس لديه أهل لأمّه يقبعون في ساوثهامتون، عانت الأمرّين، التفكير والسهاد في أمر الصغير وما سيلاقيه على أيدي هؤلاء الأهل الذين شدوا الرحال بعد ما أرسلوا خالته وزوج خالته لاستلامه من شرطة سكوتلاند يارد، وتعهدوا برعايته عن طريق خطابٍ مفصَّلٍ للمفتش كافنديش، وقد لقي هذا الخطاب كل التَّرحيب لدى الأخير، خصوصًا بعد ما أرهقَه التقصِّي عن أمر الطفل وعن جذوره إن كان له جذور، وقد قرأ الخطاب على مسامع دكتور نيلسون بعد ما لاقاه صدفة.

السّيد العزيز المحترم كافنديش

بعد التحية والاحترام لمجهوداتكم

فلقد أعلمَتْنا الشرطة المحلية بأنّ بحوزتكم مَن ينتمي لدمنا وصلبنا، وفي الحقيقة نحن لم نكن نعلم ثمّة شيئاً عن الصغير، ولا نعلم ثمة شيئاً عن الأم منذ زواجها الذي أقيم في ضيعتنا منذ ما يقارب سبع سنوات، ولقد صُعقنا جميعًا هنا عندما علمنا بالخبر، ولا نتوانى أبدًا، ومهما كلف الأمر عن إلحاق الصغير المسكين بأهله وإرجاعه إلى عشيرته التي ينتمي إليها، وليسامح الله كلّ مَن تسبّب في تلك النكسة، وليطمئن قلبكَ عليه، لك أن تعرف يا سيدنا الجليل بأنّنا نملك من المال ما يؤهّلنا لتولّي رعايته، كما أنّنا لم نرزق بأطفال طيلة مدة زواجنا التي دامَتْ حتى الآن لخمسة عشر عامًا، ولك أن تتخيّل يا سيدي النقص الجوهري في حياتنا دون أطفالٍ، فحياة بلا طفلٍ كموت بلا دفنٍ، كريهة ومتعفنة وفاسدة يا سيدي.

وليكن بمعلومكم أنّنا سنصل ـ إن شاء الله ـ بعد خمسة أيّام، ولا نطيق صبرًا حتى نلقى الصغير الذي علمنا منكم بأنّ اسمه كريستيان، ليحفظه الله ويحفظكم، وكلنا ثقةٌ ورحابة بأنكم سترعونه حتى نصل لاستلامه.

تقديرنا وإعزازنا لكم

السيد والسيدة بورتر

كان ذلك جميلًا ومريحًا أيضًا، لكن كانت هناك مشكلةٌ صغيرةٌ، وهذا ما تسبب بإلحاق كل هذا العذاب بقلب إيما، بأن القريبين لا يكادان يعرفان شيئًا عن ظروف كريستيان وخلقته المتفرّدة والمزعجة كخبر الوفاة فجأةً بعد تطلع لحياة رغيدة، تساءلتْ عن ردة فعلهما حين لقاء الطفل، وإلى أين سيؤول مصيره إن توافقا ورضيا به رغم خلقته؟! وكيف ستتمّ معاملته؟! وعلى جانب آخر أكثر سوءًا وهذا ما كان يزعجها حقًا كلما فكرَتْ به، ماذا إن رفض الأبوان الجديدان استلامه من الأساس؟!، هل سيؤول مصيره إلى الكنيسة كما أخبرها زوجها؟! لا تعرف ثمّة إجابة عن أي سؤال ملقى على عاتقها الذي أنهكَتْه الاحتمالات والظنون السيئة.

تابعَت الأخبار أولًا بأول من خلال زوجها الذي لاحظتْ عليه سهرًا متواصلًا في المختبر حتى بانَ عليه الوهن، وانقلبَتْ سحنته لتبدو باهتةً كمَيّتٍ أخرجوه توًا من نعشه، لم يكن يتكلم كثيرًا في أوقات خلواته التي لا تكاد تذكر، وانكفأ على أبحاثه ودراساته محاولًا بقدر الإمكان عدم الانخراط في التحدث عن كريستيان، ورغم كل ما وضعه من حيطة إلا أنَّه قد بدا الحزن واليأس والقلق كظلّه أينما ذهب، ومهما اجتهد في إخفاء ما يعتريه، حزنَتْ إيما لحال زوجها حتى أوقفَتْه قبل الليلة المرتقبة التي سيتمّ فيها استلام كريستيان، ونظرَتْ في عينيه التي انقشع منهما البريق الذي عهدته فيهما.

«لِمَ كل هذا الحزن يا نِل؟؟ تبدو في الأيام الأخيرة شاردًا حتى لا تكاد تلحظ وجود مَن حولك!»، كانت نبرتها مستعطفةً حانية يرقّ لها أي إنسان.

لأول مرة تلمح اغروراقًا للدموع في عيني زوجها النبيل، كافحَتْ بشدة كي لا تسقط عبراتها مواساة له، وألزمَتْ نفسها بالبأس حتى لا يضعف أمامها، فإن كان نيلسون يكره شيئًا في حياته فهو لا يكره أكثر من إحساس الضعف أمام نفسه، أجبرَتْه ابتسامتها الرقيقة ذات المسحة الحزينة على الابتسام.

«أنا لست حزينًا يا صغيرتي، ولكن يعز عليّ فراق ذلك الصغير! أتعلمين يا إيما أنَّ ذلك الولد يتمتع بذكاء خارق، ولكن للأسف لن يؤهّل لاستخدامه، وسيعيش حياة المزارعين الكادحين إن لم يكن أسوأ، أيّ ظلم في الحياة أكثر من أن نُطفِئ شمعة متقدة تنير ظلام أنفسنا تحت ادّعاءات كاذبة فارغة؟؟ العلم يا إيما يحتاج لمثل هذا العقل، لا يهمّني ما يحمله وجهه من سماتٍ لا يدَ له فيها، ولكن ما يهمّني ما يحويه رأسه الكبير من عقلٍ يكاد يقدح الظلمة نورًا بهيًا»، وسكن لثوانٍ شاردًا وكأنه يحاول لمَّ شتات نفسه **«ولكن ما باليد حيلةٌ، فأهله سيصلون غدًا، حتى وإن لم يكن له أهلٌ، فمَن يستطيع رعايته؟! مَن لديه القدرة على تحمُّل وجهه؟! وإن امتلك أحدهم هذه القدرة فهل سيقبله العالم بمثل هذه البساطة؟؟، العالم يا إيما لا يرى إلا المظاهر الفارغة الكاذبة، ولا يأبه لما تكتنزه النفوس**

والعقول والقلوب الطيبة!، فإنّ أجملنا قد يكون مصاباً بالبلاهة والتفاهة، وأقبحنا قد يكون إنسانًا حقيقيًا امتلك كل السمات التي تؤهله ليكون أعلانا منزلة»، أخذ نفَسًا عميقًا ثم جلس على الأريكة ناظرًا إلى الثريا الفخمة المتلألئة في السقف ببلوراتها الماسيّة التي انعكس نور القمر عليها فأعطاها بريقًا غامضًا غموض الزمان **«لأول مرّة في حياتي أشعر كأنّني مقيدٌ تمامًا، لقد عاشرتُ الصغير لأيام وعرفتُه جيدًا، كلما حاولت اتخاذ موقف محايد منه فشلت ووجدتني أرضخ لعقله وبراءته التي لا تخطؤها عينٌ، ولا ينكرها قلب طاهر»**.

فكّرت إيما كثيرًا في كلمات زوجها حتى وجدت في النهاية نفسها تطلب منه الوجود حين حضور الأهل لاستلامه، ورغم رفضه الواهي في البداية إلا أنّه مال لطلبها ووافق في النهاية، أدركتْ أن تلك الموافقة من أجل ألا يعذبه ضميره تجاهها في الأيام التالية، تأهّبت إيما للحضور بكامل أناقتها، ولكن بقلب دام وأحاسيس متناقضة جعلتْ جسدها يرتجف من هولِ ما قد يحدُث، تضرعَتْ في تلك الليلة إلى الله ليقيَ كريستيان حقارة البشر وشرورهم.

مفتش شرطة سكوتلاند يارد - عام ١٩٠٨
«تشارلز كافنديش».

كان صباحًا باردًا من شهر كانون الثاني، هبَّتِ الرياح منذرةً بقدوم عاصفة، واستسلمت الأرض لأمطار غزيرة وقصف رعاديد آتية من سماء قاتمة متّشحة بالسواد لا يضيئها بين الفينة والأخرى إلا ومضات برقٍ تلقي بالرعب في القلوب، جلس كافنديش خلف مكتبه متثائبًا غير عَابئٍ بالجوّ يتابع بمللٍ بعض الأشغال البسيطة، ويراجع بعض الأوراق التي لم تسترعِ انتباهه كما يجب، نهض من مجلسِه ثم ارتدى فوق ملابسه الأنيقة معطفًا طويلًا أسود يكاد يصل إلى كاحليه، ثمّ أخرج ساعة جيبه ذات السلسلة الفضية ونظر فيها مليّاً، ثمَّ تناول بعض الأوراق من على المكتب كان قد جهزها في يوم سابقٍ واندفع خارجًا، ثمّ مرق من الرواق الطويل وبعض الضباط يحيّونه، بينما لم يعبأ بردّ تحياتهم بأكثر من إيماءةٍ لا تكاد تُلحظ من رأسه الضخم.

كانت العربة ذات الحصانين في انتظاره، ولكنه قبل أن يمرق توقفتْ عربة أخرى أقلَّ أبَهة، يجرها حصانان صغيران منهكان، وخرج منها سيّد وسيّدة يبدو أنهما من خارج المدينة العجوز، بفطنته المعتادة أدركَ أنهما السيد والسيدة بورتر اللذان أتيا لاستلام الطفل، كان كافنديش قد أغلق القضية تمامًا معتبرًا أنّ مقتل الوالد جاء إثر سقطةٍ قويةٍ كما أقرّ الطبيب المختص، رغم أنّه في أعماقه لم يكن مرتاحًا، ولكن لم يكن بيده حيلةٌ خصوصًا

مع كلمات دكتور نيلسون التي أكّدت له بأنّ ذلك الطفل أبعد ما يكون عن ارتكاب جريمة، يذكر تلك الكلمات جيدًا «**عزيزي السيد كافنديش، إنّ ما تقرّه بحق ذلك الطفل يعد اتهامًا سافرًا، أدرك جيدًا بأن فداحة مظهره تؤهّله؛ ليكون أعتى الجناة على الإطلاق، ولكن نحّ مظهره ذلك جانبًا وحكّمْ عقلك كمفتشٍ فطنٍ ورجلٍ ذي كياسة ومولع بالعلم، أنّى لطفلٍ على مشارف السابعة أن يرتكب جريمة شنعاء كهذه يا سيدي؟!، أن يقتل والده؟!، بالله عليكَ في أي زمن نحن؟! ألم ترَ الآثار على جسد الطفل جراء العذاب الذي لاقاه على يد هذا المتوحش؟!، ألم يرهقكَ مظهره وحالته التي ترثي لها حتى القلوب الخشنة؟!، فمَن القاتل الحقيقي هنا يا صديقي الطبيب الرحيم؟!، أجب أنتَ عن هذا السؤال**».

لم يكن بمقدور كافنديش إلا أن يقرّ بصحة ما أعلنه رجلٌ حكيمٌ ومرموق وعالم كنيلسون، كما أنّ العلماء بالنسبة لكافنديش دائمًا على صوابٍ، نقطة ضعفه التي تسلب لُبّه، أنّى له أن يصدق نفسه وحدسه كمفتش ويكذّب رجلًا فطنًا عالمًا كهذا؟!، ولكن اجتاحه سؤالٌ غريبٌ مجنونٌ وهو يتأمل الأمر برمّته: «**هل كريستيان بالفعل طفلٌ على مشارف السابعة كما يعتقد الجميع؟!**».

استقبل كافنديش عائلة بورتر بودٍّ لا يخلو من جدّيّة، اصطحبهم معه في عربته ثم أمر الحوذي بالانطلاق إلى مختبر دكتور نيلسون، شرح لهما الأمر كاملًا خلال الطريق، لم يتطرق

إلى التفاصيل بشكل كبير، ولكن كان في نبرته ما يوحي بأنّ هناك شيئًا مقلقًا، حتى إنّ السيدة بورتر قلَّبتْ نظرها فيه متشكّكة، ثم سألته بنبرة طيبة: «**سيد كافنديش، هل هناك أمرٌ يجب أن نعرفه قبل أن نقابل الطفل؟!**».

ابتسم كافنديش ابتسامةً غامضةً، وأزاح المنديل من على فمِه قليلاً، ثم قال: «**سيدة بورتر، كل ما تودّين معرفته لن تستطيع كلماتي وصفه، الأمر أعقد بكثير ممّا تتصورين، لا أريد أن أبدو غامضًا لا سمح الله، ولكن للأسف إنّ الأمر برمّته بالفعل خارج عن إرادتي، ولا حيلة لي في شرحه، وكلّ ما أستطيع قوله هو أنكم ستقابلون خلال دقائق البذرة التي تركَتْها أختكَ خلفها دون أن يرفّ لها جفن أو يدمى لها قلب**»، ثمّ نظر تجاه السيدة بتحدٍّ، فانتزعت السيدة نظرها عنه وقد كرهت الرجل واعتراها القلق الذي بدوره تسلَّل أيضًا إلى السيد بورتر الذي بدا على مشارف الأربعين من عمره، لكن عمره بدا أكبر جرّاء العمل الشاق البادي في ملامحه، ويديه الخشنتين، وسحنته الجامدة، ولكنه لا يخلو من طيبةٍ غالبًا ما يتمتّع بها سكان القرى في إنجلترا.

ترجّل الجميع من العربة، وتقدّمهم كافنديش ثم عدّل من هيئته، وأخذ نفَسًا عميقًا، وبهدوءٍ قرع باب المعمل الخاص بدكتور نيلسون، عادةً لا يستقبل دكتور نيلسون أيّة زوّار سوى العلماء، وفي ظروف ضيقة جدًّا؛ لأنّ الرجل حاله حال غيره من العلماء لا يُطلع إنساناً على تجاربه العلمية، ولكن الأمر هذه المرّة يُعَدُّ

استثناءً متفرّدًا ولدهشته حين دلف المختبر وجد السيدة نيلسون أيضًا جالسةً في ركن قريبٍ، فنهضت من مجلسها وككلّ السّيدات الإنجليزيات انحنَتْ لهم كتحيّة، فبادلها الجميع نفس التحية بانحناءةٍ أيضًا، ثمّ انحنى الجميع لدكتور نيلسون الذي اكتفى بإيماءة من رأسه مرحِّبًا بهم، وقد علا وجهه إحساس بالضيق.

«السيد بورتر وزوجته وصلا لتوّهما، ولم يضيّعا الوقت احترامًا لوقتكم الثمين فأتيا لاصطحاب الطفل الذي في عهدتكَ يا لورد نيلسون»، قال كافنديش بنبرةٍ رسميةٍ لا تخلو من ودٍّ، كانت عينا كافنديش عيني محقّقٍ بحقٍّ؛ فلم تهفُ عنهما هفوة ولو بسيطة حيث كانت عيناه تدوران في المكان مراقبة لكلّ حركة صادرة، فرأى اللهفة في عينى السيدة بورتر التي اجتاحها القلق والترقّب، بينما وقف السيد بورتر جامدًا كما هو، ولكن الغريب أنه لمح كدرًا يظلّل ملامح السيدة إيما الجميلة، وشيئًا من الألم تقاومه ابتسامتها التي بدَتْ مصطنعة للغاية، بدَتْ له كابتسامة أخيرة لامرأةٍ قُتلتْ فجأة.

«لن أسلمكما كويستيان إلا حينما تعاهداني حالًا بأن يُعامَل أفضل معاملة، وبألا يُمَسّ بأي سوء خلال إقامته معكما، وبأن يتولى تعليمه رجلٌ فطِنٌ ذو علم»، كانت كلمات نيلسون رغم وضوحها مقتضبةً، وتحمل جانبًا من العدوانية، وما أثار كافنديش أكثر أنّه لمح نظرة فخرٍ في عيني إيما.

«لا تقلق يا سيدي اللورد، فنحن من لحمه ودمه، ونتعهد بأن نعامله أفضل معاملة ممكنة»، قالت السيدة بورتر بهدوءٍ، وقد بدا عليها الترقب والتوجس.

في تلك اللحظة نهضتْ إيما، وفتحت بابًا يفضي إلى غرفة ثم خرجتْ بعد ثوانٍ، وفي يدها كريستيان الصغير وقد بدَا متأنقا للغاية، فقد ارتدَى حلّة كاملة، بذلة اشترَتْها له بنفسها من محالّ مارك بلاكوود الشهيرة، فوقها معطفٌ طويلٌ أسود مبطّن بالقطيفة الحمراء، لكن كل هذه الأبّهة لم تغيّر من خلقته، كان الطفل مطأطئ الرأس متشبثًا بيد إيما، مرتجفًا لا يعلم إلى أين سيؤول مصيره؟

تنحّى كافنديش قليلًا إلى الوراء بعد أن ألقى نظرةً سريعةً على الطفل، ثم نقلها على دكتور نيلسون الذي بدا متحفّزًا، كانت تنحيته تلك من باب مراقبة ما قد يحدث، رمق الاثنان – عائلة بورتر – الطفل بشيء من التساؤل والغرابة والريبة في بداية الأمر حتى رفع الطفل رأسه، ونظر لهما بعينيه المشوّهتين، فبدَتْ لهما صفحة وجهه المفزعة جلية واضحة.

رسم السيد بورتر رمز الصليب بيده على جسده فزعًا متمتمًا بكلماتٍ لم يتبيّنها أحدٌ، بينما شهقت السيدة بورتر شهقةً قويةً حتى شكّ كافنديش للحظة بأنها قد تسقط مغشيًا عليها، لكنها سرعان ما تداركتْ نفسها صائحةً بحنقٍ ممتزج بالرعب في ملامحها: **«ما هذا بحقّ الله؟!، ومَن يكون ذلك المسخ؟!»**، هنا استشاطتْ إيما غضبًا ثمّ صاحتْ بها قائلةً: **«ومن أنتِ بحقّ الله لكي تصفيه**

بالمسخ؟!، فأنتِ لا تختلفينَ عن أختك الهاربة كثيرًا، كلّكنّ سواء في الجفاء وندرة الرحمة، هذا هو كريستيان الصغير الذي تصفينه بالمسخ».

قال السيد بورتر ولم يكد يفيق من صدمته: «هل هذه مزحةٌ ثقيلةٌ أم ماذا؟، لم أرَ في حياتي خلقة بهذه البشاعة!».

على عكس ما توقع كافنديش، بدا نيلسون هادئًا، وكأنّ هناك شيئًا خفيًا يضمره، أو ربّما هناك شيءٌ فيما يحدث أراح فكره ودفعَه للاستسلام حيث قال بهدوء وبساطة موجهًا كلماته للرجل: «سيد بورتر، هذا هو ابن أخت العزيزة السيدة بورتر، كريستيان، لقد أُهينَ وعُذّب على أيدي زوج أختها العزيزة منذ ولادته حتى وفاته عقابًا على هذا الوجه الذي لا يد له فيه، وأنتما أقررتما وتعاهدتما على رعايته، ويشهد عليكما في هذا السيدة نيلسون زوجتي والسيد كافنديش، فإن غيّرتما رأيكما، فأرجو أن أسمع هذا منكما الآن، وإن قرّرتما الاحتفاظ به فعليكما العناية به كما عاهدتماني؛ لأنّني من وقت لآخر سأرسل مَن يتقصّى أمر الطفل، وإن وجدتُه على حالٍ دون ما وعدتما فلن أرحمكما، وهذا هو كلامي الأخير، ولكما القرار».

ابتسم كافنديش ابتسامة هادئة في البؤرة التي وقف فيها مراقبًا ما يحدث بقلب يتواثب في صدره منفعلًا وتملؤه الحماسة، ظنّ للحظة بأن دكتور نيلسون قد جُنَّ هو وزوجته ولكنه استفاق سريعًا ليدركَ مدى نبل الرجل وشجاعته ليدافع عمَّن؟!، عن ذلك

المسخ الكريه من وجهة نظره، الذي لم تخل شكوكه فيه بعد، والذي لو قُتل لما اهتم له إنسانٌ عاقل.

قالت السيدة بورتر في هذه اللحظة بشيء من الفظاظة «**كان خطأ منا أن نرهق أنفسنا كل تلك المسافة وننشد الأمنيات الزائفة التي تبعثرت، بل تلاشت بمجرد رؤية هذا المسخ الدميم، مستحيلٌ أن يكون هذا الشيء ابن أختي، ولن نقبل يا سيّدي أن يتم التلاعب بنا بهذا الشكل السافر، فرغم أنّنا لا نُعَدُّ أكثر من عائلة بسيطة إلّا أننا نتمتع ببعض الفطنة؛ لندرك أنكم جميعًا مزيّفون كزيف هذا المسخ**».

هنا وصل الغضب إلى مداه في قلب إيما وتملّك منها حتى إنّ كافنديش ليقسم أنّه ما رأى غضبًا لامرأةٍ كما رآه فيها في تلك اللحظة حيث لعنَتْهم جميعًا وقامَتْ بطردهم شرّ طردة، لم يتحرّك دكتور نيلسون من موضعه، ولم يتفوّه بكلمةٍ، وترك الأمر برمّته لزوجته، بينما وقف كافنديش متحيرًا يراقب الأمر، وما حيّره تمامًا تلك النظرة الغريبة الشاردة التي علقتْ بعيني نيلسون!، هل كان نيلسون راضيًا عمّا فعل حقًّا؟!، أم أنه في الحقيقة كان منجرفًا خلف عاطفة لم يتأكّد منها بعد، أم أنّ هناك شيئًا آخر لا يفهمه؟!

إن فقدَ العالم الحُبّ، فقدنا كل شيء.



«ماذا يمكن أن يحدث للعالم إن فُقد الحبّ منه؟! وماذا يمكن للعالم أن يقدّم عزاءً لذلك الفقدان؟! إنها الدماء، والدماء فقط يا سيدي، سيعجّ العالم بالقتلة والمجرمين، وستطبق القوانين على الأطهار من الناس، وسيموت الزرع، وتنطفئ الشمس، ويكلح القمر ويسقط، ستقدّم الأضحيات كلّ يومٍ وكلّ ساعةٍ من أجل اتّقاء الشر الذي سيتفشّى، ستغوص الطرقات في بحورٍ من الدماء، وستُغلق الكنائس والمساجد والمعابد؛ لأنه لن يكون هناك سبيلٌ للتضرع لصاحب الحب ومالكه بعد أن فقدناه، الحبّ يا سيدي ببساطة هو مَن أبقاني حيّاً إلى تلك اللحظة، ولولاه لغرقتُ في دمي باسم الواجب المقدّس».

كانت تلك هي الإجابة التي تمنّى كريستيان لو ألقاها على مسامع نيلسون حينما أنكر أنّ الحب يُعَدُّ الشيء المهم الوحيد في هذا العالم، فلا علم دون حبٍّ، بقي كريستيان صامتًا ينظر إليه وقد تسرّب إليه الحنق، لكنه سرعان ما تمالك نفسه، وفي الحقيقة كان يسترجع الفترة السابقة أمامه، المجد والزوال، الحب والكراهية،

كل التضحيات التي قدَّمها في سبيل هدفه، ورغم ما قاساه من معاناةٍ لا يستطيع حيٌّ تحمُّلَها إلا أنّه ما زال يكنّ بعض الحبّ للعالم من حوله، تكدَّرت سحنته، ونظر عبر النافذة جواره على المساحات والتلال التي اكتسَتْ بالأخضر محاولًا جلب بعض السلام لنفسه.

تذكر تلك اللحظة التي احتضنَتْ فيها إيما الطيبة الجميلة والرؤوم ذلك الطفل البائس، وقد علاه شعورٌ غريبٌ، أنّى لها أن تكون حادةً قاسيةً في لحظة وفي لحظة أخرى تكون على النقيض تمامًا؟!، تذكرها بابتسامةٍ صافيةٍ هادئةٍ والرياح الباردة والناعسة تلفحه من النافذة، فشعر بسلام يتسربل إلى نفسه، لم يعبأ بوجود نيلسون أو بحديثه في هذه اللَّحظات حتى إنَّ ذهنه شرد داخل دهاليز ذكرياته التي لو قُيِّضَ لها أن تُكتب لكانت عجبًا.

⌛

بعد رحيل الأهل انتقل إلى منزل دكتور نيلسون الكبير البهيّ ذي الحديقة الشاسعة المكتظّة بشتى أنواع الورد وأشجار الفاكهة، دارت معارك لم يفهم كُنهها في منزل دكتور نيلسون، يتذكر جيدًا صوت بكاء إيما ونحيبها ليلًا لخمس ليالٍ متواصلة لم يمكث خلالها دكتور نيلسون في المنزل، خشي كثيرًا أن تأتي إلى غرفته وهي على هذه الحال؛ لأنه ومن واقع تجربته القصيرة والمريرة يدرك أن البكاء هو العلامة البارزة للرحيل، سواءً رحيله

أو رحيل مَن يحبّه، هل كان كريستيان يفهم في هذه السن كل تلك التطوُّرات؟! لا أحد يستطيع الإقرار بذلك بشكلٍ واضحٍ، ولكن يمكن الجزم بأنّه كان يتحاشى وبشكل واضح الخروج مِن غرفته خصوصًا مع نظرات الخدم التي بانَ عليها الرعب حيث كانت الخادمة التي تقدّم له الطعام تضعه أمامه متوجسةً مرتجفةً، وسرعان ما تغادر الغرفة وهي تتمتم بكلماتٍ لم يتبينها.

تذكّر كلمات الكفيف العجوز: «**لتجعل العالم يهتم بكريستيان**» لم يكن يدرك في هذه اللحظة كيفيّة حدوث ذلك وأنّى له الوصول إلى ذلك المبتغي؟!، وعلى كلٍّ فقد كان اهتمامه منصبًّا على تلك المرأة التي أوَتْه في منزلها، وربما تعاني الآن بسبب هذا القرار، لكن ما كان يهمّه أكثر هو دكتور نيلسون الذي تحول فجأة إلى النقيض وصار لا يراه إلا نادرًا، في فترات الصباح فقط حتى إنّه لم يكلّف نفسه ولو لمرة واحدة بأن يلقي عليه تحية الصباح كما تعوّد سابقًا، فتمنى لو أن يعود إلى المعمل مرة أخرى ويمكث فيه كما السابق، فهناك يجد كل الاهتمام والرعاية كما أنّه مولعٌ بالعلوم التي يباشرها دكتور نيلسون، حاول فهم ذلك التحول في سلوكه ومع فترات صفائه لنفسه أحسَّ بشكٍّ يتسرب إليه، بأن ذلك هو نفس السبب الذي سمعه من أقربائه الذين قابلوه لدقائق معدودة ووصموه بالعار وتبرّؤوا منه.

لا أحد يستطيع الإقرار بمدى ألم كريستيان، لقد كان الطفل متماسكًا إلى أقصى حدٍّ، ولم يظهر أيّة ردّة فعلٍ توحي بحزنه حتى إنَّه ظلّ ساكنًا يدّعي الهناء والفرحة بين أسوار حجرته الفسيحة التي أُعِدَّتْ له خصيصًا بناءً على أوامر سيدة المنزل - إيما - وقد رواه وطيّب جرحه طيبة وكرم إيما الكبيران.

في أيام لاحقة وجد دكتور نيلسون يأتي صباحًا ومساءً بشكل منتظم لمرةٍ أخرى وقد بدا عليه بعض التغيير، لكنه تغيير طفيف حيث ألقى عليه في أحد الصباحات التحية متحاشيًا النظر إليه، ولكن كان ذلك كافيًا بأن يجعله سعيدًا وممتنًّا إلى الرجل، فخوفه قد زال، فهو لن يعاقب كما كان يفعل والده به، وللأسف تلك الفكرة الأخيرة كانت ملاصقةً له في الليالي الأخيرة حتى إنّه لم ينَم ولو لثانية واحدة رغم جهود إيما في محاولة تهدئته من شيءٍ لا تعرف كنهه أو مصدره حيث ظل المسكين صامتًا لا يتحدّث كما تعودَتْ منه في أوقات خلواتهما سويًّا.

⌛

«هل يمكن للقبح أن يتحوّل إلى جمالٍ؟!، لا أستطيع الإقرار بشيءٍ كهذا» قال نيلسون الشاب بابتسامةٍ وقد قاطع سؤاله ذكريات كريستيان تمامًا حتى إنّه عاد ورمقه بنظرةٍ طويلةٍ حذرةٍ، خشي للحظة بأن يكون قناعه المزيّف قد سقط وإلا لِمَ هذا السؤال الغريب وفي هذه اللحظة وله هو بالذات؟! استحالَتْ

ملامحه المزيفة لسؤالٍ وهو يرمق نيلسون ثم قال بشيءٍ من الحذر «**ماذا تعني؟، أرجوكَ**».

قال نيلسون بهدوءٍ وهو ينظر بطرف عينه إلى سيدة أربعينية بدَتْ بشعة الخلقة «**هناك، انظر لتلك السيدة، إنّ رجُلَها متعلّق بها كما ترى، أشعر أحيانًا بأن هناك بشرًا عمياناً وهم مبصرون، أنى له أن يتشبث بذلك القبح؟!، وكيف له تحمُّل ذلك؟!، لا أستطيع حتى تحمّل فكرة النظر إليها حتى ولو كانت حياتي كلها رهنًا بإشارتها، في هذه اللحظة أفضّل الموت يا سيدي**».

ابتسم كريستيان بصعوبةٍ متألمًا، فالماكث أمامه لا يدرك المعنى الحقيقي للجمال، فقال وقد غامَتْ عيناه في الذكريات «**الجمال متقلّب المزاج يا نيلسون، فأنت قد تراه جحيمًا وغيركَ يراه الفردوس والعكس، وإن كان للقبح معنى فهي قناعتكَ إن سألتني عن رأيي وستثبتُ لك الأيام يومًا وفي ليلة لا تتوقعها أن الجمال هو أكثر فكرة تملك من الغواية أكثر ممًا تتصور، فهو كالمرأة لعوب متحذلقة، إن شعرَتْ بالتهديد احتمَتْ بفراش العدوّ**».

نظر له نيلسون مستطلعًا، فأدرك كريستيان بأنَه لم يفهم.

«**الجمال هو ما تشعره، وليس ما تراه، كالمرأة، قد تقابلك أجمل النساء فتمقتها لسلوكها وقد تقع في حبّ أقبحهنّ؛ لأنها تراك من الداخل، الجمال غواية لا نستطيع مواجهتها، أفهمتَ؟!**».

هزَّ نيلسون رأسه غير مقتنع ثم قال: «**الجمالُ جمالٌ يا سيدي مهما اختلفنا عليه، والقُبح رذيلةٌ لا بدّ أن تُطرد من المجتمع بمكنسةٍ**».

أخذ نيلسون نفَسًا عميقًا وقد بدا عليه أنّه موشك أن يقول شيئًا، ولكنه تذكّر شيئًا فاجتاحه الكدر والحزن، وغامت عيناه في الذكريات.

عام ١٩٠٨- نيلسون ريفز

بعد رياحٍ عاتيةٍ أوشكتْ على اقتلاع طمأنينة وهناء منزل نيلسون من جِذوره عاد إلى سابق عهده، لكن كان هناك شيءٌ ناقصٌ يترك أثرًا بغيضًا، وكأنها رائحةٌ عالقة بإناء لم يحسن غسله، فقد تحوّل الرجل إلى عمله بكل طاقاته ومجهوداته بل وأمواله أيضًا، كائن أسود دميم كالخفّاش شرع يرفّ بجناحيه على سطح منزله الكبير الرحيب، لم يكن يراه في المساء سوى دكتور نيلسون وحده حينما يلوذ في جنح الليل بسلام وحيدًا يفكر في المستقبل ويرى العالم من أعلى كما تعوّد أن يراه دائمًا، من أعلى الأعالي هناك في السماء البعيدة الغامضة، أعناه ثقل الحمل في قلبه، وأجهدَتْه المبارزة القوية التي انخرط فيها دون أن يشعر أو حتى يتكهّن بها، لوهلة أحسّ بأنه لا يعرف نفسه كما ينبغي لرجل مثله أن يعرف، بل وأن يكون موقنًا أيضًا، فلقد خلق بعض

الرجال؛ ليُعرّفوا العالم على نفسه لا ليُعرّفوا أنفسهم على العالم، وقد كان نيلسون ذلك الرجل، لكنه الآن مشتّتٌ ضائع والغصّة تنهشه والخفّاش لا يتوقف عن القدوم ليلًا، بل والرفرفة أيضًا بلا توقف وكأنه لا يأبه بأيّ شيءٍ ولا حتى بنيلسون نفسه.

عاودتْه الذكريات القريبة رغمًا عنه رغم محاولاته المستميتة في عدم العودة إليها، تذكّر تلك اللحظة التي خرج فيها أقرباء كريستيان من حياته إلى الأبد، رغم ما كنّه من اهتمام وشفقة تجاه كريستيان إلا أن تلك المغادرة الأخيرة ورغم توقُّعه لها جعلَتْ قلبه يغوص في قاع نفسه، وأحسّ بأن هناك شيئًا لا ينبغي أن يحدث، حينها استأذنه كافنديش محملقًا فيه قبل أن يغادر بنظرةٍ نافذةٍ ذات معنى وكأنه بشكلٍ أو بآخر علم حقيقة ما يجري، أومأ لدكتور نيلسون باحترام شديدٍ، ولكن ظلت نظرته متشبثة به وكأنه يوجّه له رسالةً مفادها واضحٌ وبيّنٌ لمَن يريد أن يرى الحقيقة.

أما إيما فقد كانت جالسةً في الركن هناك وكريستيان يقف في مواجهتها، تحاول تهدئته والتحدّث إليه مستخدمة رقّتها وبلاغتها المعهودة التي تُخضِع أي إنسان مهما بلغَتْ حصافته وعناده، أوجسه ذلك لكنّه وللغرابة تحوّل فجأة إلى شخص آخر، ربما نيلسون الحقيقي! ربما لا! ربما شخص لم يلتقِه يومًا!، هو نفسه لا يعرف! ليس ذلك الشخص الذي تَمَلك منه منذ خمس دقائق خلَتْ، وسرعان ما استأذنها وانصرف ملقيًا نظرةً سريعةً عليها متحاشيًا مواجهة عينيها الجميلتين الدافئتين، متجنبًا

الدخول في أيّة مناقشة وهو على حالته المضطرمة الغامضة التي استحوذَتْ عليه.

تفكّر في الأمر برمّته وخالجه شعورٌ بالخزي لا يعرف كُنهَه، أعناه المشي على قدميه حتى توقّف تمامًا، ثم نظر عبر حقول خضراء مترامية ليجد نفسه على أطراف المدينة فأخذ نفَسًا عميقًا مفكرًا، كاد عقله ينفجر وهو يدرك بما لا يقبل الشك بأن هناك عاصفةً آتيةً لا محالة ولا هرب من مواجهتها، بل والتسلح بكامل عتاده لهزيمتها مهما كلفه الأمر.

في تلك الليلة غاص في مقعده الوثير متأملًا السماء من خلف نافذته وقد كشفت الستائر المفتوحة عن سماء صافية متلألأة بالنجوم ومزينة بهلالٍ صغيرٍ يطلّ عليه حزينًا، ما الذي حدث له؟!، ولمَ تحوّل شعوره تجاه كريستيان فجأة للنقيض؟! لقد كان يدافع عنه بكل ما أوتي من قوة حتى اللحظة الأخيرة، وحين انتصر في المعركة التي أعدّ لها العُدّة ضاق بانتصاره وبغضه، بل ولعنه في دواخله! أنّى للقلب أن يأخذ تلك المنعطفات الوعرة ولا يدمى؟!، وقلب نيلسون مُدمَى، أحسّ بأن هناك شخصين يتقاتلان داخله، ذلك الشخص الذي يعرف معنى الواجب وكيفيّة تنفيذه مهما بلغت الصعوبات، المتيم بالعلوم وعمله الاستثنائي الذي أضناه كثيرًا وجعله على شفير الحافية يكاد يسقط، ذلك الشخص الذي يدفعه دون إرادةٍ منه أو تخيُّل لمجريات الأحداث مستقبلًا لاتخاذ قرارات لا يعلم حقيقتها إلا بعد أن تقع عواقبها،

البؤسِ على ذلك العلم وتلك التطلعات المُبهمَة التي تقوده نحو معارك غامضةٍ قد تُودي به كشخص نهائيًا، ولكنه لا يستطيع مقاومته مهما بلغَت التضحيات، لا يستطيع الوقوف في مواجهتها مهما بلغَتْ كياسته وإرادته، أمَّا الآخر فهو نيلسون اللورد صاحب الكياسة ابن العائلة العريقة، ذاك الطبيب العاقل العالم الذي ورث إرثًا عظيمًا ولا ينبغي له بأن يُلحق به العار، ولكن أيعقل أنَّ ما يقدمه لذلك المسكين عارٌ؟! أيعقل أن تكون حماية المتشردين والمنبوذين عارًا يحيق به ويهدد عرشه؟!، ولكن كريستيان ليس متشرّدًا أو منبوذًا كما توحي الكلمات، فهو أعمق من تلك المعاني بكثيرٍ، لكن كل ذلك لا يحول دون أنَّ ما يقدم عليه أو ما تدفعه المعطيات هو أمرٌ غامضٌ، شائن، له مذاقٌ مزيّفٌ، كأنه العسل الذي دُسَّ فيه السُّمُّ، يغصّ في حلقه ولا يستطيع ابتلاعه، أدرك بأن تلك الليلة لن تنتهي على خيرٍ، وبالفعل قد كان حينما أتت إيما من الخارج لترمقه وكالعادة سبرَتْ أغواره، وعرفت جيدًا ما يدور في خلده..

«ماذا سنفعل الآن يا نل؟!»، ألقَت السؤال دون أن تمنحه هدنةً، مدركةً أن نيلسون لو تفرَّد بنفسه لغلبه ذلك الشخص الذي يمتثل للعقل دون القلب كما عهدَتْ فيه.

رمقها دون ردٍّ لإدراكه ما أضمرَتْه زوجته الطيبة ولإدراكه بأنّ المعركة آتية لا محالة، لكنه على ماذا سيقاتلها؟! وهو لا

يدرك حقيقةً إلى هذه اللحظة إلى أيّ جانبٍ سينحاز؟، فالشخصان داخله ما زالا يتقاتلان وقد أوشك الشخص الأخير أن يسقط.

«**سأسلمه لشرطة سكوتلاند يارد في الغد، لقد اتفقتُ مع السيد كافنديش على ذلك**»، بالطبع كان كاذبًا رغم جدّيته، تدرك إيما بأنَّ كبرياءه كرجل هو مَن يتحدّث، المسؤولية على عاتقه هي ما تقوده، لكن ليس قلبه الطيّب الذي تعرفه تمامًا، هكذا ظنّت إيما في هذا التوقيت، بأنَّ قلبه الطيب هو ما سيقوده في النهاية، فلكلٍ عالم متطلع دهاليزه الغامضة والسرّيّة التي لن يفك طلاسمها ثمّة أحد، واجهَتْه إيما متسلّحة بإنسانيتها وبدا أنها استعدَّتْ جيدًا لتلك اللحظة.

«**ماذا ستفعل مع كريستيان؟، أرجوكَ كن جدّيًا وأجبني، بالطّبع سيأتي اليوم الذي ستقرّر فيه مصيره**».

أخذ دكتور نيلسون نفَسًا عميقًا، ثمّ عَلا وجهه تعبيرٌ ينمّ عن الضيق والكدر، فقد أعادته إيما بسؤالٍ واحدٍ إلى ما قبل مجيئه إلى هنا، أحسّ بالألم، لكنه أجاب ببساطة: «**لم يعد أمر كريستيان بيدي، سأسلّمه في أقرب فرصة إلى شرطة سكوتلاند يارد كما أخبرتكِ، فلم يعد لديّ القدرة على الاحتفاظ به**».

شعرَتْ إيما بألم يسري بين أضلعها في اللحظة التي قال فيها نيلسون: «**إيما لمّ يعد ممكنًا الاحتفاظ به، أنتِ لا تتخيّلين مدى المعاناة التي طالما شعرت بها وهذا الطفل يجوب معملي ببراءته غير عالمٍ بالأهوال التي قد يلاقيها في الخارج، أُحسّ**

بتعاسة بالغة كلما نظرتُ في وجهه موقنًا في نفسي بأنّ حياته لن تكون هانئة، لقد حاولت أن أفهم اللغز خلف تركيبته النادرة لكنّي وبكل أسفٍ فشلتُ، لكَمْ كنتُ أودّ مساعدته، ولكن الأمر يبدو مستحيلًا، فإمكاناتي لا تؤهلني على التوصل للطريق الأمثل لمساعدته ولو بشكلٍ طفيفٍ، أعتقد بأنه يحتاج إلى مجموعةٍ من العلماء ربّما توصلوا لطريقة.. لعمل جراحةٍ تجميليّةٍ له ولكنني أؤكد لكِ مرة أخرى بأن ذلك يُعتبر ضربًا من الخيال، كما أن هناك شيئًا مهمًّا يمنعني الاحتفاظ به».

تطلّعت له إيما بقلبٍ يعتصره الألم وهو يسترسل بنبرةٍ يتّضح فيها صراعه النفسي، «هذا الطفل غريبٌ، لا أقصد شكله ولكني أقصد طريقته، فهو لا ينفكّ عن القراءة، لديه سرعة فهم غريبة تفوق أبناء جيله، ولديه قدرة خارقة على النظر في دواخلك، وكلّ ذلك يفعله في لمح البصر، كلما تمعّنتُ في الأمر رأيتُه غريبًا، ولكنْ بعيداً عن تلك الغرابة وهذا ما يؤرقني حقًا، ذلك التناقض الغريب» بدا نيلسون وكأنه يحدث نفسه «إن كريستيان يشعل قلبي كلّما شكرني أو أثنى على مجهوداتي لمحاولة مساعدته، وما يحزنني حقًّا أنه يدرك بما لا يدع مجالًا للشكّ أنه يعرف خطيئته التي لم يرتكبها، يشعر بالخزي؛ لأنّه جاء إلى العالم مع علمه بأن لا يد له في وجوده، لا تنظري لي هكذا يا إيما؛ فإن كريستيان هو أكثر طفل استطاع سبر أغواري، في الحقيقة هو أكثر إنسان فعل ذلك، وكلّ ذلك يعبر عنه ببراءةٍ

وطيبة نفسٍ، لطالما شعرت بالقشعريرة كلّما تكلم معي متكهّنًا بما أحسه دون أن أتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ، الأمر غريب صدقيني، أغرب ممّا أتخيل»، بدَتْ جملته الأخيرة رنّانةً بشكل غريب، ولها وقعٌ مخيفٌ.

ربتت إيما عليه بعد قليلٍ وقد اغرورقت عيناها بالدموع، فقال بنبرة مَن قرّر شيئًا يفوق إرادته وكأنه يعاند شيئًا لا قِبَل له به: «**إيما، إني سأسلم كريستيان إلى السُلطات في أقرب وقتٍ، أعرف جيدًا أنّ الأمر شاقٌ ومخزٍ، لكن ما باليد حيلةٌ، وأسأل الله أن يعينني على قضاء هذا الأمر ويرحمني من ضعف نفسي الآثمة**».

أطرق برأسه شاردًا، فسمع إيما تقول «**لا يمكنك أن تسلّم كريستيان بهذه البساطة، فالحلّ في يدك على كل حال**».

«**ماذا تقصدين؟!**»، سألها نيلسون وهو يعرف الإجابة وقد علم ما تضمره فتملّكه التعنّت والعند الغريب الذي لا يفهمه، ولكنّ شيئًا واضحًا في داخله يخشاه، ولكنه لا يستطيع الإمساك أو القبض عليه.

نهضَتْ من مكانها وجلسَتْ بالقرب منه ونظرَتْ في عينيه، «**نيلسون، أنت رجلٌ كريمٌ وثريٌّ ومشهورٌ، تتمتع بالعديد من الصفات الطيبة التي لا يتمتع بها عدد كبير من الرجال، كيف سيطاوعكَ قلبك بأن تتخلّص من كريستيان بهذه البساطة وأنت تعلم جيدًا ما سيواجهه في المستقبل؟!، تدرك أيضًا أنّ كريستيان لن يستطيع مواجهة العالم في هذه السّنّ، بل إنّه لن**

يستطيع البقاء أكثر من سنةٍ في عالمٍ يضجّ بمعدومي الضمير، سيلاحقه الأذى في كل مكانٍ وسيدمّره في النهاية، ربما أتى إليك يومًا ليلقي بذلك العبء عليكَ وحينها لن تجد ما تقوله ولن تغفر لنفسكَ أيضًا».

تململ دكتور نيلسون في مكانه، ثم قال والخوف يأكله: «**إلى ماذا ترمينَ يا إيما بالضبط؟!**».

نهضت من مكانها ووقفَتْ في مواجهة المدفأة حيث انكعست الإضاءة الصادرة عن النار عليها، ثم قالت بنبرةٍ قاطعة: «**أنت تدرك جيدًا ما أرمي إليه يا نيلسون**».

نهض نيلسون من مكانه وبدا عصبيًا بشكلٍ مفرطٍ، ثم صاح منفعلًا: «**إن كان ما أدركه صحيحًا فأنتِ بالكاد فقدتِ عقلكِ، أنَّى لي الاحتفاظ به؟!، وكيف؟!، هل فقدتِ عقلكِ يا إيما؟!، هل.. أنا لا أعلم حقًا كيفَ..؟!**».

تلعثم نيلسون وزاد عناده وانجرفَت المناقشة إلى شجارٍ عنيفٍ بينهما حتى إنّ إيما أجزمَتْ بأنه لم يغضب ولو لمرةٍ واحدةٍ تلك الغضبة في حياته، وبدا لها كطفلٍ يرفض الذهاب إلى المدرسة وليس رجلًا يقرّر مصير رجلٍ آخر، وهذا ما استغربَتْه كثيرًا في خلواتها اللاحقة، ترك المنزلَ تمامًا لمدة خمس ليالٍ كاملةٍ، لم يكن يعود إلا في الصباح؛ ليأخذ حمّامًا ويتناول إفطاره، ثم يعود إلى عمله كعادته، لم يوجّه لها كلمة واحدة منذ تلك الليلة، وأحيانًا

ما كان يمر من جوارها، ولا يكلف نفسه حتى عناء النظر إليها، وكأنها انمحَتْ فجأةً من الوجود.

آلمتها تلك المعاملة الفظّة، وشرعَتْ ترى في زوجها جانبًا لم تكن تعلم بوجوده، خامرها شكٌ بأن نيلسون يكرهها، ولم يعد يطيق وجودها، فهي تدافع عن الإنسانيّة بينما هو يدافع عن البقاء، والبقاء لن يكون في حضور كريستيان، تذكّر عرضه لها بأن يوليه رعايته ولكن بعيدًا عن هنا، عنهما، عن ذلك المنزل، عن إنجلترا كلها، بل تعهّد بأن يكون الطفل مصونًا حتى يوم الممات، ولكنها رفضَتْ رفضًا قاطعًا، في تلك اللحظة أحسّ نيلسون بأنه لا يعرف زوجته ووصمها بالعار، وأكّد بفظاظةٍ وقسوةٍ لها بأنّ حرمانها من الأطفال أخلّ بعقلها، فسعَتْ لتجلب على نفسها وعلى كيانه العار.

رغم ما تبدّى عليها من إعياءٍ بسبب تلك الكلمات الناخرة في القلب المدمى سلفًا إلا أنه انجرف أكثر في عدوانيّته وكأنه مُنساقٌ خلف عاطفةٍ خفيةٍ ترعبه، ولمّا صفا إلى نفسه أنهكه شعوره بالقسوة تجاه أجمل ما يحبّ وأغلى ما يملك، انفطر قلبه وتصلب عقله ولكنه في النهاية عاد إلى طبيعته يتحدّث إليها بلا شغفٍ، يناقشها بلا روح، ويتحاشى في الوقت نفسه كريستيان تمامًا، وكأنه لم يأتِ للإقامة في منزله، وتلك الأخيرة كادتْ تُقسمه إلى نصفين، فقد بات كريستيان رغم كل ما حدث مقيمًا دائمًا لديه في منزله، وكأنّ إيما بذلك تتحداه، وهذا لم ينسَه نيلسون قطُّ لها حتى إنّها حينما حاولتْ مواجهته ذات يوم قال لها بنبرةٍ غريبةٍ:

«لقد طلبت منك أن تنقذيني بكل طريقةٍ ممكنةٍ، ولكنكِ لم تفعلي ذلك قطّ، تذكري ذلك جيدًا».

وعلى كل حالٍ فقد أتى كافنديش بعد أسبوعٍ كاملٍ لدكتور نيلسون؛ ليناقشه في مسألة كريستيان ويطالبه به بعد أن عثر الأخير على قسٍّ يتولّى رعايته داخل كنيسةٍ من كنائس مدينة برمنغهام، وقد شاع السرور في نفس كافنديش بعد أن توصل لذلك الحلّ حيث جلس الأخير مرات عديدة مع نيلسون الذي لم يبخل عليه بإفشاء سرّه عما يحدث له بسبب ذلك الطفل، وتلك تُعتبَر مرة نادرة لم تحدث بأن يُفشي نيلسون ما يجول في خاطره وما يعتمل في صدره، ولكنه بما لا يدع مجالًا للشكّ كان موشكًا على الانفجار إن لم يتحدّث في الأمر لشخصٍ صاحب ثقةٍ، وفي الحقيقة إن نيلسون تكلم بدافع شيءٍ خفيٍّ يعذّبه في سريرته، لم يتوصل بعد لفكّ طلاسمه، ذلك الشيء الساكن داخله ويخشاه، ولقد أبدى كافنديش تجهُّمه ورفضه التامّ للمسألة برمّتها، وقد سعى الرجل بكل معارفه وسلطاته أن يتوصل إلى حلٍّ يريح صديقه الطيب النبيل دكتور نيلسون، ورغم السعادة التي تفشّت في نفس كافنديش وإحساسه بأنّه يقدم للرجل جَميلةً إلا أنه أحسّ بفتور نيلسون الذي بهَتْ لونه وتبدّل حاله إلى الأسوإ، وعلم في تلك اللحظة أنّ نيلسون لن يستغني عن كريستيان أبدًا.

ولم يستطع كافنديش أن يكتم ما يعتمل في سريرته فقال: **«دكتور نيلسون، الملعونون مكانهم هناك في الظلمة وأنت رجلٌ يلاحقك النور، تذكّر ذلك جيدًا؛ لأني في يومٍ ما سأطالبكَ بأن تذكرني بتلك الكلمات»**.

لم يعلق نيلسون عليه، ونظر له نظرة المهزوم في معركةٍ لم تبدأ بعد.



عام ١٩٠٩.

انتهى عام ١٩٠٨ سريعًا ليأتي الشتاء بزوبعاته وغضباته الصاخبة، تراكمَتِ السحب وانعقدَتْ جبال الغيوم، واكتسى لون الصباح في ذلك اليوم بلون المغيّب وامتلأ رواق السماء بلحظة صمتٍ مريبٍ، تمايلَت الأغصان في حركة شيطانية مخيفة، وعزيف الريح ينذر بقدوم عاصفةٍ، جلجل الرعد حاملًا معه رسائل من عالمٍ مجهولٍ، واندلعَت شرارات البرق تخطف الأبصار وتصعق القلوب، جلس نيلسون في هذه الأثناء يتابع كلّ شيءٍ في صمتٍ مريبٍ من خلف نافذته داخل منزله.

دلف كريستيان عليه في هذه اللحظات ولم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ، ولكنه اكتفى بالوقوف على بعد خطواتٍ منه دون أن يجرؤ على الاقتراب أكثر، فلقد اعتاد معاملة نيلسون المتجهّمة



عام ١٩٠٩.

انتهى عام ١٩٠٨ سريعًا ليأتي الشتاء بزوبعاته وغضباته الصاخبة، تراكمَتِ السحب وانعقدَتْ جبال الغيوم، واكتسى لون الصباح في ذلك اليوم بلون المغيّب وامتلأ رواق السماء بلحظة صمتٍ مريبٍ، تمايلَت الأغصان في حركة شيطانية مخيفة، وعزيف الريح ينذر بقدوم عاصفةٍ، جلجل الرعد حاملًا معه رسائل من عالم مجهولٍ، واندلعَت شرارات البرق تخطف الأبصار وتصعق القلوبَ، جلس نيلسون في هذه الأثناء يتابع كلّ شيءٍ في صمتٍ مريبٍ من خلف نافذته داخل منزله.

دلف كريستيان عليه في هذه اللحظات ولم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ، ولكنه اكتفى بالوقوف على بعد خطواتٍ منه دون أن يجرؤ على الاقتراب أكثر، فلقد اعتاد معاملة نيلسون المتجهّمة

والفاترة، كان قلبه مشحونًا بالأسئلة وعقله يكاد يهوي في بئر سحيقةٍ من كثرة التفكير في كل شيءٍ حوله.

خلال وجوده بهذا المنزل لاحظ أنّ جميع الخدم يتحاشونه بقدر الإمكان ولا ينظرون إلى وجهه أبدًا وقليلًا ما تعاملوا معه حيث اقتصرَتْ معاملتهم في حدود خدمته التي أُجبروا عليها حتى لا ينقطع عيشهم لدى رجلٍ مرموقٍ كنيلسون، ولم يغفل الأخير عمومًا عن ذلك الأمر فقد أغدق عليهم وشاع كرمه في الجميع حتى على سائس الخيول لديه الذي شرع يعلّم كريستيان أسرار الخيول وكيفية امتطائها، ولأن الرجل كان في الحقيقة لا يرى جيدًا فلم يُعِقْهُ شكل كريستيان أو يضمر له أيّ نوع من الكره، لذلك كثيرًا ما ترى الأخير واقفًا بجانب الإسطبل الملْحَق بالمنزل يتابع الخيول لساعاتٍ في صمتٍ وكأنه يدفن حزنه في مراقبة تلك الكائنات الجميلة التي لا تضمر لأيّ إنسان كرهًا.

أمّا إيما فقد انهمكت في الاعتناء به ومعاقبة كلّ مَن يُظهر له أيّ نوعٍ من العداء أو الجفاء المتعمد أو غير المتعمد، تحوّل المنزل تقريبًا إلى قاعدةٍ عسكريةٍ بقوانين صارمة وقد أخذتْ إيما تعهُّدًا من الجميع بعدم إفشاء سرّ وجود كريستيان في هذا المنزل بناءً على تعليمات نيلسون، وفي الحقيقة إنَّ الأسرار لدى الخدَم لا تبقى طويلًا، فالثرثرة هي متعتهم الوحيدة التي تُنسيهم قسوة الحياة، وهذا ما سنعرفه فيما بعد.

استدعت إيما الخياط المخوَّل بتصميم ملابسها لتصميم ملابس لكريستيان، وفي الحقيقة إنّ الرجل انعقد لسانه تمامًا حينما رأى كريستيان وغاص في خوفه حتى إنّه نعَتَه بالمسخ، وهذا ما جعل إيما تستشيط غضبًا وتطرده في الحال، وهناك خادمةٌ أخرى أهانَتْ كريستيان بكلمات قاسية حين وصفَته بأنه النهاية المخزية لهذه الأسرة العريقة، ولم تكن تعلم بوجود إيما خلفها حتى إنّ إيما تمالكت أعصابها بصعوبةٍ بالغة، واكتفت بطردها شرّ طردة وتهديدها بأنّها لو أفشَتْ ولو بكلمة واحدة ما يحدث داخل أسوار منزلها ستكون نهايتها لا محالة، كل تلك الأمور عرفها دكتور نيلسون رغم عدم اهتمامه بإدارة المنزل أو بما يدور داخله من أمورٍ، فلم يكن لديه الوقت ولا المَلَكة لتلك الأمور التي تُخوَّل للنساء فقط، أحزَنه تمامًا ما وصل إليه الأمر من غمامةٍ استقرت على سقف منزله ليتحوّل إلى ساحةٍ كبيرةٍ تجوب في الظلام والكآبة والغموض، كما أنّ ذلك الخفّاش اللعين ظل يواصل الظهور كل ليلة؛ ليؤكد له السوء الذي يحس به سلفًا.

والغريب ورغم شعور نيلسون بما أصاب منزله بسبب وجود كريستيان إلا أنه اهتمّ بأمر تعليمه حتى إنّه هيّأ نفسه استعداداً لترتيب أولوياته التعليمية مع علمه المسبق بأنه من المستحيل أن يلتحق كريستيان بأي مدرسةٍ، كيف سيُقبَل؟!، وإن تم قبوله – وهذا مستحيلٌ كاستحالة تحوّل التراب إلى ذهب – كيف سيتقبله الأطفال؟!، كاد مجرد التفكير في الأمر يتسبّب له بالغثيان، اتفق

مع العديد من المدرسين ذوي الأهليّة والمكانة والنفسيّة والثقة التي تسمح لهم بتأهيل كريستيان تعليمياً بعد أن شرح لكلَ منهم على حدَة ظروفه الخاصة، ووعدهم بضعف ما يستحقونه إن أبقوا الأمر سرّاً، واستجابوا جميعًا على أن يبدأ تعليمه خلال شهرين من جلسته الآن متأملًا غضبة الكون وكريستيان يقف خلفه.

«دكتور نيلسون!» نداؤه الخافت ملأه التردّد، ولكننا لا نستطيع أن ننكر مدى تطوره في نطق الكلمات حتى إنّه وفي فترة وجيزةٍ سيغدو طبيعيًا تمامًا في هذا الأمر.

لم ينظر له نيلسون واكتفى بسكونه حتى إنَّ كريستيان لوهلة أحسّ بأنه لا يشعر بوجوده فأعاد نداءه، ولمّا أيقن كريستيان بأنّه يتجاهله قال: **«دكتور نيلسون، أنا ممنونٌ لك على كلّ ما تفعله لي، لكن كريستيان لا يعرف ما هي جريمته التي أجرمها لكي تتحاشاه؟، لقد فكرت كثيرًا ولم أعرف حقًا ما الذي جعلكَ تعاملني هذه المعاملة؟!، فالسيدة الطيبة لورا مديرة المنزل تقول: إنّكَ منشغلٌ بالعمل، ولكني لا أصدقها»** لمح كريستيان تعبيرًا كئيبًا على وجه نيلسون الذي بقي في مجلسه جامدًا كالموتى، ورغم ذلك قال متردّدًا بعض الشيء: **«لا أطلبُ منك شيئًا، لكني...»**.

التفت إليه نيلسون فجأةً وقد التمعت عيناه ببريقٍ غريبٍ حيث بدا مهيبًا ومُخيفًا ثم قال بصرامةٍ: **«اذهب إلى غرفتكَ، ولا**

تنسَ استذكار دروسكَ، فأنت على موعدٍ مع الدراسة خلال فترة وجيزةٍ، وأنا أنتظر منكَ الكثير».

انعقد لسان كريستيان ونظر له نظرةً طويلةً بعينيه المخيفتين ثمَّ بلَل شفته السفلى بلسانه وقد أحس بجفاف حلقه وانصرف متردّدًا حزينًا، في الحقيقة إنّ نيلسون بدا أنه ينازع شيئًا يمزّقه من داخله، يضمر شيئًا في نفسه وذلك الشيء لا تتّضح ملامحه وهو وحدَه مَن يعلمه، تُرى ما الذي يدور في عقله؟!، لم تعرف إيما! لم يعرف كافنديش! ولم يكتشف كريستيان حيث تحوّل الرجل إلى غموضٍ يستحقّ التأمّل.

أمّا إيما فقد كانتْ تجلس كل ليلةٍ في غرفة كريستيان الفسيحة تروي له القصص، وتقرأ معه الروايات التي تحبّها، تُدرّس له ما استطاعتْ من الأدب الإنجليزي العظيم، وتقصّ له حكايات مختلفة عن العالم الرائع في الخارج، عن البيوت والمزارع، عن الخيول والحيوانات، الحدائق والغابات، الرجال والنساء، شرعَتْ تلقّن له العالم من خلال نظرتها المتفائلة على الدوام، هل كانتْ إيما تحبّ كريستيان كابنٍ لها؟! أم تشفق عليه كحالةٍ خاصّةٍ تستأهل العناية والرفق؟! أم أن سنوات الحرمان من الأطفال وطغيان الألم عليها كل هذه المدة كان سببًا في حبّها العميق لكريستيان؟! أم هناك ما هو أكثر من تلك الأسباب لجعْلِها تكرّس له معظم وقتها، رغم ما تعانيه مع نيلسون الذي تحوّل إلى شخصٍ لا تعرفه إلا أنّها لم تتوقف عن المحاولة ولكن

بلا جدوى، فقد اشترط عليها شرطًا وحيدًا لتُبقِي على كريستيان ألا وهو ألا تتوقف عن محاولة إنجاب أطفالٍ، وهذا حقّه وحقّها أيضًا، وقد اعتبرت ذلك عدلًا كافيًا لأجل زوجها، وعلى جانب آخر فقد تعوّد نيلسون هجران مضجعها واستأثر لنفسه غرفةً جديدةً أشرفَتْ على تجهيزها وتهيئتها له بنفسها حزينةً منكسرة القلب والخاطر، كثيرًا ما بقيَ فيها ونادرًا ما زارها، وكثيرًا ما أتى بعد غياب ليالٍ طويلةٍ ليقيم فيها وحده دون حتى أن يكلّف نفسه عناء زيارتها في غرفتها، آلمها ذلك وعذّبها، في كلّ ليلة ينام فيها نيلسون بعيدًا كانت تبكي بحرقةٍ على وسادتها حتى يقتحمها النعاس دون أن تشعر.

مرّ شهران على المنزل وهو منغمسٌ في حالته التي جدّت عليه، بل صار الأمر الطبيعي والواقع الجديد الذي فُرض عليه حتى حضر أول مدرسي كريستيان السيدة لويزا مورتيمر، كانت سيدة خمسينيّة بدينةً ذات شعر أشقر بُهت لونه، لها طلعة بهيّة بعينيها الضاحكتين على الدوام وابتسامتها المشرقة التي تكشف عن أسنانها البيضاء رغم تقدُّم سنّها، كانت السيدة لويزا في شبابها مدرسةً لإيما حيث تتلمذَتْ على يديها في العلوم والكيمياء، متمكنة من عملها وتحبّه حبًا جمًّا، وللأسف لم تتزوج على الإطلاق بعد ما تُوفّي زوجها أثناء قصف مدينة الإسكندرية عام ١٨٨٢ بقيادة الأدميرال السير بوشامب سيمور، فتفرّغت للتعليم، واعتبرَتْه ملاذها الوحيد في هذه الحياة.

أعطى لها نيلسون تعليماته الدقيقة، وأخبرها بكلّ ما يتعلّق بكريستيان قبل أن تقابله وألزمها بأن تتوخّى الحرص في معاملته كونه مختلفًا عن أبناء جلدته، وشدّد على سرّية الأمر أكثر من مرة مستعينًا بسلطته بشكل وديّ مستتر، لكن السيدة لويزا فهمَتْه تمامًا وطمأنَتْه.

حينما دلف عليها كريستيان مرتابًا ورفع عينيه لها ابتسمَت لويزا متوترة، فلم تكن تتخيّل أنّ الأمر مفجعٌ لهذه الدرجة. فكلّ الكلمات الدقيقة التي استخدمها دكتور نيلسون لم تصف الطفل كما يجب حتى إنّها لوهلةٍ شعرَتْ بأنّ نيلسون يخيفها متعمدًا لسبب لا تدركه، ولكن ما تراه الآن أمامها تجسيد حي لهشاشة وصف دكتور نيلسون، تجرّعت الصدمة بهدوءٍ وحنّ قلبها لابتسامة إيما المشجّعة والمحفِّزة فاستقبلَتْه بقدر ما استطاعَتْ بهدوء وطيب، وسرعان ما وجدت فيه الصحبة الطيبة. وشرع المدرسون المختلفون يتدفقون على منزل دكتور نيلسون. مارك ويسلي، إيديث وودفيل، مايكل أوزبورن، ديفيد سبيلمان العجوز مدرّس الدراما الإنجليزية ومعلم دكتور نيلسون نفسه حينما كان صبيًا صغيرا، جميعهم لم يبخلوا على كريستيان الذي وصفوه ومع علمهم المتدفّق بالنابغة. ليس لصفاتٍ حميدةٍ متأصّلة فيهم ولا بسبب الإغداق الكريم من قبل دكتور نيلسون عليهم، وإنّما بسبب النبوغ المتنامي بسرعة شرارات البرق التي تومض السماء.

مرت سنتان وكريستيان متقدمٌ في تعليمه يتابعه دكتور نيلسون بهدوءٍ من بعيد. ولكن لم يبدرْ منه ردّ فعل سواءً أكان تشجيعًا أو مساعدة، لكن على جانب آخر كانت إيما فخورةً بما وصل إليه كريستيان وما تعلّمه حتى أضحى يجمع من العلوم ما يتفوق به على أبناء جيله بسنوات. وانهمك الأخير في تحصيل العلوم وصارت شبقه الذي لا غنى له عنه. الهواء الذي يحييه. والقلب النابض بوجوده وانتمائه لهذا العالم.

كل ذلك كان جيدًا حتى جاءت الشرارة التي غيّرت كل شيء.

مفتش شرطة سكوتلاند يارد - خريف ١٩١١

تشارلز كافنديش.

كان يوم أربعاء من أيام خريف عام ١٩١١، يوم موحش لم تبارحه الظلمة، اخترق كافنديش مشيًا هواءً نشيطًا لطيفًا منعشًا تحت سماء ظلّلها الغمام، انعقدت جبال السحب فبدتْ مهيبةً تحيط لندن من جميع الجهات كحمايةٍ طبيعيةٍ أو إنذارٍ قريب بدكها دكًّا. كانت مشية كافنديش تنمّ عن تفكره العميق في مسألةٍ لا تقبل التأجيل، بينما التعبير السائد في عينيه يوحي بالفضول وعدم القدرة على الانتظار.

دلف معمل دكتور نيلسون وهو يومئ برأسه إيماءةً خفيفةً وقد عاودته ذكرى بعيدة في هذا المكان. فمنذ تلك الذكرى

تغيّرت أشياء كثيرة وانعقدَت آمال كثيرة في سريرته وعلى جانب آخر حاولٍ تنحية مخاوف متعددة، لكنه ورغم جهوده الحثيثة لم تبارحه قطُّ، نظر في عيني دكتور نيلسون البراقتين ببريق العلم والفطنة والتطلعات التي لا تكاد تنتهي، فقد جمعَتْ بينهما صداقة حقيقية في ظل الليالي الطويلة المنصرمة وتأصّل داخلهما يقينٌ بأن صداقتهما الحتمية جاءتْ نتاجًا لوجود كريستيان نفسه حتى إنّ كافنديش تساءل في نفسه مرّات عديدة: ماذا لو لم يظهر كريستيان؟!، أوجبه السؤال أن يكون ممنونًا له رغم ما يحيق به من تساؤلاتٍ ومخاوف مع كل يوم يمرّ.

كان على معرفةٍ بما يدور مع كريستيان وشبه عارف بما وصل إليه ذلك الصبيّ المتفرد، وقد أثارته جملة نيلسون ذات صباحٍ وهو يتناول القهوة بصحبته حين قال: «**لقد مَنّ الله عليه بعقلٍ يعادل جمال الدنيا وما فيها**»، ورغم كل الودّ الذي أظهره نيلسون في كلماته عن كريستيان وما وصل إليه وعن تطلُّعاته المتفرّدة التي تسابق الريح إلا أن كافنديش لم يعنه سوى نيلسون نفسه، فقد تغيَّر الرجل وانقلبَتْ حياته رأسًا على عقبٍ، صار شديد الشحوب لقلّة نومه، شارد الذهن، منكفئًا على عمله ليل نهار حتى أضحى نحيلًا ذابلًا، تأصّل شيء من القسوة داخله وأضحى ضيّق الصدر، يثور على أتفه الأسباب ويتذرّع الذرائع أحيانًا لصبّ جام غضبه على مَن حوله، لقد فشل نيلسون في العديد من النظريّات التي أُرهق لوضعِها في علوم الجينات بعد أن تحدّاه أكثر من عالم فطنٍ

وأثبتوا فشله وخصوصًا العالمين مايك باركر وفرنسيس هورسلي وذلك الأخير يُعَدّ من أكثر العلماء فطنةً وجنونًا، ويكاد يكره نيلسون كما يعتقد الجميع، لذلك وجب على كافنديش أن يتحمّل تقلباته المزاجيّة في سبيل اكتساب صحبته الرحبة المميزة الزاخرة بكل أنواع الملذّات، والملذّات هنا تتمثّل في مناقشاته العلمية وطريقته في الشرح لأمورٍ لم تخطر لكافنديش على بالٍ قطّ.

استدعاه نيلسون في ذلك اليوم وقد تبدَّتْ على وجه الرجل لمسةٌ من الجنون، فقد كان شعره مشعثًا، غير حليق، وومضة من اللوثة تختلط بنظرات عينيه، بينما هالات سوداء خفيفة تحيط بعينيه، ظهر ملبسه على أسوإ حالٍ، غير نظيف، معطفه الطويل الأسود يكاد يلامس الأرض زاحفًا وراءه أينما مشى في خنوع وإذلال، ظل يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ثمّ توقّف فجأة وألقى نظرةً نافذةً على كافنديش وبدا كأنّه لم يتعرّف عليه، تجمّد الدم في عروقه ثم اقترب منه وأمسكه من كتفيه صائحًا: «**كافنديش يا صديقي، أنتَ هنا؟! أنا سعيدٌ جدًّا**»، أومأ كافنديش برأسه محاولًا رسم ابتسامةٍ على ملامحه الحذرة.

«**ألم أقل لكَ: إنّ الله يظلّلنا دائمًا بعنايته**»، قال نيلسون ثم ترك كافنديش وذهب سريعًا إلى جانب الغرفة، وظلّ يبحث منفعلًا عن شيءٍ بين أكوام من الكتب والأوراق.

«**لقد استدعيتني اليوم وبناءً على الرسول فقد قال: إنّ هناك أمراً مهمّاً**»، قال كافنديش وهو يتابع بفضولٍ وحذرٍ نيلسون

الذي بدا منفعلًا زائغ البصر وتساءل في نفسه عمَّا يحدث، ولكن قاطعه نيلسون وهو يقول: «**كلّ شيءٍ بين الأصدقاء هو شيءٌ مهمٌّ يا صديقي الطيب**».

أومأ كافنديش برأسه بالموافقة مؤمنًا على ذلك حتى انتزع الرجل كتابًا ثقيلًا من بين الكومة صائحًا: «**وجدتُه، ها هو**»، لاحظ كافنديش أنّه الإنجيل، فتحه سريعًا حتى وصل إلى صفحةٍ معينةٍ ثم شرع بالقراءة.

«**لَا خَوْفَ فِي الْمَحَبَّةِ، بَلِ الْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرَحُ الْخَوْفَ إِلَى خَارِجٍ؛ لأَنَّ الْخَوْفَ لَهُ عَذَابٌ. وَأَمَّا مَنْ خَافَ فَلَمْ يَتَكَمَّلْ فِي الْمَحَبَّةِ**» يوحنا ٤: ١٨.

ثم نظر في عيني كافنديش، ووضع الكتاب جانبًا بغير اتزانٍ فسقط من يده مُصدِرًا صوتًا مكتومًا، ثم بان عليه السكون، مال برأسه جانبًا لثوانٍ وفجأة أطلّ على ملامحه الكدر والهمّ، وقد ظللت سحنته ابتسامةٌ غريبةٌ حزينةٌ وصادقة أيضًا، ثم جلس على كرسيّ قريبٍ بصعوبة حيث كاد يقع فأسرع تجاهه كافنديش وقد أحسّ بحزنٍ عميقٍ تجاه الرجل، وخاف من أن تكون لوثة شيطانية حاقَتْ به جرّاء الضغط الذي يمارسه على نفسه، ظلّ يتابعه لثوانٍ حذرًا ومترقّبًا بينما نيلسون على حاله يسبح في عالمه الخاصّ بعيدًا وترفرف به أجنحة وهميّة إلى ملكوتٍ لا يعلمه سواه.

ولاه كافنديش ظهره؛ ليجلب كرسيًا، لكنه سمعه يقول بنبرةٍ هامسةٍ لكنها مسموعة: «**سأرزق بولدٍ يا كافنديش، الآن فقط قرّر الله أن يمنحني ولدًا يحمل العبء عني**».

دوّت كلمات نيلسون في مسامع كافنديش، كان لها تأثير دويّ الألعاب النارية في سماء سعيدة، مفعم بالرهبة والفرح والترقب، نظر له كافنديش ومشاعر مختلطة تتقاذفه ولكن ابتسامة عريضة استقرّتْ على وجهه، لكن قاطع كل ذلك نهوض نيلسون مستنفرًا ومنفعلًا وهو يقول: «**لماذا بحقّ الله يفعل بي ذلك؟!، ولماذا الآن؟! إنّي لم أقترف خطيئةً عظمى في حياتي ولم يكمن في نيتي ما يجعله يعذّبني بهذه الطريقة!**»، نظر له كافنديش وقد استحالَتْ ملامحه إلى حزنٍ شديدٍ، وقد أدرك ما يرمي إليه الرجل، حاول أن يتكلم ولكنَه لجَم لسانه وهو يفكّر بأمر نيلسون الذي ولّاه ظهره في هذه اللحظة وقال: «**أتعرف يا كافنديش ما هو الشقاء؟! أن تنقسم نفسكَ إلى شخصين، كل منهما ينازع الآخر، أن تبدو دائمًا على ما لا يتوقّعه الآخرون منكَ، وحين تحاول أن تبدو كما يتوقّعون ينعتونكَ بالمجنون، الشقاء يا صديقي هو المتحكّم الرئيسي في حياتنا، نعيش لنشقى، ولكن ما يرهقنا أكثر هو أنّنا نختار ذلك الشقاء بملء إرادتنا، أليس الله فاتنًا وماكرًا إلى أبعد الحدود؟!، قل لي يا صديقي المخلص ماذا لو خسر العالم جزءًا من هذا الشقاء؟!**».

انعقد لسان كافنديش مفكرًا في كلماته، فاستدار نيلسون وقد استحالَتْ ملامحه إلى الرجل الذي يعرفه كافنديش، هادئ ومسالم ومتّقد بالذكاء ثم قال بهدوء: «**إن خسر العالم جزءًا من هذا الشقاء لخسرنا نحن العالم نفسه**».

ابتسم كافنديش ابتسامةً رائقة وهو يتطلّع إلى صديقه مفكرًا في كلماته الرصينة وفلسفته العميقة مسرورًا بأنّه استطاع أن ينتزع نفسه من الظلمة ليحبو بصعوبة إلى النور مرةً أخرى، أوجسَه ما ذكره عن المولود المنتظر، وفكّر بما يفكر به نيلسون وعرف في سريرته أنّ الرجل يعاني الأمرّين، ماذا سيكون مصير كريستيان بعد مولودٍ جديدٍ من صلبه يحمل اسم عائلة ريفز العريق؟!، وإلى ماذا سيؤول الحال إن أبقَى نيلسون على وجود كريستيان في ظلّ المولود الجديد؟! قال في نفسه حينها: «**الشقاء للأتقياء، واللعنة على العالم**».

لندن - صيف ١٩١٢ - إيما ريفز

بعد مرور تسعة شهورٍ رُزق نيلسون وإيما بمولودهما الذي أسمياه تشارلي تيمُّنًا بأخيها تشارلي الذي تُوفِّي صغيرًا، في الحقيقة إنّ تشارلي كان فائق الجمال يحمل من ملامح أمه وأبيه ما يؤهّله أن يكون فاتنًا بحقٍّ، يملك عيني إيما الرائقتين شديدتي الزُّرقة وشعرها الذهبي المسترسل، بينما يملك أنف نيلسون

القوقازي الجميل الصغير الذي يعكس الكبرياء الذي تتميّز به عائلة نيلسون، كما كان يحمل فمًا جميلًا ذا شفتين ممتلئتين في اعتدالٍ، كان تشارلي بحقٍّ آيةً في الجمال.

لمّا علمَتْ إيما بحملها لم تكن لتصدّق نيلسون والطبيب أبدًا لولا تلك الدموع التي اغرورقَتْ بها عينا زوجها في غفلةٍ منه، وثبَتْ من مكانها وهي تكتم صرخاتها وشهقاتها من فرط الفرحة واحتضنَتْ نيلسون بكلِّ ما أوتيَتْ من قوّةٍ، وغمرَتْها السعادة تمامًا حتى ظنّ البعض للحظةِ أنّها قد جُنَّتْ، لكنها فجأة وفي أوج سعادتها استكانتْ وهدأتْ وزاغ بصرها وأطلّ في وجهها كدرٌ، علم نيلسون بما يعتمل في صدرها، لكنه ورغم ذلك ظلّ على حاله ساكنًا يتابعها، لم تتحدّث إيما قطّ في تلك الليلة، وذهب نيلسون إلى عمله وقد استعاد هيئته وطريقته الخاصة التي اكتسبها من يوم أن أُلحِق كريستيان بالمنزل.

رغم محاولاتها الحثيثة لاستعادة زوجها على ما كان عليه في سابق عهده إلا أنّها فشلَتْ، كان إحساسًا مُرًّا أن تفقد أغلى ما تملك، وكان إحساسًا أكثر مرارةً حينما تأكدَتْ أن نيلسون الذي عرفتْه وطالما عاهدته على طيبة قلبه ومروءة أخلاقه لن يعود كما كان أبدًا، لقد استحال نيلسون تمامًا من طيبةٍ إلى فظاظةٍ، من رحيم إلى جائرٍ، صارت تقلباته المزاجية كثيرة وغير متوقعة، ولا سببٌ حقيقيٌّ لها في بعض الأحيان حتى إنّها صارت تتحاشاه في كثيرٍ من الأمور، لكنها لا تستطيع أن تدّعي أنّ الرجل قد تحوّل

كلّيةً، فقد كانت له أوقاته الطيبة التي يعود فيها إلى حاله السابق، فتغلبه السماحة والرقّة والدّعة، وتغالبه استعادة الذكريات الجميلة، ويستكين كطفلٍ بين يديها، لكن غالبًا ما تنقشع تلك الفترات الطيبة، وتحلّ محلّها مزاجيته الجديدة الغريبة والمخيفة.

فكرت إيما فيما سيؤول إليه مصير كريستيان بعد حضور تشارلي إلى العالم، كدّرها التفكير وأوهنها، غالبتها الدموع كثيرًا أثناء خلواتها وهي تتأمّل صغيرها الجميل، علمتْ بما لا يقبل الشكّ أن المبارزة مع الحياة من أجل كريستيان ستحتدُّ، لكنّ هناك سؤالًا؟!، ماذا حدث لمشاعر إيما بعد حضور زهرة كتشارلي؟!، هل تغيرت مشاعرها تجاه كريستيان؟!، هل كان وجود المولود الجديد سببًا في إهمالها كريستيان؟!، وإن استكمل كريستيان حياته في المنزل فكيف سيكون التعامل بين الصغيرين؟!، في الحقيقة إنّ مشاعر إيما تجاه كريستيان تغيّرتْ، أضحَتْ أكثر رقة وأشد تعلقًا وأعمق حسًّا حتى إنّ كريستيان كان سعيدًا للغاية بما آل إليه الحال رغم أنه لم يكن يتعامل كثيرًا مع العالم من حوله، وحين رأى تشارلي أول مرة في حضور دكتور نيلسون الذي بدا متحفزًا ومتوترًا تهلّل وجهه الدميم، وأسفر عن ابتسامةٍ وحشيةٍ تعكس مدى سعادته.

«**هذا هو أخوك يا كريستيان، اسمه تشارلي**» قالتْ إيما وهي تلمس وجه الصّغير.

مد كريستيان يده بحذرٍ شديدٍ ورهبةٍ وتلمّس يد تشارلي الضعيفة الناعمة كالحرير، ثم تطلّع إلى دكتور نيلسون الذي بدا جامدًا كالموت، ولا يحمل ثمّة تعبيراً أكثر من نظرةٍ نافذةٍ تخترق أعماقه، تلعثم كريستيان ثم استأذن سريعًا في الانصراف، فلقد تبدّل كريستيان كثيرًا بغض النّظر عن وجهه، صار أكثر لياقة واكتسب تمدينًا ولباقةً يُحسد عليهما، كما أنه اكتسب طولًا وبنيةً قويةً، لم ينقطع عن زيارات دكتور نيلسون حينما يخلو إلى مكتبه للقراءة ليسأله في بعض الأمور التي تؤرّقه أو المسائل التي يتوجّب شرحها، وتلك المسائل ليس كما يتصور العقل خاصّة بالصبية في سنّه، بل كانت مسائل عميقة وصعبة في أمور كالفيزياءِ الكمّية وفلسفة العلوم الطبيعية والكيمياء المعقدة، ولم يبخل قطٌّ دكتور نيلسون ولو لمرةٍ واحدةٍ على كريستيان بالمعلومات التي يحتاجها باستفاضةٍ وصدرٍ رحبٍ، وفي الحقيقة إنّ المعاملة فيما بينهما اقتصرتْ على ذلك، فعلى جانب آخر كان كريستيان يتحاشى دكتور نيلسون لفظاظته المطلقة ومعاملته الجافة معه، فقد كان يتعامل معه برسمية شديدةٍ كما يتعامل لورد مع مرؤوسيه، ومن المستحيل الجدال أو المناقشة في أيّ أمر مهما بلغتْ أهمّيته خارج نطاق تعلّمه، وقد أبدى الرجل تجهمًا وقسوة شديدين في بداية معاملته؛ ليضع الأمور في نصابها الطبيعي ونصب عين كريستيان الذي كان ذكيًّا كفاية؛ ليتفهم الأمر ويتعامل على أساسه.

خرج دكتور نيلسون في أعقابه سريعًا، ثم أمره بالتوقّف فتوقف كريستيان في الحال، واستدار في مواجهة دكتور نيلسون وانحنى له احترامًا، طالعه الأخير من رأسه حتى أخمص قدميه بنظرةٍ جامدةٍ لا تعكس معنى ولم يردّ له التحية، وقفتْ إيما خلف الباب تنصت جيدًا لما يحدث في الخارج، أمر نيلسون الخدم المشغولين حول المكان أن يبتعدوا عن تلك البقعة ثم قال موجهًا كلماته إلى كريستيان.

«**كريستيان، أنت ولدٌ كبيرٌ الآن، تكاد تبلغ من العمر ١٢ عامًا**».

شعرتْ إيما بأن الأرض تميد من تحتها، واغرورقت عيناها بالدموع وتحفزت في مكانها، فلقد كانت تخشى تلك اللحظة منذ مجيء تشارلي، لكنها لم تتوقّع أن تكون بتلك السرعة، هل سيقرر نيلسون إبعاد كريستيان عن حياتهما للأبد؟!، هل ينوي إرساله إلى مكانٍ آمن كما رتّب من قبل؟!، فقد حصل على مراده بعد ما رزقه الله بمولودٍ جميلٍ، وكان ذلك شرطه في بقاء كريستيان ـ ألا تتوقّف هي عن محاولة إنجاب طفلٍ ـ والآن قد حان الوقت لإنهاء كل شيءٍ، فإن نيلسون لا يحب كريستيان، يتقبّله كما يتقبل شخصٌ مرضًا لعينًا لا يد له في الإصابة به، والمريض إن شفاه الله لعن المرض، ولكن أين حق الله في الشفاء؟!، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!، سمعته يقول بهدوءٍ وصرامةٍ لا تخلو من ودٍّ في الخارج: «**عدني يا كريستيان أن تحمي تشارلي من كل شرٍّ وأن**

تدافع عنه بشرفكَ، وبكلّ ما أُوتيت من قوةٍ، عدني بألا يحيق به أي أذى أو خطر، وأن تتخذه أخًا لكَ ما حييتَ».

أومأ كريستيان وبثقةٍ قال: «**أعدكَ يا دكتور**».

«**الآن تستطيع الانصراف**»، رمقه نيلسون حتى غاب عن ناظريه وقد ظلّلت عينيه نظرة مفكرة، ثم انصرف هابطًا الدرج إلى مكتبه، جلستْ إيما خلف الباب على الأرض وهي تجهش بشدةٍ بالبكاء حيث شعرتْ بأن قدميها لا تقويان على حملها، كانت مشاعرها مضطرمةً ومتناقضةً، تارة شعرت بالسعادة لبقاء كريستيان بالمنزل وتحت رعايتها، وتارة شعرت بالتعاسة تتملّكها بسبب نيلسون الذي لم يعد مفهومًا لها أو لأيّ شخص يعرفه، ما الذي يدور في عقل نيلسون؟!، وبمَ يفكر؟!، وما السبب الذي جعله يُبقي على كريستيان الآن؟! فبعد الفظاظة والقسوة في تعاملاته مع كلّ مَن حوله ما كانتْ تنتظر غير طرد كريستيان تمامًا، وفي هذه الحالة لن تستطيع أن تفعل شيئًا يُنحّي نيلسون عن قراره أبدًا.

ذهبتْ إلى مكتبه واستأذنَتْ في الدخول، فسمح لها، حينما دلفَت إلى المكتب ألقى عليها نظرةً بطرف عينه دون أن يقول شيئًا، بذلتْ مجهودًا كبيرًا؛ لتبدو طبيعيةً، ولكن الأسئلة كانتْ تتلألأ في عينيها الجميلتين اللتين اغتسلَتا بدموعها، وفي الحقيقة إنّ نيلسون كان يدرك ذلك تمامًا، ولكنه لم يكلّف نفسه عناء السؤال وظل يتابع عمله في هدوءٍ، مشَتْ بهدوءٍ داخل غرفة المكتب وهي تنظر إلى الكتب بلا اكتراثٍ حقيقيٍّ ثم نظرَتْ له، وما لبثت أن

تكلّمت حتى قاطعها نيلسون بهدوءٍ دون أن يرفع رأسه: «**النبلاء لا ينكثون وعودَهم أبدًا**».

اجتاحَتْها سعادةٌ كبيرةٌ، وازدادت احترامًا للرجل، فاستأذنتْ في الانصراف وقد علَتْها الدهشة، وانعقد لسانها، حاولتْ أن تساير عقله المتّقد أو حتى تفكر بحنكته، لكنها لم تستطع، لم تعرف إيما الحقيقة قطُّ، لكن ربما يومًا ستعرفها.

الحبّ والأمنيات لا يكفيان أبدًا.

8

«كم أن الحياة جميلة يا كريستيان!، إنها هبةٌ حقيقيةٌ، ولكن كم من البشر يدركون تلك الحقيقة، انظر حولك ولن ترى سوى المآسي والكدر والملامح البائسة، ستجدهم يلومون ظروفهم ويلعنون حياتهم ويتشاجرون مرارًا؛ ليصبّوا جام غضبهم على مَن حولهم بسببٍ وبلا سببٍ، البشر مُهيّأون دائمًا للموت حيث يعتقدون أن هناك خلف تلك الحياة يكمن وجودهم السعيد الحقيقي»، ابتسم نيلسون الشابّ، بينما القطار يتهادى متحركًا لمرةٍ أخرى بعد أن أفرغ شيئًا من حمولته واستقبل حمولة أخرى.

«الحياة هي الحياة في كلّ مكانٍ، الحياة موجودة داخلنا، وليس في العالم الخارجي» ابتسم كريستيان وهو يلقي تلك الكلمات على مسامع نيلسون ثم قال: «إنّه الكاتب الرائع فيودور دوستويفسكي، هل قرأتَ له من قبل؟!».

أومأ نيلسون برأسه إيجابًا، ثمّ قال مبتسمًا: «**بالطبع، قرأت له، إنه يغوص في النفس البشرية بشكلٍ غريبٍ وسلسٍ، يكاد يخترق أعماقك وأنتَ لا تدرك، ولكني لم أفهم تلك الجملة قطُّ**».

«**لقد حلّلتها بنفسك من خلال كلماتك يا صديق الطريق، الحياة هبةٌ ولكنها لا تقبع في الخارج، إنها موجودة داخلنا، في أعماقنا، وكلّ ما علينا هو فقط اكتشافها، هذا كل ما في الأمر ولا أدّعي أن الأمر بهذه السهولة التي أتحدّث بها، ولكني أؤكّد لك أن أيّ شخصٍ سعى لاكتشافها سيجدها هناك داخله، ستجد مثلًا أن هناك بعض البسطاء الذين تملكهم السعادة والرضا على الدوام رغم أنف الظروف والحياة في الخارج، وذلك لسببٍ شديدٍ في بساطته ألا وهو أنهم نقبوا داخلهم، فاكتشفوا الحقيقة**».

«**هل أنت سعيدٌ يا كريستيان؟؟**»، كان السؤال بريئًا ومفاجئًا من نيلسون حتى إنّ كريستيان نظر له نظرةٍ متفحصة بأعينٍ زاغتْ فجأة، وأحسّ بأن أعوامًا كثيرة تقرر إجابة هذا السؤال، فما قيمة أن تلقي العظة وأنت في الحقيقة لا تملكها ولا تعمل بها؟! وما قيمة أن تعرف وأنت لا تستطيع أن تفعل شيئًا بمعرفتكَ؟! إنه الجحيم.

ابتسم كريستيان وشعر بدوارٍ مفاجئٍ يتسلّل إليه، نهض من مكانه واستأذن سريعًا من نيلسون، ثم وقف بين عربتين حيث أنعشه قليلًا الهواء البارد الخفيف، حاول تنحية أيّة أفكارٍ أو

ذكريات حتى لو كانت سعيدةً، لكن باءتْ كل محاولاته بالفشل، قال في نفسه: «**إنّ الاختلاط بالبشر يكاد يكون شيئًا مستحيلًا**».

أسئلة مرهقة تتكرّر، تفتح عليه مصاريع أبواب يتمنى كل يوم لو أن يغلقها، ولكنها تعود لتنفتح من جديدٍ؛ لتؤجّج حزنًا دفينًا، تخيّل للحظةٍ بأنه صار خامدًا، لكن الحقيقة بأن ذلك الخمود وهميّ. فإن طبقاتٍ وطبقاتٍ من الغضب والحزن تنتظر أسفله، تنتظر أن تثور، تكاد تثور، تتسلح وتغلي وتدوّي في أعماقه كاللهيب، والخوف كلّ الخوف من أن تطفو، حينها لن يستطيع إيقافها، لن يرغب في إيقافها؛ لأنّها ببساطة ستكون الشيء الوحيد الذي يعزّيه عن موتٍ يعيشه كل يوم، ما قيمة الحياة بلا سعادةٍ حقيقيةٍ؟!، العلم رائعٌ بكلّ تأكيدٍ، لكنه شيء مكتسب اجتهد سنوات وسنوات لم تخلُ من مرارةٍ وفشلٍ وإذلالٍ لتحصيله، ولكن أين هو من الحياة نفسها؟!، نقّب داخلَ نفسه مرات عديدة واكتفى بما وصل إليه، بأن حضوره إلى العالم يعني شيئًا لا يفهمه، لم يفهمه ويخشى بأنه لن يفهمه، تمنى في تلك اللحظة لو أنهم أقصَوه في أكثر البقاع وحشية؛ ليلقى مصيرًا وحشيًا ويموت في النهاية، عذاب لمرةٍ واحدةٍ خيرٌ من عذاب متكرّر كلّ يوم، وألم ساعةٍ خير آلاف المرات من ألم يطن ويئنّ داخله كلّ لحظةٍ وكلّ دقيقةٍ وكلّ ساعةٍ وكلّ يوم.

الحب والأمنيات لا يكفيان، لا يحققان الحياة والسعادة الوهمية التي طالما أظهرها على الملإ زائفةً حتى النخاع، هو كريستيان المنبوذ المسحوق منذ البداية، وخير مثال على ذلك الوجه الذي يرتديه، تساءل كريستيان للحظة في نفسه: «ماذا لو أنه خلع القناع وظهر ببساطة على حقيقته؟!، ماذا ستكون العواقب؟!، وإلى أيّ مدى سيثبت له العالم مدى فلاح الحبّ؟! مدّ يده بهدوء وأخذ قرارًا مترددًا؛ لينزعه عن وجهه، بلع ريقه بصعوبةٍ، وألقى نظرة خاطفة على نيلسون الشارد في أفكاره، أخذ نفَسًا عميقًا، وحين أوشك أن ينتزع القناع سمع صرخة بعيدة، صرخة أوقفَت الدماء في عروقه، تلك الصرخة قادمة من الداخل كما الحياة تمامًا التي لا يملكها.

9

إيما ريفز - عام ١٩١٣.

دوّت الصرخة كدويّ الرعد، ثم أعقبَتْها صرخةٌ أكثر دويًا من مربية تشارلي، وبكى الأخير الصغير مرتاعًا بين يديها، تحتضنه بكامل قوتها كأمٍّ رؤوم تدافع عن فلذة كبدها، جلستْ على الأرض رافعة يدها الأخرى وكأنها تدافع عن نفسها ملتصقة بالجدار خلفها مرتجفة خائفة، بينما وقف كريستيان ينظر لها مشتتًا ضائعًا محاولًا بشتى الطرق والكلمات المتلعثمة أن يهدّئها، ولكن مع كلّ كلمة تخرج منه ازدادتْ خوفًا واشتدّ رجفان جسدها النحيل، لم تكن المسكينة قد التقتْ بكريستيان، بل لم تكن تعلم بوجوده من الأساس، كان خطأ إيما التي هُرعتْ إلى داخل الغرفة لتجد الحال على ما هي عليه، فهمَت ما حدث من نظرة واحدة، حاولت أن تهدئ من روع الخادمة التي لم تهدأ ببساطة حتى انصرف كريستيان والحزن يجتاحه كعاصفةٍ، آلمه كثيرًا ما حدث واختلط

حزنه بالحنق وإحساسه بالإذلال، دلَف إلى غرفته سريعًا، ووقف أمام المرآة الكبيرة في غرفته الفسيحة وشرع يتأمّل ملامحه، بينما كلمات المربية يتردّد صداها في أعماقه المهشمة المغمورة بالأسى، «**إنه وحش، أنقذونا، أنقذونا، وحش دميم**».

جحظت عيناه متأملًا تلك العينين السوداوين المغطّيتين بجفون تنفر مَن يراها، وذلك الأنف المفلطح العريض الذي يحتل جزءًا كبيرًا من فمه، وذلك الرأس الكبير كالمربّع الذي يغطيه شعر بأسوإ صورةٍ ممكنةٍ، لقد أيقن كريستيان بأنه كبر الآن وكبرت معه دمامته، أي إنسان ذلك الذي يستطيع النظر إلى تلك الملامح؟!، شرع يتأمّل نفسه لفترةٍ غير قصيرة وكأنه يتأمّل ملامح إنسانٍ آخر، لا يعرفه، لا يُكِنُّ له أيّ نوع من الحب، ذلك الشخص الذي جعله منبوذًا وذليلًا وسجينًا ومحاصرًا بكل أنواع العذابات النفسية المرهقة، كبرت ملامحه كما كبر همُّه وأحس للحظةٍ بأن الموت نفسه سينأى عن أكل ذلك الوجه الدميم الذي لا يبغي أيًا كان في النظر إليه.

اقتحمت إيما الغرفة سريحًا لتجد كريستيان غارقًا في أفكاره مواجهًا للمرآة، أحزنها وآلمها ما حدث، اجتاحها اللوم حتى كاد ينتزع روحها من جسدها النحيل، اقتربتْ منه وبهدوءٍ وحنوٍّ حاولتْ لمسه، ولكنه سرعان ما نفر منها بمجرّد أن أحسّ بوجودها ثم مشى سريعًا، ووقف في ركن الغرفة موليًا ظهره لها مرتجفًا، أيبكي كريستيان؟!

نعَم، كان يبكي وبحرقةٍ شديدةٍ، ولكنه حاول بشتى الطرق أن تبقى دموعه مِلكًا له وحده، أن يبقى ضعفه في الظلام بعيدًا عن متناول كلّ مَن حوله، يكفيه تمامًا الإذلال ويكفيه الألم، حاولَتِ الاقتراب ولكنه بإشارةٍ حادّةٍ من يده استوقفها ولم يستدر لها، طأطأت إيما رأسها بعد يأسٍ وأحسّتْ بأنَّه على حقٍّ، وأيقنتْ في داخلها أنّه كما كبر كريستيان فقد كبر معه عقله ووجدانه، فلم يعُدْ ذلك الطفل الذي تهدهده الكلمات والمعاملة الطيبة، لقد أضحى كريستيان مراهقًا لن يبتلع الطُعم بسهولةٍ، سيثور على كل شيءٍ بداية على نفسه ذاتها.

لم تكد مخاوف إيما تأخذ وقتًا طويلًا حتى جاءها كريستيان في يوم مطيرٍ طالبًا منها أن يذهب إلى المدرسة، ففي أيام كثيرة جلس فوق قمّة المنزل يرى من بعيد المنازل، وكم من مرةٍ لمح عددًا من التلاميذ في عمره يذهبون إلى المدرسة وتمنى في أعماقه لو أن يشاركهم!، فقد اكتفى من معلّميه في المنزل تمامًا، لم يعد لديهم ما يقدّمونه له، لم تعرف إيما بما تردّ واجتاحها القلق وساورها الشكّ في أن كريستيان يفكر في الهرب، ولكنها نحَّت الفكرة الأخيرة تمامًا، وأحسّت بخوفٍ رهيبٍ.

المدرسة!

أيّة مدرسةٍ؟! وإلى ماذا يسعى المسكين؟!، أيسعى إلى قتل ما تبقّى منه؟!، أينهي حياته قبل أن تبدأ؟!، كيف سيعامله المدرسون؟!، وكيف سيتعامل معه زملاؤه في المدرسة؟! هذا

إن قبلَتْه المدرسة من الأساس!، مجرد التفكير في الأمر أصابها بالغثيان والكدر، وجافاها النوم، وأوهنها التفكير لأيام طويلة، وكريستيان لم يتوقّف عن طلبه بإلحاح رغم جهودها الحثيثة في تنحيته عن تلك الفكرة لكنّها يئستْ في النهاية أمام طلاقته في الحديث وثقته في نفسه وعلمه وحزنه الشديد وتعنُّته الذي أصابه.

يدرك كريستيان تمامًا أنّ تأثير إيما على زوجها نيلسون هو الشيء المطلوب، فلن يقبل نيلسون حتى مجرّد الحديث في الأمر إن تجرّأ وفتحه أمامه، فطن إلى أنّ الأمر كله بيد إيما، ألقى الأمر على كاهلها، ادّعى أحيانًا المرض والحزن بمكر شديد؛ ليقنعها بطلبه حتى استجابتْ له في النهاية، ووعدَتْه بأن تتحدث إلى دكتور نيلسون.

لأوّل مرة منذ دخوله إلى هذا البيت يسمع كريستيان زعيق دكتور نيلسون بهذا الشكل المخيف والمفزع، كان مهتاجًا وغاضبًا حتى إنّ كريستيان الذي جلس على درجات السّلّم داخل المنزل يسترق السمع، اقتحمه الخوف فنهض من مجلسه يجري تجاه غرفته ووقف في مواجهة المرآة التي أضحَتْ صديقه الوحيد في هذا العالم، في الحقيقة لم تكن المرآة صديقًا، بل كانت عدوًا يذكّره بمدى دمامته وبشاعته، أحيانًا ما تحدّث إليها، وأحسَّ مع الوقت بأنّها تتحدث إليه، رغم خوفه الشديد إلّا أنه في المرآة كان صلبًا وجلدًا ومهيبًا، تعجب كريستيان للحظةٍ وهو يتأمل نفسه وسأل مرآته عمَّن يكون في الحقيقة؟! المرتجف الهلع في الحقيقة

أم ذلك المهيب في المرآة؟! انتزعه من أفكاره وتساؤلاته دلوف إيما عليه الغرفة وقد علا وجهها كدر، أشفق على حالها وتمنَى لو أن يستطيع أن يسرّي عنها، ولكنه بطبيعة الحال لا يستطيع حتى أن يسرّي عن نفسه، لم تتكلم إيما للحظاتٍ وهي ترمقه شاردة حتى قالت بهدوءٍ وحزنٍ يشوب نبرة صوتها «**سنقيم حفلة قريبًا في المنزل؛ لنعرّف المجتمع على تشارلي وفي تلك الحفلة سنقدمك إلى الناس**».

كانت تلك الكلمات كافيةً لأن تسعد كريستيان إلا أنَ الحزن الساكن في عينيها أوجسه، لقد نجحَتْ إيما في مسعاها بشكلٍ كافٍ فماذا هناك إذن؟!، رجّح الأمر في البداية لتلك المشاجرة بينها وبين دكتور نيلسون، لكنه أحسَّ بأن هناك شيئًا آخرَ مع اختلاج عينيها، هي عادة لا إرادية لدَى إيما، تختلج عيناها كلما شغلها أو كدّر صفوها أمرٌ ما، وانتظر لوهلةٍ طويلةٍ أن تكمل إيما حديثها، كان لديه من البراعة أن يمسك عن كلماته وأفكاره لمعرفته المسبقة بأن الصمت لديه قدرته البارعة في انتزاع الأسرار من جوف محدّثيه، وقد كان حيث قالت إيما وهي تقترب منه وربتتْ عليه بحنوٍّ صادقٍ: «**كريستيان، تعلم تمامًا كم أنا أحبكَ، وتدرك أيضًا مدى اهتمام دكتور نيلسون بكَ، حتى وإن أحسسته فظًا ضيّق الصدر إلا أنّكَ موقن في أعماقكَ بأنه يحبّكَ هو الآخر، ولكن لكلٍّ طريقته في التعبير عن مشاعره، لقد حدثتكَ مرارًا عن هذا الأمر، وأدرك بما لا يقبل الشك أنّ لديك العقل الذي يفوق**

عقلي؛ لتفهم الأمر كاملًا وتستوعبه. ولكن المشاعر الإنسانية شيءٌ صعبٌ ومعقّد، حتى رجل هَرِمٌ طاعنٌ في العمر والتجارب لن يستطيع فهم المشاعر الإنسانية، وأنا أقول لكَ وبصدقٍ: إنَ تلك التجربة التي تشرف على اجتيازها ليستْ صائبة، وأعرف أيضًا أنك لن تتنحّى عن قرارك»، وسكَتَتْ للحظاتٍ تأخذ نفَسًا وتجمع أفكارها»، لكن عدْني يا كريستيان الآن بأنكَ لن تسلّمَ نفسكَ للحزن مهما حدث ولن تيأس مهما حدث، وأن تظل كما أنت محبًّا طيبًا وخلّاقًا كما عهدتكَ. عدني بألا تحرقكَ مشاعر البشر الآثمة». وفجأة انهارَتْ إيما باكيةً وهي تحتضنه. تعجَّب كريستيان لوهلة ثمَ ربَتَ عليها متردّدًا وقد اجتاحه حنانٌ عظيمٌ وألمٌ هائلٌ، وشكٌّ أطار النوم من عينيه لأيام طويلة كان يتم خلالها الإعدادات والتجهيزات الخاصة بالحفل الذي ربما سيكون نقطة تحوّلٍ في حياته.

مفتش شرطة سكوتلاند يارد - عام ١٩١٣

تشارلز كافنديش.

دَعا نيلسون كافنديش لحضور الحفل مقتضبًا وقد بدا عليه الشرود والتيه. خالج كافنديش شعورٌ بالحزن وأقعده الأمر لساعاتٍ طويلةٍ مفكرًا في أمر الحفل، لم يرَ كافنديش كريستيان إلا لمرات نادرةٍ منذ آخر مرة حين تبرّأ منه أهله. لكنه كان يسمع أخباره إن

سمح الأمر بذلكَ، وحين يكون مزاج نيلسون رائقًا، وفي الحقيقة كان ذلك نادر الحدوث، علم أيضًا حين دعوته بأنّ كبار عائلات لندن ستكون موجودةً بالحفل؛ لتلتقي سليل ووريث عائلة ريفز العريقة، السؤال الجوهريّ هنا، هل كان هناك أحدٌ آخر يعرف بوجود شخص غريب في منزل ريفز؟!، أو بالأدقّ هل كان هناك مَن يعلم بوجود كريستيان في محيط العائلة؟!، في الحقيقة نعَمْ، كما روينا سلفًا بأنَ الخدم مهمّتهم الأولى هي الثرثرة، وحين يثرثر الخدم تنتشر الأخبار كالنار في الهشيم، لكن مَن يتجرّأ على سؤال دكتور نيلسون في أمرٍ شخصيّ كهذا؟! إنَ الرجل صارمٌ بالدرجة التي تجعله يلقي مَن يتدخَل في شؤونه من أعلى تلٍّ في البراري، بل ويحرقه إن وصل الأمر لذلك، ودعنا لا ننسى حالته النفسية الجديدة والغريبة التي أضحَتْ جزءًا أساسيًّا من تركيبة شخصه المحيره والمتبدّلة على الدوام.

لكن ذلك الأمر لم يجعلهم ينصرفون عن ذكر المخلوق الغريب في منزل دكتور نيلسون في خلواتِهم، بل يدّعون أنّ الطفل يُعَدُّ تجربةً فريدةً من نوعها يمارسها دكتور نيلسون في الخفاء، تجربة علمية مميزة ولكن مع الوقت انتبه عددٌ كبير منهم أنّ الأمر يتعدى ذلك التصوّر وأنّ الطفل ربّما يُعَدُّ طفلًا بالتبنّي، ولكن السؤال الذي حيّرهم بشدةٍ: ما الذي يدفعه للإبقاء عليه إلى الآن إن كان الله قد رزقه بمولودٍ بالفعل؟!، وكيف سيكون حال الطفل الصغير في وجود وحشٍ كهذا؟!، لقد أثار الأمر استياءهم، بل

ادّعى بعضهم تهوّر دكتور نيلسون وعدم عقلانيّته، أما السؤال الذي حيّر كافنديش حينما فكر بأمر الموضوع ككلٍّ ومن زاوية أخرى حيث كان يعلم بأنّ نيلسون قد أتم واجبه تجاه كريستيان وصار الطفل صبيًّا متعلمًا ومميزًا كما يدّعي بالإضافة إلى الصبي الجديد الذي رزقه الله به، ما الذي يرغب فيه نيلسون حقًّا؟! ما الذي يضمره في نفسه ويخفيه عن الجميع وكان سببًا في تحوّله الغريب منذ ظهور الطفل؟!

على كل حالٍ تأهّب كافنديش لحضور الحفل بكامل حليته، بدا مَهيبًا في تلك الليلة وهو يركب العربة الجميلة التي تجرّها أربعة خيول صغيرة قويّة عالمًا في نفسه أنّ تلك الليلة لن تمرّ على خيرٍ، وسينقلب الحفل جحيمًا.

استطاع كافنديش حين وصوله إلى باحة المنزل الخارجية أن يسمع الصّخب الناتج عن الحفل في الداخل، بينما صدى موسيقا الفالس والضحكات المرحة المختلطة تأتيه جليّةً مع إيقاعات التصفيق المصاحبة للرقص، ترجّل من عربته ورمق المنزل العتيق كقلعةٍ قديمةٍ بشيءٍ من الفخار، بل أحنى رأسه احترامًا لجلال تلك العائلة النبيلة، وانطلق في طريقه مارقًا الطرقة الطويلة التي تزيّنها أشجار صغيرة وجميلة على الجانبين عالمًا أنّ هيبة ومكانة دكتور نيلسون لن يحولا عمّا سيحدث تلك الليلة، بدا عليه بعض الاضطراب وأضمر في نفسه نيّة مؤازرة دكتور نيلسون المسكين الذي ربما ستتصدّى سمعته لأسوإ كابوس سيمرّ به على مرّ حياته،

أحزنه ذلك بل جعله منفعلاً فدلفَ سريعًا ليجد دكتور نيلسون واقفًا بثباتٍ وقد ارتسم البرود في عينيه وهو يستقبل الوافدين على منزله، وحينما التقى به انحنى له في احترامٍ ورمقه بنظرةٍ مواسيةٍ فابتسم نيلسون ابتسامة حزينة باهتة لا تكادُ تُلحظ حملَتْ كل المعاني الممكنة التي يجيش بها قلبه، وتساءل كافنديش في نفسه وهو يحيّي اللوردات ورجالات الحكومة البارزين وغيرهم من العلماء والأطباء المرموقين عن كُنْه الحفل، وهل كان نيلسون ضعيفًا فعلًا حتى لا يستطيع منعه أم أن هناك شيئًا آخر يضمره في نفسه؟! ثم قرّر في نفسه أنّ الأمر يُعَدُّ رغبةً نسائية سوداء غلبَتْ صرامة نيلسون بكل بساطة، إنّها إيما، ولا سبب غيرها.

استطاع كافنديش أن يلمح رجلًا ذا قامة قصيرة، ضئيل الحجم، شاع في رأسه الشيب، له نظرة ماكرة ومخيفة، وعلى سحنته ارتسم تعبيرٌ غامضٌ، يرتدي عوينات لها سلسلة متصلة بسترته الأنيقة، ويمسك بيده غليونًا مميزًا وينفث سحاباتٍ من الدخان بكبرياء واضح، يتجمهر حوله مجموعةٌ من العلماء البارزين في إنجلترا، أوليفر ساكس عالم الأحياء الطبيعية الشهير، وآلن ميلنير العجوز عالم الكيمياء الحيوية وفيكتور كريك عالم الجيولوجيا الذي تسبّب في سخط الكثيرين في الآونة الأخيرة بسبب نظريته عن كينونة كوكب الأرض، بدا له الأمر محيرًا للغاية ومدهشًا أيضًا، فمَن يكون ذلك الرجل القصير غامض الهيئة؟، ولمَ كلّ ذلك الاهتمام به؟! نقل بصره على نيلسون فوجده يرمق

الجمع بنوع من الاستياء وإن كان ما يراه كافنديش حقيقيًا فقد بدَتْ أيضًا لمحةٌ من الكره يسدّدها نيلسون تجاه الرجل، تكاثرت التساؤلات داخله فقرّر أن يقترب من الجمع دون إحداث جلبةٍ، اقترب منهم كافنديش بشكلٍ لا يلفت الانتباه، وتوقّف على مقربة منهم بحيث يمكنه استراق السمع وادّعى مجاراته للموسيقا والرقص، فسمع أحدهم يقول: «**السيد فرنسيس هورسلي يريد أن يغزو العالم برؤيةٍ تكاد تكون مستحيلة!**»، فقهقه الجمع بينما قال أحدهم بصوت عميقٍ: «**أنت من بين الجميع يا فيكتور يجب أن تصدّقني، فنحن الاثنان ببساطة يجمعنا نفس الجنون**».

تعالَت الضحكات فسمع آلن ميلنير العجوز يقول بنبرته البطيئة الحكيمة: «**أنت تريد يا فرنسيس وببساطة غريبةٍ أن تقول بأننا لا نموت!، إذن لماذا صُنِعت التوابيت وحُفِرت القبور؟!**».

توقف الجميع عن الضحك وتعلقت الأنظار بذلك القصير حتى إنَّ كافنديش لم يستطع الادّعاء أكثر من ذلك، وسدّد نظرةً تجاه فرنسيس منتظرًا الإجابة، فالتفت الأخير تجاهه وسدّد له نظرة غريبة ومخيفة وكأنّه يتحدث إليه ثمّ قال مجيبًا: «**التوابيت والقبور للأجساد الميتة، والخلود للنفوس، آمنتَ بذلك أم لم تؤمن**».

سادت ضوضاء احتجاجيّة، وتداخلتْ آراء، ولكن النظرة المتبادلة بين فرنسيس وكافنديش لم تنتهِ بعدُ، فأجفل الأخير متلعثمًا ونظر أمامه مستغربًا نفسه وبذلك الخوف الغامض الذي تسلّل إليه، لم يكن يعرف ذلك الخوف ناتجًا من نظرة الرجل

الغريبة أو إجابته الأكثر غرابة! نقل بصره مرة أخرى تجاهه فوجده يبتسم بهدوءٍ يدخن غليونه مستمتعًا ومستغرقًا في الحديث وكأنَّ شيئًا لم يكن..

غشيته لحظة غيبوبة لمجرّد تصور ما قد يحدث لو صحّت أقوال هذا العالم المجنون، ولكن قاطع أفكاره توقُّف إيما على أعلى درجات السلم كأميرة فتوقّفت الموسيقا والرقص والتفتَ الجميع إلى السبب، تبدّت في أفضل حالاتها، جميلة ومشرقة ومفعمة بالحياة، غالب الموجودين في الحفل لم يروها منذ فترةٍ طويلةٍ لانشغالها وقد جاشَت صدورهم بالحنين إلى جلساتها وآرائها النافذة والصريحة، لم تتكلّف إيما يومًا في إبداء رأيها ولم تُهادن أحدًا لمجرّد أن تُرضي غروره، فما يعتمل في صدرها يعبّر عنه اللسان كجريان نهر التايمز، لا يمنعه شيءٌ أبدًا، انحنى الجميع تباعًا لها وهي تمرق بينهم والابتسامة تعلوها، بينما تتّقد عيناها بوهج المحبّة وتومئ برأسها من حين لآخر بشيءٍ من الخجل والثقة في آنٍ واحدٍ، لكن كافنديش لمح تعبيرًا لا يكاد يُلحظ في عينيها، لقد كانت إيما وبيساطة خائفة، وانتقل ذلك الخوف سريعًا إليه.

رحّبت إيما بلباقة بكل المدعوين إلى الحفل، وأخبرَتْهم بمدى سعادتها لرؤياهم مرة أخرى، وأعربتْ عن مدى اشتياقها لهم وأكّدت لهم أنّها لن تغيب أبدًا كالسابق، كان في صوتها رنّة تبعث على الحياة والتفاؤل والتصميم، لكن كافنديش أحس بلذعةٍ في صوتها تعكس مرارةً يجيش بها صدرها، هتف أكثر من شخص

طالبين رؤية الصغير، فابتسمت إيما ابتسامة متوترة، وبالفعل ظهر تشارلي داخل عربة صغيرة مزدانة بالورد تدفعها خادمةٌ جميلةً صغيرة السن، بدا الطفل جميلًا ورائعًا يجمع ما بين ملامحها وملامح عائلة ريفز، قلّب كافنديش نظره في الحاضرين باحثًا عن نيلسون الذي لقاه واقفًا في الركن جامدًا كتمثال يسدّد نظرةً ثابتةً على ما يحدث وقد اعتلاه غموضٌ غريبٌ، ربما توجّس أو ترقّب.

بارك الجميع الطفل وأثنوا عليه وتمنّوا له حياة مديدة هانئة ومستقبلًا لامعًا في إنجلترا كلّها حاله حال عائلته، وجاءت اللحظة التي خشيها كافنديش حينما انتقلتْ إيما لتقف مرّة أخرى على أعلى درجات السلم وصوّبت تجاههم نظرة اختلط فيها التردّد بالتوجّس، اعتدل كافنديش في وقفته متأهبًا وألقى نظرة سريعة على دكتور نيلسون الذي لم يتزحزح من مكانه ولم تتغيّر سحنته فسمع إيما تقول: «**أعلم أنّ الكثيرين منكم سمعوا بطفلنا الآخر، وقد كثرت الإشاعات حول هذا الأمر، لقد أثار الأمر حفيظتي لكن لا بأس، فالفضول قد يجرفنا للهاوية**»، سكتت وساد سكونٌ مقبض وصمتٌ كصمت القبور، استجمعت إيما شجاعتها ثم قالت: «**والآن أيّها السادة أقدّم لكم ابننا بالتبني واسمه كريستيان، وأرجو منكم أن ترحّبوا به كما ينبغي، وكلّي ثقة بأنكم لن تخيّبوا ظني**»، لم تجد إيما ما تضيفه فاكتفتْ بذلك متلعثمة، وقد وضح في عينيها ترقّب يشوبه الخوف، سرى همسٌ مضطربٌ بين الحاضرين. وجاشتْ مشاعرهم بالترقّب

والفضول وتساءلوا في أنفسهم عن حقيقة الإشاعات التي ستنقشع الآن بمجرد رؤية الصغير الذي كثرتْ حوله الأفكار المضطرمة، وأحاطت به هالةٌ غامضةٌ لا يعرف أحد مدى صحتها.

نظرت إيما نحوه وأومأت له برأسها، كانت الستائر على جانبي السلم تخفيه تمامًا، وبدا من حركاتها أنه يأبى الظهور أو يخشاه، لكنها مدّت له يدها وأمسكتها ثم بهدوءٍ ظهر كريستيان مطأطئ الرأس، وقد ازداد طولًا وقوة وبدا في حلة كاملة رائعة، لكنه حين رفع رأسه وواجه الجميع بوجهه، أظلم فكرهم وخفقت قلوبهم، ظنّ البعض منهم أنها مزحة ثقيلة، ساد صمت مطبق ثقيل وموحش وحاول مَن لم ير كريستيان أن يجد مكانًا وسط الحشد؛ ليتأكّد ما رآه الجميع، سرتْ همهمةٌ بين الحاضرين، وارتفعت الأصوات قليلًا حتى تحوّلت الهمهمة إلى دمدمة وتعبيرات تعكس مدى استيائهم، وقف دكتور نيلسون يتأمّل ما يحدث في هدوء، وقد أمسك بكأس من الفضة في يده دون أن تمسّها شفتاه.

صاح أحدهم: «**هل ما نراه حقيقيّ؟!**».

وصاح آخر: «**بحقّ الله، أيّ نوعٍ من غضبه نال من هذا البائس؟!**».

وردّ آخر: «**إنه مسخٌ**».

وعلقتْ أخرى: «**بل إنّه وحشٌ دميمٌ**».

وتوالت التعليقات الجارحة والمسيئة حتى كادت تنال شخص دكتور نيلسون نفسه الذي صاح فجأةً بصوت ثابتٍ وقويّ: **«أيها السادة، لقد انتهى الحفل، يمكنكم المغادرة الآن».**

أعرب الجميع عن استيائهم وغادروا تباعًا وقد سرى بينهم خوفٌ وشعورٌ بالإهانة عمّا حدث داخل أسوار هذا المنزل، وبقي كافنديش وحده يتابع الجمع المنصرف ويستمع إلى تعليقاتهم المهينة حيث وقف في الركن وحيدًا وقد انسحب الجميع أو كاد عدا رجلٍ واحدٍ ذي قامة قصيرة، ضئيل الحجم، شاع في رأسه الشيب، له نظرة ماكرة ومخيفة وعلى سحنته ارتسم تعبير غامض، يرتدي عويناتٍ لها سلسلة متصلة بسترته الأنيقة، فرنسيس هورسلي، ذلك الرجل المخيف، بحركات محكمة من رأسه ألقى نظرة على كريستيان الذي كان يبكي صامتًا دون أن يستطيع حتى الهرب، بينما إيما تواسيه بكلّ ما استطاعتْ من قدرةٍ باكية هي الأخرى، والغريب أنها لم تحرك ساكنًا؛ لتنقذ الموقف، ثم ألقى نظرةً ماكرةً على دكتور نيلسون الذي لمحه فسدّد إليه نظرة عدوانية، وحينها عرف كافنديش أن ذلك الرجل يضمر شرًا لنيلسون، فتحفّز في مكانه وتابع الأمر حيث وضع الرجل الكوب بهدوءٍ في مكان على الصوان بجانبه، ثم اتجه إلى دكتور نيلسون وأزاح غليونه جانبًا، ثم اقترب منه بهدوءٍ وهمس بشيء ما، ثم ابتسم ابتسامة خبيثة وما لبث أن غادر ودخان غليونه يرسم حوله هالةً غامضة،

رمقه دكتور نيلسون بنظرة منزعجة مفعمة بالغضب حتى غاب عن الأنظار، وقف نيلسون مطأطئ الرأس مفكرًا فاقترب منه كافنديش ولم يعرف ماذا يفعل أو يقول؟! حين أحسّ به نيلسون رفع رأسه وألقى عليه نظرة طويلة وتفاهما على ضوء نظرة دون أن ينبس أيّ منهما ببنت شفة، انحنى كافنديش بهدوء وقد اعتراه الحزن لأجل نيلسون ثم انصرف.

في طريقه إلى منزله غالبَتْه الكثير من التساؤلات وأرّق نومه استعادة ذكرى ما حدث حتى إنّه نهض من فراشه وجلس في غرفة مكتبه يفكّر، في الحقيقة إنّه لم يكن يفكر بأمر كريستيان وما حدث في الحفل؛ لأنّه تكهن به، وللصدق إنّ ما حدث يُعَدّ أفضل ممّا تخيله، لكنه كان يفكر بأمر ذلك الرجل القصير، فرنسيس هورسلي متسائلًا عن هويته، فهو لم يلتقِ الرجل يومًا، وبحكم خبرته الكبيرة وذاكرته القوية يستطيع أن يتذكر ذلك الاسم جيدًا، لقد تذكّر أخيرًا، إنه العالم الذي ينعته الجميع بالعبقريّ المجنون في الخفاء والذي كان سببًا في إخفاق مساعي دكتور نيلسون في أمورٍ ونظريات علمية متعددة حيث أثبت فشله وضيق أفقه في أكثر من مناسبة وعلى الملإ، أحسّ بما لا يقبل الشك أنّ ذلك الرجل يضمر الشرّ وسيسبّب المشاكل؛ لذا فكر جديًّا في جمع معلومات أكثر عنه، وعلى جانبٍ آخر فكر في نيلسون الطيب ومدى ألمه وما سيحيق به من أذى، وأجزم أن ما حدث سيصبح

حديث لندن كلها لفترة غير قصيرةٍ، والآن ومع كل ذلك ومع كل ما حدث وتلك السنين التي خلَتْ، ماذا يمكن أن يحدث أسوأ ممّا حدث؟! ذلك السؤال ومن واقع الحياة التي عاشها كافنديش أجزم بأن ما حدث لا يمثل شيئًا أو يُقارن أبدًا بما سيحدث.

10

وقف كريستيان داخل القطار يحدّق في السماء القاتمة من خلال النافذة بجواره متأملًا سنين خلَتْ من حياته المزدحمة بالتفاصيل، يتابعه بحماسٍ نيلسون الشاب – صديق القطار – في هذه اللحظات بينما الفضول يعتريه بشأن ذلك المسافر الغامض، كريستيان نيلسون ريفز، الاسم لم يكن غريبًا عليه، فقد سمع عن إنجازات دكتور نيلسون ريفز في مجال الأبحاث حول الجينات وتطوّر الإنسان وهيئته على مرّ العصور، لكن ذلك الشخص الواقف في مواجهته الآن لا يبدو من هيئته المشكوك فيها وغموضه الغريب وتكتمه المبالغ فيه أنه ينتمي لتلك العائلة العريقة بأيّ شكلٍ من الأشكال، ولكن العجيب في الأمر أيضًا وعلى عكس ما تبرزه هيئته كان يحمل من المال ما يكفي ثلاثة أسرٍ لمدة سنة كاملة، كما أنّ حكمة الشاب طاغية رغم كلماته المعدودة التي انترعها منه انتزاعًا كلما سنحَتْ له القدرة على فتح موضوعٍ يسترعي انتباهه أو شغفه.

مرت في تلك اللحظة فتاةٌ عشرينية جميلة مخترقة بثقةٍ الممرّ الطويل الفاصل بين المقاعد داخل القطار، فمال كريستيان قليلًا بعينيه ناظرًا تجاهها، ثم ابتسم ابتسامةً باهتةً انتهَتْ بعبوسٍ غريبٍ شوّه خلقته، ولم يمرّ وقت طويل حتى غامَتْ عيناه في الذكريات.

⌛

«كريستيان الدميم.. كريستيان الدميم..» كانت صيحات الأطفال لا تقلّ عن نباح كلاب مستعرة في أذني كريستيان، لاحقَتْه وحاصرَتْه من كلّ صوبٍ ودربٍ، بينما يجري في فناء المدرسة هربًا بكل ما أوتي من قوةٍ، ورغم ذلك لم يتوانوا عن ملاحقته، بل ورشقه بالحجارة أيضًا متسبّبين له بكل أنواع العذاب والقهر والنفسي إلا أنه وفي لمحةٍ غريبةٍ أو ربما مسحة إلهية رحيمة ظهرت من العدم، لويزا، الفاتنة لويزا؛ لتقف حائلًا بينه وبين بقية الأطفال في المدرسة، صاحَتْ فيهم، هاجمتهم بضراوة، وبّختهم ولعنتهم، بل رشقتهم بالحجارة حتى اضطروا إلى الفرار، لم تكن لويزا إلا تلميذة في نفس عمر كريستيان البالغ ١٤ عاماً في هذا التوقيت، ربتَتْ عليه بعد تردّد وابتسمت في وجهه ابتسامة حانية دون أن تدير عينيها عن وجهه الدميم.

«إنك تنزف دمًا، سأصطحبكَ إلى مكتب الرعاية الصحية بالمدرسة، انهض» قالت لويزا بصوتٍ ودودٍ لا يخلو من جديّة.

ما زال كريستيان يرتجف بشدّة والدماء الحارة سائلة على جبهته، ولكنه حينما دقّق النظر في وجهها شعر بأن شيئًا غريبًا لا يعرف كُنهه ولا كينونته، وبسرعة ضربات البرق الخاطفة غير المتوقعة يطوّقه، يحاصره وينسلّ بخفةٍ متسللًا إلى داخله ليملأه، لم يكن شيئًا مزعجًا، بل كان رخيمًا رقيقًا كدفقات نسائم الربيع حتى إنّه تمنى لو أن يستمر هكذا وللأبد.

⌛

«احترس من الجميلات يا عزيزي، إنهنّ نورٌ ونارٌ» ابتسم نيلسون الشاب ابتسامة ذات مغزى وهو يحدّق في كريستيان، بادله بدوره الابتسامة وهز رأسه موافقًا.

«لم تقل لي ماذا تدرس؟!» كان نيلسون الشاب متطلّعًا للإجابة بشغفٍ.

«أدرس الحياة من باب الأحياء» كانت نظرة كريستيان ثابتةً ومخيفةً في تلك اللحظة حتى إنّ نيلسون الشاب اكتفى بهزة من رأسه وانكمش على نفسه، نظر كريستيان تجاه المكان الذي ذهبَتْ منه الفتاة ثم طأطأ رأسه وزمّ شفتيه.

⌛

لا أحد يعلم الحقيقة بالتحديد أو ماذا حدث؟! لكن تلك الليلة من الليالي القليلة التي كان لها تأثيرٌ جذري وعميق في حياة

كريستيان وحياة مَن حوله أيضًا، كان هذا اليوم أحد آحاد عام ١٩١٤، عاد كريستيان في هذا اليوم يجري كالمحموم وعلى وجهه لطخةٌ داميةٌ تسيل منها الدماء حارّة، بينما هناك هالة زرقاء حول عينه اليسرى مما زاد مظهره المتوحش توحشًا، بدا ككائن من عصر عتيق تتقاتل فيه الكائنات من أجل البقاء، ولا يوجد سوى طريقة واحدة لاستكمال الحياة، طريقة واحدة لإعلان النفوذ والقدرة، الحرب، الحرب بمعناها المجرد الدموي، تلك الكلمة بكل معانيها ومشتقاتها أضحَتْ جزءًا لا يتجزّأ من حياة كريستيان منذ عرف معنى العالم في الطوابق العلوية بعيدًا عن القبو والعالم السفلي.

أحيانًا في خلواته ما اعتقد أن الحياة مجرّد مزحة ماسخة أو حكاية هزلية كتلك التي لم يستمتع بها قطُّ رغم أنّه ليس هناك أيّ حكاية هزلية بلا توجيه أو هدف لطريق معين، ولكن الحقيقة مخزية بالفعل، بائسة وحزينة، طالما ارتبط العالم السفلي والأقبية والقبور بالظلام والعتمة الإنسانية، فالعالم المختفي أسفلنا يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ تلك الواجهة التي تحدث عنها الأديب المصري الراحل يوسف عز الدين عيسى في روايته الشهيرة التي حملَتْ نفس الاسم، ويشبه أيضًا إلى حدٍّ كبيرِ الحجرة الذي قُذفَتْ فيها أَليس قبل أن تجوب رحلتها في بلاد العجائب، الحقيقة أنّ مسخ دكتور فرانكنشتين أيضًا خرج من أوج ذلك الظلام، إلا أن الأمر مع كريستيان كان مختلفًا تمام الاختلاف، ففي القبو عرف

كريستيان كما ذكرنا سابقًا معاني كثيرة جميلة ناهينا عن الآلام والمعاناة التي تلقّاها على يد أبيه، فلم تكن تعتبر شيئًا بما لاقاه بعد ذلك، في الحقيقة لم تكن سوى تأهيل غير مُجدٍ لملاقاة العالم في الدرجات العلوية، في النور المتشبع بكلّ قاذورات الإنسانية العفنة الكثيرة المتشعبة.

⌛

حينما ذهب كريستيان إلى المدرسة بصحبة دكتور نيلسون لأوّل مرةٍ بعد صراعٍ مريرٍ - وبعد ذلك الحفل الذي حفر داخله ألمًا لن يعالجه أيّ ردم من أي نوع علم أن عقله هو الجوهرة الثمينة والوحيدة التي يملكها - أيقن بأنه سيفتح على نفسه أبواب الجحيم ولكن لتكوِه النّار وتشوِه؛ ليوقن أن لا أحد سينقذه إلا نفسه، تذكر كلمات الكفيف وحلم به أكثر من مرةٍ قبل أن يغيّبه النوم عن حزنه العميق، حلم في غفلةٍ بحياة أفضل في ظل المدرسة والاختلاط بمَن هم في مثل عمره ولكن ناوشَتْه الأفكار السوداء وتشبّثت به؛ لتوقظه من غفلته، ورغم ذلك أصرّ على الاستمرار، هل رغب كريستيان في منح العالم فرصةً أخرى؟! أم كان يمنح نفسه شقاءً آخر؛ ليعزّز الآلام داخله بآلام أخرى وليكبح الآمال الاجتماعية التي طالما ناوشَتْه؟!، ما الذي دار في نفسه ليقاتل من أجل الخروج؟!، وأيّ نفسٍ تلك التي تتوق للعذاب والهوان؟!، ربما يكون الأمر كله مرتبطًا بتلقّيه للعلوم، توّاقًا لمعرفة المزيد،

نهمًا لثورة علمية، كل تلك الأسباب جميلة، ولكن كان هناك سببٌ آخر.

تلك الليلة حينما قرع باب مكتب دكتور نيلسون ولم يأته ردٌّ كالعادة، تلفّت حوله بحذرٍ، فلم يجد ثمّة إنساناً حوله، فاقتحم المكتب ظنًّا منه أن يجد دكتور نيلسون، وحينما وجد المكتب خاويًا تأهّب للانصراف، ولكنه وجد كتابًا مفتوحًا، لم يكن ليسمح له فضوله أن ينصرف فألقى نظرةً حذرةً على الكتاب فوجده ممتلئًا بصورٍ تفصيليةٍ للجسد الإنساني ومكوناته، سرَتْ رعدةٌ في جسده وهو يلقي نظرةً على وجه الإنسان المرسوم حيث رُسِم سهمٌ بجانب كلّ عضو يشير إلى تركيبته وتكوينه ويشرح بدقةٍ الأمور والوظائف الخاصة به، نسي نفسه تمامًا حتى انتزعه من داخل أفكاره وجوم دكتور نيلسون الواقف في مواجهته، خشي أن يعنّفه كما يعنّف أيّ شخص يدلف إلى مكتبه دون إذنه، ولكن بدا على دكتور نيلسون الحذر والتفكير العميقان، وقد زيّلتْ ابتسامة باهتة وجهه، أخذ الكتاب بهدوءٍ من بين يديه ولم ينبس بكلمةٍ واحدةٍ، ثم أشار لكريستيان بالانصراف الذي هرع إلى الخارج خائفًا وأفكار وتساؤلات شتّى تطوف بعقله المتّقد.

لم يمرّ يوم إلا هاجمته فيه التساؤلات حتى غشيه الانفعال، فذهب لملاقاة دكتور نيلسون؛ ليحدثه عن الأمر، وبدا الأخير يائسًا أمام كمّ أسئلته اللا منتهية، وأيقن في نفسه أن تلك هي بداية كريستيان الحقيقية في عالم العلوم وبداية نهايته أيضًا، لم يكن

باستطاعته إيقافه لعلمه المسبق كرجلٍ محنكٍ وعالم بالحياة بأنه من المستحيل منع الماء عن ظمآن متمرِّد، منبوذ من الحياة، فأجابه بقدر معرفته والحزن يعتريه ويمزق قلبه، إن كريستيان يبحث عن المستحيل، عن الشيء الذي بحث عنه لسنواتٍ طويلةٍ من أجل تغييره بلا جدوى، الشيء المرهق الذي أوهن صحّته وشتت فكره وأعاق كبرياءه كعالِمٍ وسحقَه تحت عجلات الفشل، ذلك المستحيل هو كريستيان بوجهٍ آخر، وجه بلا دمامة أو توحّش.

انكفأ كريستيان بعدها على علوم الأحياء، يدرس بنهم ويفكر بلا راحةٍ، ويجوب المكتبة الكبيرة والعامرة لعائلة ريفزَ باحثًا عن مبتغاه، لكنه من وقتٍ لآخر كان يتوقّف أمام صلابة المجهول وتعنّته وأيقن بأن المدرسة سترسم له سبيلًا ولو طفيفًا لإيجاد بعض الإجابات، كما أنه أيقن بأنه يحتاج إلى الرياضيات بشكلٍ أوسع وأشمل ممّا درسه في المنزل، ولذلك كان الصراع والقتال من أجل تحقيق المأرب الذي أيقظه من عالم الأموات؛ ليردّه إلى عالم الأحياء الكبير الغريب، كما أن كريستيان اشتعلَتْ داخله فكرةٌ، اتّقدت وأضاءت الظلام داخله، أحسَّ بأن ذلك العقل المستنير النفيس الذي يملكه إنما وهبه له الله من أجل تغيير مجريات قدره، وذلك سنعرفه في فصول لاحقة.

جلس دكتور نيلسون وبجواره كريستيان في مواجهة السّيد إدوارد العجوز الذي يملك من الصحة ما يُحسَد عليه، السيد إدوارد رجلٌ متوسط القامة، مكتنزٌ بعض الشيء، يملك عينين نافذتين وحادّتين، له وجنتان غائرتان مغطاتان بسوالف طويلةٍ تصل إلى ذقنه، وشاربٌ كثٌّ مُشذبٌ بعنايةٍ، أصلع إلا من بعض الشعر على جانبي رأسه الصغير، وله سِنٌّ ذهبية في مقدّمة فكه تضفي على ابتسامته رعبًا، فاحش الثراء، جشعًا ولا يملك ضميراً كما هو معهود عنه، المال بالنسبة له هو الضمير، يملك عددًا من السفن التجارية ولكنه مأخوذ بالعلم؛ لذلك أنشأ مدرسته الخاصة التي أضحَتْ من أفضل المدارس في مقاطعات إنجلترا بلا منازع.

«**لورد نيلسون، إنه لشرفٌ لي حضورك في مكتبي المتواضع بالمدرسة**»، قال السيد إدوارد بصوته العميق بينما يملأ غليونه بالتبغ ثمّ يشعله مستخدمًا كبريتاً، ثم ألقى نظرةً سريعةً غامضةً على كريستيان ولم يضفْ كلمة واحدة.

«**لقد تحدثت إليك فيما مضى عن كريستيان، لقد جئتُ به اليوم وكلّي ثقة بأنكَ ستقبله في مدرستك**» قال دكتور نيلسون بوجوم بينما كريستيان يتابع بعينين حذرتين ما يحدث.

أبتسم السيد إدوارد فبانَتْ سِنُّه الذهبية، ثمّ مال قليلًا إلى الأمام وأشار بغليونه على كريستيان قائلًا: «**أنت تقصد هذا الولد؟**»، كان في تعَبيره سخرية وتهكّم خفيٌّ»، لقد التقيت به يوم حفلكم المبارك، ولقد تمّ الاتفاق فيما بيننا بالأمس، لقد تحدث

إليَّ محاميكم وأدعو الله أن يعوضكم عن تلك المزرعة»، قال إدوارد بمكرٍ، فقد قام دكتور نيلسون بالتنازل له عن مزرعة من ضمن أملاكه الكثيرة في سبيل قبول إدوارد لكريستيان بالمدرسة، لقد شعر نيلسون بالاشمئزاز من الرجل، ولكنه أخفى ذلك بقدر المستطاع.

«أتساءل في نفسي أحيانًا عن سبب حروبك ضد الطبيعة من أجل العزيز كريستيان»، لقد ضاق نيلسون بطريقته الفظّة الماكرة، تلك اللعبة التي يمارسها كلّما سنحَتْ له الفرصة، فانتفض واقفًا وعدل من هيئته سريعًا ثم قال له «أشكركَ يا سيد إدوارد على قبول كريستيان، وأرجو أن ينال رعايتكم».

أحنى الرجل رأسه بهدوءٍ وهو ينفث الدخان من غليونه، ألقى نيلسون نظرةً على كريستيان الذي وقف بدوره؛ ليحيّيه، وتبادل الاثنان نظرةً لم تطل، أطلّ الحزن في عيني نيلسون، وداعبت شفتيه الكلمات، ولكنه رمق كريستيان في النهاية بنظرةٍ جامدةٍ، ثم انسحب من المكتب ليتركه وحيدًا.

⌛

جرت تجاهه أمّه وهي تحمل بيدها ضماداتٍ كثيرة واقفة على باب غرفته، بينما وقف كعادته في مواجهة المرآة متحدّيًا وجهه، وكأنه يواجه إنسانًا آخر غير ذلك الذي في داخله، ينظر إلى تلك اللطخة البشعة التي تشغ في وجهه، ما من مرةٍ استطاع أيّ

إنسان أن يعلم ما يدور في عقل كريستيان وهو يواجه المرآة ولكن أمّه كانت تدرك، أو ربّما أحسّت بأنها تدرك؛ لذلك تبقى تلك المسألة في طيّ الغموض الذي يغلف قصتنا منذ بدايتها، وربما سيستمرّ حتى النهاية أيضًا.

«**لا يريد كريستيان...**» لم يرفع عينيه عن المرآة وهو يتحدّث بتلك النبرة الغليظة الآسرة في نفس الوقت «**أن يرى أيَّ مخلوق الآن**».

«**لكن...**» قالت أمه، فرمقها كريستيان فجأة بنظرةٍ يشع الحزن والخزي والغضب منها، ممّا أفقدها حماسها وألجم لسانها، فطأطأت رأسها وانسحبَتْ تشدّ أذيالها قابضة على دموعها بصعوبةٍ بالغةٍ، تطلَّعَ لوجهه مرة أخرى في المرآة بينما تردَّد صدى الصوت الآسر المهين في أذنه.

«**هل تخيّلت بعقلك الذي يشبه وجهك أن فتاة مثلي يمكنها أن تحب دميمًا مثلك؟! أنت دميمٌ، منبوذٌ، وستظل هكذا حتى يأكلك الدود المسكين الذي كتب له شقاء الإجهاض على ما تبقى من دمامتك، لينقذنا الربّ من أهوالك، دميم... دميم**».

⌛

وُضِعَتْ يدٌ على كتفه، فأجفل كريستيان وارتجف جسده وهو ينظر خلفه تجاه صاحب اليد الممدودة بنظرةٍ متحفزة مخيفة ليواجه وجه نيلسون الشاب الوسيم صاحب التقاطيع الصبيانية

والبنية الرشيقة، له ذقن حليق مدبب، وعينان زرقاوان هادئتان كَلَوْن البحر في نهار دافيء، بينما شعره تم تسريحه بعناية إلى الخلف وقد بدا وجهه الأبيض شاحبًا، متوترًا وخجلًا بينما شرع صوت الواقع يعود وئيدًا إلى كريستيان يصاحبه صوت القطار، ابتسم كريستيان ابتسامة حزينة وأخذ نفَسًا عميقًا.

«**القليل من البكاء، القليل من التملّق، القليل من إذلال الذات، القليل من الاستخدام الحذِر لميزاتنا، وبعدها سيقول أحد الرجال-**» هيًا، كوني زوجتي! «**مع المظهر الحسن والشباب يصبح الزواج سهل المنال. فهناك ما يكفي من الرجال؛ إلا أن المرأة التي تبيع نفسها، حتى في مقابل خاتمٍ واسمٍ جديدٍ، ليست في حاجة إلى أن تُبعد تنورتها عن أي مخلوق في الشارع. فكلاهما يأكلان عيشًا بنفس الطريقة**»، أكمل كريستيان المقولة الشهيرة مبتسمًا ابتسامة ثابتة ناظرًا في عيني نيلسون الشاب بينما القطار يتهادى في طريقهما مستعدًا للوقوف عند إحدى المحطات في طريقه الطويل، نظر له نيلسون مستغربًا ومفكرًا في كلماته الثقيلة، ثم نظر لحظة بجواره وكأنه يتمعّن المقصد منها، ثم عبرت وجهه تكشيرةٌ.

«**أرجوك يا كريستيان، لا تقل لي إن هذا مفهومك عن النساء!!**» رمقه كريستيان بنظرة العارف قائلًا: «**نيلسون ما قلته للتوّ لا يُعَدّ سوى مقولةٍ لامرأة تحترف الكتابة وهي أوليف شراينر، عن قصتها مزرعة أفريقية، كتبتها عام ١٨٨٣، أعتقد**

أن النساء يفهمن بعضهن جيدًا على خلافنا نحن، فالمرأة يا صديقي الطيب لا تَعَدُّ أكثر من كائنٍ بهيٍّ أخاذٍ وفتاكٍ أيضًا إن لزم الأمر، سلاح لا يمكن ردعه؛ لأنه ببساطة سلاح ساحر، لكن للأسف نحن مَن نمنحهنّ ذلك البريق وتلك السلطة ليخضْنَ معنا معارك نعلم من البداية بأنها معارك خاسرة».

«هل تعتقد بأن الحب معركة خاسرة؟!» شدّ نيلسون على سؤاله.

«بالطبع لا، الحب ليس معركةً على الإطلاق، فهو السموّ بعينه، أعتقد وفي رأيي بأنه انعكاسٌ لِتَجَلٍّ من تجليات الله على الأرض، لكننا وبكل أسفٍ لا نتقنه، نختزله ببساطة في كيان المرأة، نضعه نصب أعيننا ونوجهه دائمًا إلى المكان الخاطئ، فالحبّ ليس مقتصرًا على المرأة، فهي أضعف وأحوج ما يكون لمعرفته مثلنا تمامًا، وأضعف ما يكون في مواجهته، فالحبّ الذي يضعف صاحبه ويسبب له الألم ليس حبًّا، هل حبك لله أفقدك يومًا توازنك؟!، أو حبك لعائلتك أو دراستك أو عملك مثلًا؟!.. بالطبع لا.. هنا يكمن السؤال الحقيقي، إن كان الحب يُكَمّلنا، فلمَ الحب تجاه النساء يحوّلنا لمعوزين ومجانين وأحيانًا أخرى مجرمين؟! الحب لا يتضمن كل تلك الخدع».

«ربما لأننا نحبُّ بشكلٍ خاطئ، فبهاء الحب يكمن في الطريقة التي نحب بها»، هز نيلسون رأسه بتردُدٍ وكأنه يدافع عن نفسه بلا سلاحٍ حقيقيٍّ..

ابتسم كريستيان بهدوءٍ «يا صديقي الطبيب، إنكَ لم تفهم مقصدي، الحب الذي يحولنا إلى أناسٍ لا نعرفهم ليس حبًّا على الإطلاق، سمِّه كما تشاء، أطلقْ عليه من الألغاز ما تحبُّ، لكنه أبعد ما يكون عن التعريف الحقيقي للحب».

تأمله نيلسون للحظات مفكرًا: «قل لي يا كريستيان؟! ألم تحبّ في حياتك قطُّ؟!، اعذرني لسؤالي المباغت هذا وعلى تدخلي غير المبرّر في شؤونكَ الخاصة ولكنّي أحس برغبةٍ طاغية في سؤالك، أعتقد أنكَ تقاوم فكرة الحب نفسها لسببٍ دفينٍ أو لألم قديم!».

تأمله كريستيان بهدوءٍ محاولًا أن يرسم ابتسامة على وجهه، ولكنه بدا حزينًا.

حزينًا جدًا.

عام ١٩١٥ - إيما ريفز

صوت كسر المرآة وارتطام أجزائها بالأرض أفزعَها فانتفضتْ من مكانها وهرولتْ مسرعةً تجاه مصدر الصوت وهي عالمة في أعماقها أن ذلك الصوت مصدره الوحيد غرفة كريستيان، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي ينكسر فيها انعكاسه ويتحطّم ليسقط كما تسقط نفسه مع كل يوم داخل أسوار تلك المدرسة اللعينة، ففي المرة الأولى حطَم كريستيان المرآة حين انفضّ الحفل

المزعوم الذي كان مقررًا من خلاله أن يلتقي كريستيان بالعالم خارج أسوار منزله، لكن يا لبؤس الأقدار! ويا لكَ من مسكين يا كريستيان، يقتلك الجميع بسكاكين باردةٍ، حينها قرّر التخلّي عن انعكاسه الذي جلب له الهمّ والخزي، الآلام والسجن بلا حكم عادلٍ، فأيّة جريمةٍ اقترفتها يداه سوى أنه جاء في عالم لا يعترفُ إلا بالمظاهر الخادعة؟!، يومها احتضنَتْه بقوّة وبكت بحرقةٍ، بل أمسكتْ بيدها جزءًا من الزجاج المكسور؛ لتجرَح يدها عن عمدٍ وقد اشتد غيظها وتكدّر قلبها وناء بِهَمٍّ ثقيلٍ، سقطت قطرات من الدماء وهي تضمّه إليها بكل ما استطاعتْ من حنان آملة أن تقتلع الحزن من داخله، أن تمنحه عالمًا بلا شقاء ولكن كيف؟!، فالعالم لا ينصف الضعفاء.

أضحى كريستيان بعد ذلك يقضي أوقاته بين المرآة الجديدة وأخيه تشارلي، الوحيد الذي لم ينأ بنفسه بعيدًا عنه، ربما لأنّه اعتاد وجهه منذ ولادته، فالأطفال لا يعرفون الخوف إلا من خلالنا نحن الكبار، أحبّ تشارلي حبّاً جمّاً، بل صارت رؤيته ركنًا أساسيًا في يومه، يلاعبه ويلاطفه بكل مودة وحنان، ولا يغيب عنه أبدًا مهما شغلته أفكاره ودراسته.

قبل الحادث الثاني الذي تحطَمت فيه المرآة، وبعد أن ذهب كريستيان إلى المدرسة، تغيّرت أحواله في البداية بشكلٍ كبيرٍ، صار كتومًا ومنطويًا على غير عادته، يظهر عليه الكدر والألم من وقتٍ لآخر، راقبَتْه إيما وحاولتْ أن تستنقذ قلبه ممّا يلاقيه ولكن

بلا أملٍ، لقد كان كريستيان وفي الحقيقة يعيش أسوأ أيام حياته، فلقد تحوّل إلى مسخ المدرسة، يخشاه الأطفال في سنّه، ويهاجمه مَن هم أكبر منه عمرًا من الصبية وينعتونه بالدّميم كلما رآوه، لم يكتسب صديقًا واحدًا واكتسب أعداء كثر بلا سببٍ سوى أنه صاحب خِلْقة لا يد له فيها، حتى إنَّ بعض الأطفالٌ قرروا أن يذيقوه من العذاب ما لا يتحمّله بشر، يرجمونه بالحجارة أحيانًا، فيُصاب في جسده تارة، وفي رأسه تارة، ويعود إلى المنزل داميًا، لم يشكُ من آلامه ولا من المعاملة التي يلاقيها، بل على النقيض تمامًا فقد زادت صلابته واكتسب جَلَدًا ومهارة في عرقلة خططهم الشيطانية تجاهه، أضحى ينتظر حتى يدخل الجميع إلى فصولهم ثم يدخل وقد خلَت المدرسة إلى فصله.

على جانب آخر ورغم تعنّت بعض المدرسين غير المبرّر تجاهه إلا أنه أثبت أنّه ذو عقليةٍ فذةٍ ومهارةٍ فريدةٍ، نابغ في العلوم، متمكن من الكيمياء، بارع في الرياضيات، لا تقف مسألة أمامه، ولا تقصيه أية صعاب عن مأربه الحقيقي في تحصيل العلم، عاملَته إحدى المدرسات بجفاء واضح وأضحتْ تكيد له داخل حصتها، وتجعل منه مصدرًا للسخرية أمام زملائه وكأنها تنتقم منه لسببٍ لا يعرفه، ولما علم السيد إدوارد بما يحدث طلبها في مكتبه وعنّفها، بل أقالها من المدرسة ومن لندن كلها تمامًا نظرًا لنفوذه وتصدّى أيضًا لبعض أولياء الأمور الذين بالغوا في وصف كريستيان وأهانوه معلّلين ذلك بأن أطفالهم تخشى الذهاب إلى

المدرسة بفضل وجود كريستيان إلا أنه وفي تصميم أشد صرامة من سابقه أعلن لهم بأنه لن يتخلّى عن تلميذٍ لديه لأسباب واهية لا تقنعه.

استيأس الجميع من كريستيان، وأضحى أمرًا واقعًا لا قِبَلَ لهم به، بل عليهم التعامل معه، ولكن السؤال الذي حيّر إيما حينما عرفت بما فعله السيد إدوارد وخصوصًا بالمقارنة مع سمعته التي تبرهن عن قسوته وضميره الذي يتمثّل في المال فقط، لمَ فعل كل ذلك؟!، ولماذا كابد كلّ تلك المشاق من أجل كريستيان؟!، لم تحصل على إجابةٍ لكن السيد إدوارد كان مقنعًا حينما أحضر كريستيان إلى مكتبه.

«كريستيان أنت تعلم تمامًا بأنكَ منبوذٌ، وستظل هكذا طالما حييتَ وأينما حييتَ»، قال السيد إدوارد وهو يلقي على الصبي أمامه نظرةً باردةً ثم أردف وهو يشعل غليونه، **«إنها الحقيقة، والحقيقة مريحةٌ، تجعلك ترى العالم كما يجب أن يكون، تقصر عليك المسافات وتنير عقلكَ من ظلامه ومن أفكارك الوردية المرتبطة بالبشر المقزّزين»**.

تطلع إليه كريستيان ورغم خوفه من الرجل والغضب الذي اعتراه إلا أنه كان يدرك بأنّه على حقٍّ، وللحظة تمنى بأن يسمع تلك الكلمات منذ بعيدٍ، تمنّى لو أن يسمعها من دكتور نيلسون، ودكتور نيلسون بالتحديد؛ لأنه يمثل له القدوة والأب الذي لم يجده، بل يمثل له نفسه والحياة التي يتوق إليها.

«أنت تتساءل بالطبع»، قال إدوارد بهدوءٍ نافثًا سحابةً من الدخان، «**تتساءل: لمَ وقفتُ في صفك أكثر من مرةٍ رغم أني غير مجبرٍ على ذلك ولن يلومني أحدٌ لو ألقيتُ بكَ خارج المدرسة الآن وإلى الأبد؟!**».

تماسك كريستيان بصعوبةٍ، لكنه أدرك أنَّ تلك هي طبيعة الرجل، باردة كالصقيع، ناشفة جرداء كصحراء مترامية، مؤلمة كأسنَّة الرماح، فسمعه يقول : «**لأننا من نفس الفصيل يا صديقي الصغير، نحن الاثنان منبوذان من هذا العالم والطريقة الوحيدة لاستنقاذ أنفسنا هي القوة، أيّة قوةٍ، كلٌّ يلعب على فرسه الرابح، أنا لا أحب إلقاء النصائح؛ لأنها تضيع وقتي وخبرتي، لكنني أؤكد لك أنها المرة الأولى والأخيرة التي سأنصحك فيها، ابحث عن الفرس المناسب، هيِّئه وأعطِه من وقتك وجهدكَ، لا تبخل عليه بأيّ شيء؛ لأنك يومًا ستحارب وأنت تمتطيه، سيكون سلاحك الوحيد ضد هذا العالم، وحينها أؤكد لك بأن الجميع سيركع أمامك، سيخرسون إلى الأبد أمام سلطانك، العالم لن يخضعكَ إلا حينما تسمح لك بذلك، فلا تسمح له، أرجوك، وكفى العيش في بوتقة الضحيّة؛ لأن تلك البوتقة مشحونةٌ ومملوءةٌ، ولم يعد هناك مكان داخلها وستجد نفسك في النهاية ميتًا ملقًى في قبر تزاوره الرياح في أقصى مكان من هذه الأرض، انتهى كلامي والآن انصرف**» انصرف كريستيان وهو مشحون تمامًا بالفكر والغضب.

بعد ذلك تحوّلت تصرفاته فأضحى يردّ على مَن يحاول النيل منه بعنفٍ، يصرخ في الأطفال فيخيفهم فيهرعون بعيدًا عنه، يسبّب لهم الآلام إن دخلوا معه في معركةٍ، حوّل الشيء الذي تسبب في آلامه إلى سلاحٍ يدافع به عن بقائه، لم يعد كريستيان الضحية بل المُجالد الذي يدافع عن وجوده، حتى جاء ذلك اليوم الذي تجمّع فيهم عددٌ كبيرٌ من الصبية وانهالوا عليه ضربًا حتى أنقذَتْه لويزا الجميلة واصطحبته أيضًا إلى مكتب الرعاية الصحية بالمدرسة، ببساطة تامة لقد وقع كريستيان في الحبّ دون تمهيدٍ أو توقّعٍ، وقع في ذلك الفخّ العميق الذي أدمى من قبله كثيرين.

علمتْ إيما بما يدور في نفس كريستيان، من اهتمامه بنفسه وهيئته وهندامه، شروده المستمر، ميوله الواضح إلى عالم الروايات الرومانسية حتى إنّه نأى تمامًا عن استذكار دروسه، ولم تعد تعنيه اهتمامُاته العلمية كما السابق، أضحى يقضي أوقاتاً طويلةً مع تشارلي والحب يغمر عينيه المتوحّشتين، رقّ قلبه واستكان، وأضحت الابتسامة لا تفارق قلبه، لكن كلّ ذلك لم يلقَ لدى إيما أيّ ترحيب، فقد ازدادتْ غمًّا وناء قلبها بِهَمٍّ ثقيلٍ، وانشغل بالها بالحيلولة دون وقوع كارثةٍ قد تقضي على كريستيان تمامًا، الحبّ قد يحيينا ولكنه في النهاية يدمرنا إن وُجِّهَ في مكانه الخاطئ، وللأسف لا يستطيع كريستيان أن يسمح لقلبه بأن يغرق في الحب؛ لأنه ببساطة شديدة لن يُحَبّ، حاولت مرارًا أن تطوع قلبها على مهادنة فكرة أن الله رحيمٌ، وأن الحب قد يكون غريبًا،

فالجميلة قد تحبّ الوحش، ولكن ذلك يحدث فقط في عالم الروايات الحالم، في قصصنا الأسطورية عن الجنّيات، في عالم يختفي فيه البشر، وتسود الملائكة الأرض.

اقتربت منه إيما وبعد صعوبةٍ بالغةٍ أخبرها كريستيان بما يعتمل في قلبه، وقد كان خجلًا حين قال: «**لا أعلم يا أمّي، ولكني حين أراها أشعر وكأن الحياة تغمرني حتى أكاد أطير، إنها ملاكي الحارس، تنتظرني كلّ يومٍ في طريقنا إلى المدرسة ونذهب سويّا، لويزا ليست كالأخريات، إنها قويةٌ، وتعلمني كيفية التعامل مع مَن هم أكبر مني سنا، ونقضي أوقاتاً كثيرة في القراءة، ولا ينفك قلبي عن ذكرها حتى وهي بصحبتي وأمام عيني**».

لم تجادله إيما حتى لا تكسر قلبه، وكلّ ما فعلته أنها احتضنَتْه محاولة بقدر الإمكان حبس دموعها، لم تكن لديها القدرة بأن تنطق كلمة واحدة في ظلّ تلك الفرحة المؤقتة التي تعتمل في صدره وتقلب كيانه، خافت لأجله وعلمت في قرارتها بأنّ تلك الفرحة ستنقلب حسرةً، وبأن ذلك الحب سينقلب جحيمًا، ولم تمرّ فترة طويلة حتى انكسرت المرآة للمرة الثانية، كانت كلمات لويزا تلسعه كالسّوط القديم في العالم السفلي، تقذفه بضراوةٍ إلى الماضي السحيق البشع بآلامه وأسراره المجهولة.

«هل تخيلتَ بعقلكَ الذي يشبه وجهك أنَّ فتاة مثلي يمكنها أن تحبّ دميمًا مثلك؟! أنت دميمٌ، منبوذٌ، وستظل هكذا حتى يأكلك الدود المسكين الذي كتب له شقاء الإجهاض على ما تبقّى من دمامتك، لينقذنا الربّ من أهوالك، دميم... دميم».

لقد أخبرته بالحقيقة وهو يدافع عنها أمام هجوم عنيفٍ من صبية داخل المدرسة، لطالما عنّفوه بسبب مصاحبتهِ للويزا، لكنه لم يستسلم، وفي هذا اليوم عقدوا النية على ضربه وإهانته أمامها، لكنه لم يستسلم واستأثر بأحدهم وانهال عليه ضربًا وهو يصرخ صراخًا مخيفًا حتى دفعَتْه لويزا من فوقه وهي تصرخ بتلك الكلمات، لم يصدّق كريستيان ما تقول، وظل جاحظًا ينظر إليها فدفعه أحدهم من فوق الصبي وانهال عليه ضربًا، لم يدافع عن نفسه وظل يرمقها بنظرةٍ طويلةٍ مستفهمة غير مصدّقة، غشيت الصدمة عينيه، وسحقه هول الحقيقة المفزعة، سال الدم على وجهه كما سالت الآلام في كل جزءٍ فيه، انسحق قلبه تحت أقدام فتاة لعوبٍ، وانسحق كبرياؤه بلا ثمنٍ.

جلست إيما خلف الباب تبكي؛ لأنها لم تستطع أن تساعده، أن تستنقذ قلبه، لامَتْ نفسها كثيرًا في خلواتها، وتمنَّت لو أن تمنعه بالقوة، ولكن مَن منّا يستطيع أن يمنع الحب إن قرر المرور ؟!، ومَن منّا يستطيع أن يستنقذ قلبًا من داءٍ هو أحبّ إلينا من كل ترياقٍ؟!، تعبَتْ إيما ووهنَ جسدها وأصابتها حمّى شديدة ألحقتها بالفراش لمدة طويلةٍ، سهر دكتور نيلسون على راحتها، لم

يبرح غرفتها قط، لكن كريستيان نأى عنها لسببٍ غير مفهوم، ربَّما ليداوي جراحه المضطرمة، وربما لإحساسه الدفين بأن إيما كانت تعرف نهاية قصته، ولم تحرك ساكنًا، بعد ذلك الحادث تغيَّر كل شيءٍ، تغير كريستيان واستحال إلى شخصٍ آخر.

عام ١٩١٨ - نيلسون ريفز.

هل اكتفت الحياة بعذاباتها المتكرِّرة التي منحَتْها لكريستيان؟! لا أحد يعرف الحقيقة؟، وما الذي حدث فعلًا في ذلك اليوم حينما هرول السائس المسؤول عن الخيول فزعًا إلى داخل المنزل لأول مرة على طول الفترة الطويلة التي عمل بها لدى دكتور نيلسون؛ ليخبره باختفاء كريستيان خلال ووجوده كعادته في إسطبل الخيول، أخبره متلعثمًا: «**دكتور نيلسون، لقد... لقد.. لقد اختفى كريستيان تمامًا، لقد كنت مشغولًا يا سيدي، أقسم لكَ بأن عينيَّ ورغم ضعفهما دائمًا لا تغيبان عنه**»، بدا السائس منهارًا، ويكاد الخوف يقتلع قلبه فتطلَّع له دكتور نيلسون بهدوءٍ ثم قال: «**اهدأ وأخبرني عمّا حدث بالضبط**».

قال السائس محاولًا أن يجمع شتات نفسه: «**لقد ذهبتُ لإحضار بعض الأغراض من أجل الخيول، وحينما عُدتُ وجدتُ الفرس الخاص بالسيد كريستيان هائمًا على وجهه، بينما اختفى السيد تمامًا، وهذه ليست عادته التي تقضي بتسليم فرسه بمجرد**

انتهائه، أحسستُ بأن أمرًا مريبًا يحدث، ولم أضع الوقت وقررت أن أخبركَ».

أومأ نيلسون برأسه مفكرًا، ولم يبدُ عليه القلق ثم أمر إحدى العاملات بالبحث عن كريستيان في أرجاء المنزل الكبير كما أخبرها أن تستعين ببعض الخدم للبحث عنه، وإنْ وجدوه فعليهم أن يعلموه بأنه يريده في الحال، لم يكن دكتور نيلسون فزعًا خصوصًا لما يتمتّع به كريستيان الآن من طولٍ فارعٍ يصل تقريبًا إلى نفس طوله وصحة جيدة، ولولا خلقته البشعة لأضحى شابًا تتهافت عليه الفتيات من جميع ربوع إنجلترا، رأى نيلسون فترة شبابه الأولى فيه وكان يغبطه رغم كل شيء، ورغم كل ذلك إلا أنه أحسّ بغصة غريبةٍ في حلقه، وبأن شيئًا مريبًا على وشك الحدوث، فكّر قليلًا في الحالة النفسية لكريستيان خلال الفترة الأخيرة، وأجزم في نفسه أن الأمر ربّما يكون متعلقًا بما مرَّ به من ألم خلال الفترة الأخيرة، وتلك القصة المزيفة التي هوى في براثنها، لكن على جانبٍ آخر فقد أنهى كريستيان مدرسته، وأصبح مؤهّلًا الآن للالتحاق بجامعة كامبريدج العريقة.

كان هذا العام يُعَدُّ عامًا قاسيًا على جميع الأصعدة، فقد اجتاح العالم بجانب الحرب العالمية المستمرة منذ أربع سنوات التي راح ضحيّتها عددٌ كبيرٌ من الأبرياء والجنود على مستوى الكرة الأرضية كلها بردٌ رهيبٌ لم تشهده أوربا منذ سنوات طويلة، كما أن الإخفاقات المتوالية لدكتور نيلسون أرهقَتْه نفسيًا بشكلٍ

كبيرٍ، فقد عمل لفترة طويلة على نظرية متعلقة بالجين الوراثي المتسبّب في لون البشرة البشرية وهيئتها وتطورها عبر عمر الإنسان على الأرض إلا أنه وكالعادة أوقف نظريته العالم فرنسيس هورسلي مستعينًا ببعض النظريات التي أحبطَتْ نيلسون وأعادته خالي الوفاض، مهزومًا أمام عدد هائل من العلماء الذين جاؤوا من أماكن شتّى لمناقشة نظريته، في الحقيقة إنّ نيلسون أيضًا صار حاد المزاج ومتقلبًا، ولا ينفكّ عن الجلوس وحيدًا لفترات طويلة ولا سيما فوق المنزل يتابع ذلك الخفّاش الغريب الذي يأتي أيضًا رغم البرودة؛ ليؤكّد له حقيقة مشاعره التي تقوده بلا سببٍ واضحٍ نحو مصيرٍ مجهولٍ لا يستطيع حتى التنبّؤ بكينونته، ربما اختفاءُ كريستيان وفي هذه اللحظة جعله يحسّ بغصةٍ لم يفصحْ عنها حتى لنفسه لعلمه الأكيد بأنَ إحساسه الغريب الذي تملّك منه لسنواتٍ أوشك أن يصبح حقيقةً.

علمتْ إيما بالأمر واجتاحها القلق والخوف الشديدان، ورغم وهنها حيث ما زالت وبعد سنتين تعاني ألم هجر كريستيان لها إلا أنها خرجَتْ لتفتش مع العاملين عنه داخل المنزل الكبير، وحينما هبط الليل ومع استمرار اختفائه لم يجد نيلسون بُدًّا من الخروج من منزله لاقتفاء آثاره آملًا أن يجده، امتطى حصانه القوي ذا اللون الأحمر الداكن رافضًا مصاحبة أيّ شخص له لسببٍ غريبٍ هو نفسه لا يعلمه ولكنه يحسّ به.

كان ضوء القمر كافيًا لينير له وجهته، وبعد مسافة ليست بالطويلة وقف أمام مكتب شرطة سكوتلاند يارد آملًا أن يجد كافنديش، وبالفعل كان الرجل جالسًا خلف مكتبه يقرأ كتابًا غريبًا يتحدث عن الماورائيات، وقد رأى نيلسون في نفسه أنها فكرة سخيفة للغاية بأن يعتقد إنسانٌ عاقلٌ مثل تلك الأشياء التي لا يستطيع العلم الجزم بها بشكلٍ قاطع، ولكنه نأى عن تلك المناقشة التي لن تؤتي ثمارها، كما أنه ليس بالوقت المناسب للتحدث في أمرٍ كهذا.

أجفل كافنديش وتطلّع مستغربًا إلى دكتور نيلسون، ثمّ نهض من مكانه ورحّب به، ولم يضيع الأخير الوقت وقصّ عليه واقعة اختفاء كريستيان، فكّر كافنديش قليلًا، ثم ارتأى أن يقوم فريقٌ من الشرطة بالبحث عنه رغم أن ذلك الإجراء لا يتخذ إلا بعد غياب الشخص بفترة لا تقل عن ٣٦ ساعة، ولكن ظروف كريستيان مختلفة كليًا عن أي شخصٍ آخر.

خرج دكتور نيلسون بعد أن شكر لكافنديش حسن صنعه وكرمه الأخلاقي، واتجه نحو منزله مفكرًا، كانتْ هناك أفكارٌ مضطرمة تجول برأسه، ما الذي حدث لكريستيان؟!، هل هرب كريستيان أم أن هناك شيئًا آخر حدث ولا يستطيع تصوره؟!، يخشى أن يعترف لنفسه بتلك الخاطرة المرعبة في ذهنه!، ولماذا يحس بذلك الحزن الشديد؟!، هل لحبه الشديد له؟! أم أن هناك خيطًا غريبًا يربطه بكريستيان منذ اليوم الذي رآه فيه ولا يعرف

كنهه؟!. قطعت كل تلك الشكوك لافتة غريبة مُعلّقة على جدار المنزل من الخارج، لافتة كُتب عليها بخط واضح: **«اتّجه نحو الشمال؛ لتجد ضالتكَ»**.

زمجر الفرس الموفور القوة وقفز من مكانه وكأنه رأى ثعبانًا، فهدّأه نيلسون بصرامةٍ وهمس في أذنه وكأنه يروّض طفلًا صغيرًا وبدَتْ عليه الحيرة والتفكير العميقان، أحسَّ بأن أمرًا جللًا على وشك الحدوث، كان المكان يعمُّه الصمت المهيب الذي لا يقطعه سوى صوتٍ حفيف الأشجار التي تتهامس بلغتها الغامضة الأبدية، بينما كان عواء عميق يأتي من مكانٍ بعيدٍ، تأمل نيلسون اللوحة لوهلة مفكرًا ثم نزعها ووضعها أمامه ونظر تجاه الظلمة مفكرًا وما لبث أن مضى في الطريق حسب التعليمات على ضوء القمر المهيب، أفكار عدة دارتْ برأسه لكنه علم في قرارته أنَّ ما كان يحسه من غصّة كان صحيحًا، فهناك أمرٌ مريب يحدث وعليه أن يتبعه مهما كلّف الأمر، رغم خوفه الدفين من مجريات الأحداث وتوابعها إلا أنه كان يعلم بأن القدر يقوده إلى منطقةٍ لا يعرفها، ذلك الهوس الذي أضحى ملازمًا له أرغمه على المضيّ قُدُمًا دون تفكيرٍ يعرقله.

وسط الظلمة وهناك على أطراف مدينة لندن حيث تناثرت الأراضي الزراعية والتلال المكسوة بالخضرة رأى ذلك البرج المهيب لقلعةٍ تعود جذورها إلى ألفي سنةٍ خلَتا، يعرف المكان جيدًا لكنه يأبى الاعتراف بحقيقته، المكان بوحشته وصمته

المقبض يكاد يقتلع قلب أكثر الأشخاص شجاعة، مضى بهدوءٍ وبخطواتٍ متأنية تجاه الغسق، بدا له من بعيدٍ ظلٌ لشخصٍ يقف متجمدًا لا يتحرك، الهيئة إنسانيّة على ما يبدو، تتراقص ظلاله حول المكان في شكلٍ يثير الرعب في القلوب.

اقترب نيلسون أكثر والخوف يتسلّل إليه، لكن شيئًا غامضًا يدفعه إلى الأمام حتى أضحى على بعد عشرين خطوةً تقريبًا من ذلك الشخص، سمع دكتور نيلسون نداءً عميقًا باسمه فاقترب أكثر، يعرف الصوت جيدًا ولكنه لا يجرؤ على الاعتراف بصاحبه، مضى بخطواتٍ أسرع حتى صار في مواجهة كريستيان الذي ارتسمَتْ على وجهه ابتسامة غامضة ومخيفة.

«**كريستيان.. ماذا تفعل هنا بحقّ الله؟!، وما الذي أتى بك إلى هذا المكان الموحش؟!**»، قال دكتور نيلسون وهو يهبط من فوق حصانه.

خرج من الظلام رجلٌ قصيرٌ، ضعيف البنية له نظرة مخيفة، فتململ دكتور نيلسون في مكانه وعاد للخلف خطوة، فقال الرجل بهدوئه وببروده المعهود وبنبرته العميقة: «**دكتور نيلسون، إنه لشرفٌ أن تحضر إلى أعتاب منزلي، أرى أنك نفَّذتَ التعليمات كما يجب**».

فقال نيلسون محتدًا وملوِّحاً بيده: «**أنت وراء كلّ ذلك يا فرنسيس، اللعنة...**».

قاطعه العالم فرنسيس هورسلي بنبرةٍ هادئة وكأنه لم يسمعه: «أرجوكما لا تتأخرا، كريستيان سيقودكَ إلى باب المنزل»، ولم يُعطِه فرصة للردّ ثم ولاه ظهره واختفى داخل الظلام مرة أخرى تاركًا نيلسون وسط حشدٍ من الأسئلة.

تطلع دكتور نيلسون إلى كريستيان وكأنه يحثّه على مساعدته فسمع فرنسيس يقول وهو يبتعد: «كل الإجابات التي تبحث عنها ستجدها هناك، في أوج النور الكبير يا عزيزي»، وسمع ضحكاته تتصدى مرعبة في المكان الموحش.

اقترب كريستيان من دكتور نيلسون وأمسك بيده ثم نظر له نظرةً غريبةً وابتسم، وسرعان ما وجد الأخير نفسه مُنساقًا يمضي بهدوءٍ بصحبة كريستيان تجاه القلعة، قلعة فرنسيس هورسلي.

نيلسون ريفز - خريف ١٩١٨.

كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهتْ تمامًا، استلم نيلسون الجريدة وشرع في قراءتها، بدا مشعثًا، غير حليق، عيناه زائغتان، يحسّ بصداعٍ غريبٍ يكاد يدفعه للصراخ، لقد نام منذ الحادث الأخير لمدة يومٍ كاملٍ، بينما كريستيان ما زال نائمًا يغطّ في سريره، ولوهلة أحسّ نيلسون بأنه قد مات، فاضطر لوضع يده أمام أنفاسه؛ ليتأكد وجوده بين عالم الأحياء، أرسل خطابًا إلى إيما يطمئنها فيه على كريستيان ونفسه شارحًا لها بالتفصيل هرب

كريستيان تحت وطأة مخاوفه من التحاقه بالجامعة وابتعاده عن العائلة التي تربّى في كنفها، لذلك يتطلّب الأمر مكثه بجواره لمدة أسبوع على الأقلّ في ضيعته بالريف حتى يساعده على اجتياز تلك المرحلة الصعبة، ولكنْ شعرَتْ إيما بالامتنان لنيلسون بشأن هذا الأمر.

خلال ذلك الأسبوع كان الاثنان لا ينفصلان أبدًا، يسيران لفتراتٍ طويلةٍ كلّ صباح، ولا ينفكان عن الحديث أبدًا، لاحظ الخدم في الضيعة أيضًا أن نيلسون عاد لعادته القديمة حيث شرع يمتطي الخيل كلّ ضحًى لمدة ساعة على الأقل، وعلى جانب آخر لم يكن يتحدث كثيرًا، بل مر يومٌ أو اثنان لم يتحدث خلالهما مطلقًا، وكان يسهر كثيرًا بصحبة كريستيان داخل مكتبه كلّ مساءٍ، والله وحده يعلم ماذا كان يفعلان!!

أحسّ بعض الخدم بتغيُّر نشأ في دكتور نيلسون حيث عاهدوه ضيّق الصدر خلال المدة السابقة يتذرّع الذرائع كي يوبّخهم، وأحيانًا ما كان يعنفهم بلا سببٍ واضح، ولكنه بدا الآن هادئًا، وديعًا عطوفًا وكريمًا كما عاهدوه في السابق.

أما كريستيان فقد أضحى منكفئًا على نفسه، لا يكاد يتكلم إلا قليلًا، يشعر بالوحدة الشديدة ويغلبه الغضب إن غاب عنه دكتور نيلسون ويبحث عنه كالمجنون داخل الضيعة ولا يستكين أو يهدأ له بالٌ إلا حينما يجده، بات يقرأ بِنَهَم من وقتٍ لآخر وقد أسند له دكتور نيلسون بعض الأمور المتعلقةً بأعماله معللًا ذلك

بحاجته إلى بعض الراحة، كما أن ذلك الأمر سيعين كريستيان على رؤية بعض الأشياء التي لا يعرفها عن عالم الأعمال والواجبات التي ربّما ستُلقى على كاهله يوماً، ولا أحد يشكّ بأن دكتور نيلسون - أطال الله عمره - سيترك إرثًا لكريستيان حتى يعينه على استكمال حياته الغامضة التي لا يتوقع أحدٌ منها شيئًا.

في اليوم الرابع تفاجأ نيلسون بزيارة كافنديش له فرحّب به ترحيبًا شديدًا، وقد لاحظ الأخير أن نيلسون بدا مشعثًا، عيناه زائغتان وقد حاقَتْ بهما نظرة غريبة غامضة لم يفهمها، بدا كافنديش قلقاً للغاية عليه خصوصاً بعد أن علم بعثوره على كريستيان وقد حيّره الأمر وأثار فضوله ليستطلع ما حدث.

«**يؤسفني أن أراكَ على هذه الهيئة، يبدو أنكَ تواجه فترةً مريرةً**»، قال كافنديش بنبرةٍ مواسيةٍ حزينةٍ.

ابتسم نيلسون ابتسامة هادئة ثمّ قال: «**على العكس تمامًا، لقد اشتقتُ لجوّ الريف بهدوئه رغم برودة الجو والثلوج التي لم تتوقّف عن الهطول منذ مجيئنا، ولكني أؤكد لك أنّي على خير حالٍ**»، دلف كريستيان في هذه اللحظات وقد بدا متأنقًا، مهندم الثياب، تفاجأ بوجود كافنديش، فتطلع الاثنان إلى بعضهما لوهلة، في كل مرةٍ يقابل فيها كريستيان كافنديش كان يتهرّب منه ولا يكادان يتبادلان حديثًا بأيّ شكلٍ، كان لعلم الأول بمدى كره الأخير له، كما أن كريستيان يعلم في أعماقه بأنّه لو هناك شخصٌ يريد التخلّص منه ليحلّ السلام فهو كافنديش، إلا أن

في هذه المرة وقف كريستيان يحملق فيه بنظراتٍ ثاقبةٍ محايدة ـ ولو أن كافنديش صدق حدسه لأحسَّ بشيءٍ من الامتنان في عيني كريستيان ـ ثم أومأ له برأسه بكياسةٍ، واقترب منه ومدَّ له يده، فابتسم كافنديش مستغربًا وبادله التحية والسلام، وشعر بأن كريستيان على وشك أن يقول شيئًا، ولكن يبدو أنّه تراجّع حيث ظهر وميض غريبٌ في عينيه البشعتين، وكأنه يُخفِي شيئًا مألوفًا في أعماقهما، شيءٌ يعرفه كافنديش ولكنه لا يستطيع الإقرار به، لم يتفوَّه كريستيان بكلمةٍ واحدةٍ، ثم جلس على المقعد المواجه لمكتب دكتور نيلسون وسحب الجريدة ثم شرع يقرؤها، وكأنَّه نسي وجوده من الأساس، ابتسم نيلسون بريبةٍ لا تكاد تُلحظ ناظرًا إلى كافنديش، ثم أشار على كريستيان بيده بشكلٍ ينمّ عن إحساسه بالفخر به، فبادله كافنديش الابتسامة وما زالت علامات الاستفهام لم تتخلَّ عن ملامحه، وشرع يتفحّص كريستيان بفضولٍ شديدٍ.

لم تطل زيارة كافنديش بعد أن اطمأنَّ على صديقه إلا أنه وفي أعماقه لم يكن يصدّق قصة العثور على كريستيان بعد هربه المفاجئ والذي لم تقنعه أسبابه، أحسَّ في أعماقه بأن شيئًا غريبًا يحدث، وما عزَّز ذلك الإحساس حينما كان يتناول الشاي في صحبة دكتور نيلسون، بدا الأخير مهملًا وناسيًا لبعض التفاصيل الجوهرية الخاصّة بصداقتهما، وبدا شاردا معظم الوقت، لكنه ما زال محتفظًا بحكمته التي يعشقها، كما أنه لاحظ فيه إقباله على الحياة بفطنته المعهودة، وما جعله يحسّ ببعض الراحة هو الهدوء

الذي ساده حيث أضحى لا يثور كما العادة على أتفه الأمور، بل كان مثابرًا توّاقًا للحديث فيما يخصّ الأمور العلمية، ولا شيء غيرها.

أمّا ما جعله متحيّرًا ومتسائلًا بحقٍّ هو كريستيان نفسه الذي اختفى تمامًا بمجرد انتهائه من قراءة الجريدة كما لاحظ وفي غفوةٍ من دكتور نيلسون أنه يراقبهما من بعيدٍ حيث لمحه في شرفة المنزل يقف ثابتًا ينظر تجاههما باهتمام غريبٍ يشوبه إحساسٌ غامضٌ، بل لا تكاد عيناه تفارقانهما أبدًا، وقد بدا عليه بعض التوجُّس إلا أنه أرجأ الأمر لشعوره المنفِّر تجاه كريستيان له في النهاية.

أمّا ما جعل كافنديش يقف فاغرًا فاه جاحظ العينين، مشتّت الفكر، حينما لمح حين مغادرته وصول عربة سوداء قاتمة يجرها أربعة خيولٍ سوداء أيضًا، ترجّل منها ذلك العبقري المجنون، العالم فرنسيس هورسلي، الرجل الذي يمقته نيلسون كما يعتقد ويكنُّ له كرهًا طبيعيًا.

أومأ له العالم مبتسمًا ابتسامة غامضة ومخيفة ولم يقل سوى جملةٍ واحدةٍ وهو يمرّ بجواره «**حضرة المفتش**» لكن النظرة في عينيه كانت تحمل رسالةً ضمنيّةً، رسالة واضحة لا تحتاج لتفكيرٍ أو ترجمةٍ لمعرفة مغزاها، وهذا ما جعل الدم يتجمّد في عروق كافنديش الذي فكّر طويلًا بشأنها.

في اليوم السادس ذهب دكتور نيلسون لمنزله في لندن لإنهاء بعض الأمور الهامّة، دلف إلى المنزل بهدوئه كالعادة، قابلَتْه إيما سعيدةً مرحِّبةً، وقد بان عليها بعض الإرهاق، لكنه كان فاترًا نوعًا ما، لم يقابلها كما هي عادته منذ سنين بقلبه التوّاق وحضنه الدافئ لكنه في النهاية كان ودودًا، قصّ عليها بكلماتٍ قليلةٍ وَجِلة حال كريستيان وتغيّره إلى الأفضل خلال تلك الفترة وأكد لها أنه يحتاج لبعض الوقت حتى يعود إلى المنزل، وقد لاحظ الخدم بأن دكتور نيلسون لم يعد سريع الانفعال حادَّ الطبع كما تعودوا منه، وأرجعوا الأمر إلى جوّ الريف المستكين الذي يروّض أكثر الوحوش ضراوة وأكثر النفوس قسوة، كما أنهم لاحظوا أنه لم يفارق المكتب منذ مجيئه إلى ذهابه، وحينما انتهى من أعماله جلس في صحبة تشارلي لمدة غير قصيرةٍ انسجموا فيما بينهما، وقد سعدَتْ إيما بهذا الأمر كثيرًا؛ لأنه غالبًا ما كانت مشاغل نيلسون وعمله يحولان ضد هذا الانسجام وتمنَّتْ في أعماقها أن يلقى كريستيان جزءًا من ذلك التغير الحميد.

عاد الاثنان بعد مرور أسبوع وقد بدا عليهما انسجامٌ غريبٌ لم يعهده أحدٌ فيهما من قبل رغمَ أن كريستيان لم يكن يتحدّث كثيرًا، باتا يتناولان الإفطار سويًّا، يجلسان في المكتب لفترات طويلة، بل أضحى كريستيان يرافق دكتور نيلسون إلى المعمل أيضًا كي يتعلّم كيفية استخدام الأدوات والمعدّات التي تؤهله عمليًّا لدخول أيّ معمل أو مختبر؛ وذلك لأن كريستيان سيدرس

نفس العلوم التي درسها نيلسون، وهذا الأمر الأخير وطَّد العلاقة بينهما بشكلٍ كبيرٍ حتى إنَّ إيما عادت بذاكرتها للفترة الأولى التي ظهر فيها كريستيان في حياتهما حينما استأثر به نيلسون في معمله وقبل أن يصبح عضوًا من أعضاء عائلة ريفز.

ورغم كل ذلك الانسجام إلا أن إيما شعرت شعورًا غريبًا تجاه نيلسون، فقد بات يعاملها معاملةً رقيقةً ولكنها تظلُّ فاترة غامضة ودوداً، نعَم، ولكن ينقصها إحساس الزوجة بزوجها، حزنتْ في نفسها وعلمتْ بأنَّها لن تسترد نيلسون أبدًا رغم ما أبداه من تغيُّر في معاملته مع كلِّ مَن حوله، لقد نالها جزء من هذه المعاملة، ولكنَّها أدركتْ في أعماقها بأنه نسي أمرًا شديد الأهمية، بأنها ببساطة زوجته، كما أن كريستيان ظلَّ على عهده بها، لا يتحدث إليها إلا قليلًا لكن الغريب أنَّها كانت تلمحه أحياناً ينظر لها نظرات غريبة يملؤها الشوق، لكنها مختلطة بإحساسٍ غريبٍ لم تفهمه، كانت تدرك بأنَ الألم في قلبه ما زال قائماً حتى إنَّها لَعنتْ نفسها، تمنَّتْ لو أنها وقفتْ حائلًا بينه وبين ذلك الحبِّ السافر الذي هوى به إلى هوَّةٍ سحيقةٍ لا يعرف أحدٌ مداها.

ومع بداية الأسبوع التالي حين كان نيلسون يقرأ الجريدة قرأ خبرًا جمَّد الدم في عروقه.. بل جعله سارحًا ومفكرًا لساعةٍ كاملةٍ وقد نسي وجود كل شيء حوله.

تشارلز كافنديش.

لم يهنأ لكافنديش بالٌ بمجرد أن غادر دكتور نيلسون وشرع يتقصّى الحقائق، عرف وجهته منذ بداية التحقيق السّرّي ليعرف الحقيقة، فإنه بطبيعته يرفض تمامًا أن يظلّ جانبٌ من قضيّةٍ تهمُّه في طيّ الغموض، خلال يوم واحد استطاع أن يتأكد وبشكل سري من خلال بعض الخدم لدى فرنسيس هورسلي بأن هناك شابًا صغير السن، بشع الخلقة كان موجودًا في قصره الضخم الشبيه بالقلعة، كما أنه وفي نفس اليوم وقبيل الفجر بساعةٍ أو أقلّ قليلاً وصل رجل بدا من طلعته بأنه رجلٌ مرموقٌ حيث أيقظ سيدهم بعض الخدم من نومهم من أجل الخدمة إنْ تطلّب الأمر ذلك، وقد دلف الضيوف مع سيدهم إلى معمله الخاص الممنوع منعًا باتًّا على الجميع الاقتراب منه ومكثوا هناك إلى وقتٍ لا يعلمه إلا الله؛ لأنهم لم يلمحوا الضيوف قطُّ بعد ذلك ولا علم لهم بوقت مغادرتهم، وذلك ما أثار تساؤلاتهم لكنهم في النهاية رضخوا للأمر واعتبروه شيئًا عاديًا في حياة رجل تتّسم بالغموض المقبض.

جلس كافنديش مفكرًا بشأن الأمر كلّه، تتقاذفه الأفكار والأسئلة الغامضة التي لا إجابة لها، مزّقه الإحساس بالجهل، ثم ألقى بأجزائه في هوّةٍ سحيقةٍ من الحماقة، شرع يسأل في نفسه أسئلة كثيرة: **«ما تلك العلاقة الجديدة التي نشأتْ بين دكتور نيلسون والعالم فرنسيس هورسلي رغم ما يكنُّه الأول من كراهية**

تجاه فرنسيس؟!، وما الغرض من تلك الزيارة الغريبة التي رأيتها بأمّ عينيّ؟!، وما سر وجود كريستيان ونيلسون معاً في قصره لليلة كاملة؟!، وماذا عن اختفاء كريستيان والقلق الذي دفع دكتور نيلسون لطلب مساعدتي في إيجاده؟!، وإن كان نيلسون يعلم مكان كريستيان مسبقًا فلماذا جاء إليّ من الأساس؟!، وأيّ لعبةٍ تدور في الخفاء؟!، إن فرنسيس يُعَدُّ ثورة علمية مخيفة ومنفرة تكاد تقشعرّ لها الأبدان بمجرد ذكر اسمه في أيّ محفل أو لقاء علميّ، بينما نيلسون على النقيض تمامًا، فما الذي يجمع بين النقيضين؟!، فهل كريستيان هو السبب؟!، دومًا يكون كريستيان هو السبب في كلّ شيء! أليس كذلك؟!»، سحقته الأفكار والأسئلة تحت عجلاتها في وحلٍ من الغموض حتى وصلته رسالةٌ بينما يحتسي الشاي في مكتبه خلال المساء، تجمّد الدم في عروقه بمجرد أن رأى ذلك الختمَ عليها.

كان الختم ببساطة يرمز لعائلة هورسلي.

فتح الخطاب متوجسًا، فلم يجد سوى جملة واحدة: «**سيد كافنديش، إني في انتظارك، أرجوك لا تتأخر**».

ف ٥

طوى كافنديش الخطاب في يده متجهمًا شاردًا بينما تطلّع إليه الرسول منتظرًا إجابته، فرمقه كافنديش بنظرةٍ شاردةٍ ثم وضع منديله على فمه كأنه يعطي لنفسه مهلةً للتفكير، ولكنه سرعان ما نهض في صحبة الرسول متجهًا نحو قصر فرنسيس هورسلي، لم

يستطع أن يقاوم فضوله كما أن الأسئلة التي تحيّره لا بدّ من العثور على إجابةٍ شافيةٍ لها.

سرح كافنديش بأفكاره وهو داخل العربة، مفكّرًا بالأحداث الأخيرة، فرنسيس هورسلي واحدٌ من أهمّ العلماء الإنجليز في علوم الأحياء والميتافيزيقيا، أنتم بالتأكيد تذكرون الرجل جيدًا، دقيق البنية، شاع الشيب في رأسه، وله نظرةٌ فاحصةٌ دقيقةٌ ومخيفةٌ، يمسك في يده كأساً مترعةً بالخمر، وينفث سحابات من الدخان تزيده غموضًا وبهاءً، وترتسم على وجهه ابتسامة كريهة، لقد كان هناك في حفل دكتور نيلسون، حضر الحفل بدافع الفضول، حاله حال جميع مَن حضروا، ولكن عُرف عن فرنسيس استخدامه لطرق غير آدمية في تجاربه، ولكن مَن في إنجلترا كلها يجرؤ على تجريمه؟!، بجانب ثرائه وسلطانه عبر البلاد يُعَدُّ من أهمّ خصوم دكتور نيلسون، فلقد أوقف الرجل أكثر من مرة جهود دكتور نيلسون في علم الجينات متحدّيًا بعد أن أثبت وجهة نظره أمام لفيف من العلماء ليسحب نيلسون أذياله منكفئًا على إصلاح تجاربه مرة أخرى، حتى إنَّ نيلسون وفي مرة نادرة من المرات قصّ لكافنديش واقعة إهانة فرنسيس له على الملإ أمام عددٍ كبيرٍ من العلماء، وأحس كافنديش حينها بأن فرنسيس يعرف نيلسون جيدًا بل إنه يكاد يعرف تطلّعاته جيدًا، ولكنه دائمًا ما كان يقف لها بالمرصاد، فهل كان فرنسيس يتعمّد ذلك أم أنه ووفقًا للتطبيقات والنظريات العلمية كان ببساطة على

حقٍّ؟!، هل كان نيلسون يكره فرنسيس؟!، أم العكس؟!، الرجل بطبعه كان معروفًا بقسوته في المعاملة مع الجميع حتى إنَّه استأثر وحيدًا بثروة عائلته بعد أن أطاح بأخ وأختٍ له ولم يمنحهما جنيهًا واحدًا، يكرهه خدمه ويعتبرونه شيطّانًا في شكل آدمي، نجح أكثر من مرة في وضع نظرياتٍ جديدةٍ في علم الأحياء، ويعتبر نافذة فلسفية مختلفة ومخيفة حيث صدر له أكثر من كتاب، منها «**اللوم على الله**»، «**لا شيء ثابت**»، «**من أجل الشيطان**»، كلها كتبٌ ذاع صيتها عبر البلاد وكثر حولها الجدل، وقد أثارت كافنديش نفسه وساقَتْه لمدة غير قصيرةٍ، واستولتْ على أفكاره، ولولا عناية الله وعقل كافنديش المفكر لانساق خلف أفكار ذلك العالِم المجنون والغريب، تعجّب كافنديش كثيرًا وتساءل عمّا همس به فرنسيس لنيلسون يوم الحفل! ذلك الشيء الذي أثار حفيظته، من المعروف عن هذا الشيطان بأنه لا يكاد وحسب معرفة مَن حوله به يؤمن بشيء ألبتّة، ويتجنبه العلماء الآخرون خوفًا من مفاهيمه واعتقاداته المخيفة، وعلى جانبٍ آخر يكاد يكون علمه متّقدًا للدرجة التي تجعله مرفوضًا لعجز فهمه، وكان كافنديش يؤمن بتلك النقطة جيدًا، بأن عُسر الفهم يدفعنا للتخوّف والابتعاد عن المجهول، فهل كان كافنديش يخشى الرجل فعلًا؟!، أم أن الحماسة التي تملّكتْ منه وهوسه العلمي هما ما دفعاه لتكبُّد تلك المشقة الغامضة؟!

ترجّل من العربة وهو يواجه القصر المهيب المظلم، وقف لحظةً مفكرًا ولا يعرف لِمَ أحس ذلك الإحساس المقبض المخيف؟!

فرنسيس هورسلي- عام ١٩١٨.

حينما دلف كافنديش إلى المعمل الخاص بفرنسيس هورسلي وجد أنَّ هناك فارقًا كبيرًا بينه وبين معمل دكتور نيلسون، فذلك المختبر به العديد من الأجهزة والأدوات والمعدات التي لم يسبق له رؤيتها، كما أن المساحة تكاد تكون شاسعة مقارنةً بأيّ معمل رآه في حياته، وللحظة تساءل في نفسه عن حقيقة مساحة ذلك المنزل حيث إنّه لا يبدو من الخارج بمثل هذا الاتّساع الكبير، استطاع بحدسه أيضًا ومن خلال بعض أصوات الحيوانات الصادرة من مكانٍ قريبٍ أن يعرف بأن هناك غرفةً مغلقةً، يحتفظ فيها فرنسيس بالحيوانات التي يستخدمها في تجاربه التي لا يعرف عنها أحد شيئاً، وللحظة اقشعرّ بدنه لمجرد تخيُّل ما يفعله فرنسيس بتلك الحيوانات المسكينة.

وضع كافنديش منديله على فمه ماسحًا المختبر بعينيه متوجسًا، وتملؤه الشكوك باحثًا عن فرنسيس هورسلي حيث وجد نفسه وحيدًا بعد أن تركه الرسول عند الباب، في بقعةٍ بعيدةٍ في الظلام تحرّك شيءٌ واقتربَ منه، تجمّدت عروق كافنديش،

وأحس بأن ثقلًا غريبًا يغوص في أمعائه، ولكن بعد ثوانٍ ظهر فرنسيس هورسلي بهيًّا في كامل أناقته، يرتدي حلة رمادية أسفلها صديرية رمادية أيضاً تزين قميصاً أبيض، بينما هناك منديل له ألوان متداخلة ما بين الأبيض والأحمر ملفوف حول رقبته، تطلع إلى كافنديش لوهلةٍ دون أن ينطق حرفًا وعلى وجهه تعبيرٌ غامضٌ، ثم أخرج ساعته المعلقة في سلسلةٍ من جيب سترته الصغير ونظر فيها ثم قال بهدوء: «اتبعني يا سيد كافنديش».

تبعه كافنديش متوجّسًا بخطوات مترددة حذرة وأفكاره تحوم محلّقةً في فضاءات لا يعلم مداها، توقف فرنسيس فجأة أمام باب حديدي مغلقٍ ثم مال برأسه دون أن يدير وجهه، وللحظة لمح كافنديش شبح ابتسامةٍ يطلّ على وجهه، ابتسامة تكاد تكون مرعبة، خفق قلبه ولعن اللحظة التي وافق فيها على القدوم، ولعن ذلك الخوف الذي لم يحسّ له بمثيلٍ من قبل، أضناه البحث عن حدسه، بل أضناه عدم رضوخه إلى حدسه الذي أنبأه بأنّ الأمور لن تسير على ما يرام.

سمع خشخشة مفاتيح أعقبها انفتاح قفلٍ، وبمجرد انفتاح الغرفة سطع نورٌ غريبٌ مهيبٌ أغشى رؤية كافنديش، حتى إنّه وبلا إرادة رفع يده أمام عينيه وبعد ثوان فتحهما بهدوءٍ وحذرٍ حتى اعتادت عيناه على الرؤية وسط تلك الهالة العظيمة من النور التي لم يرَ مثلها مسبقًا، وللحظة أحسّ بأن فرنسيس اخترع الشمس، ثم سرعان ما لعن غباءه وخياله الجامح الخائب أيضًا.

حينما دلف إلى الغرفة وجد فرنسيس هورسلي جالسًا خلف مكتبٍ راسمًا ابتسامة ثابتة، وفي يده كأس مترعة بالخمر وفي مواجهته كأس أخرى، وكرسيّ وحيد في مواجهة المكتب، أشار له بالجلوس بحركةٍ من يده مرحّبًا، اقترب كافنديش بهدوء مفكرًا وقد حيّره خلوّ الغرفة تمامًا إلا من آلةٍ كبيرةٍ وغريبة تتوسط الغرفة ولا شيء غيرها، ظل يتفحّصها بهدوءٍ، لكنه أحس بأن عينيه ما زالتا تؤلمانه منذ اللحظة التي غشيه فيها النور الساطع.

جلس بهدوءٍ ثم تناول الكأس وجرع منها ثم أعادها أمامه مرة أخرى، حاول بقدر الإمكان تجنّب نظرات فرنسيس المخترقة لأعماقه، بدا الأخير مهيبًا في جلسته رغم بنيته الدقيقة، ابتسم فرنسيس هورسلي ثم أخرج غليونه وملأه بالتبغ ثم أشعله ونفث سحابةً كبيرةً من الدخان ثم قال: **«سيد كافنديش، أنت رجلٌ ذكيٌّ مؤمنٌ بالربّ، لكنك يا سيدي تؤمن أيضًا بالعلم، أليس كذلك؟!»**.

تطلع له كافنديش ثم قال: **«وما دخل العلم بالربّ؟»**.

قهقه فرنسيس بصوتٍ صاخبٍ عميقٍ كان له صدى غريب ومخيف، ثم قال: **«الربّ هو مالكُ كل العلوم يا سيدي، ولكن العامة يتصورون أن العلم أحيانًا ما يكون نقمة، والنقمة تتعارض كما تعرف مع الذات الإلهيّة»**.

لم يرد كافنديش ولكن فرنسيس انحنى قليلًا إلى الأمام ثم قال: «أنت رجلٌ مولعٌ بالعلوم ولكنك تخشاها، تقترب منها لكنكَ ترفض لمسها، تعترف بها وتتوق إليها كما يتوق فقيرٌ إلى حياةٍ هانئةٍ، يحلم ولا يسعى إلى حلمه».

تعجب كافنديش ولكن قاطع فرنسيس أفكاره قائلًا وهو يعود مستندًا إلى الخلف في كرسيه الوثير نافثًا سحابةً أخرى من الدخان: «تتساءل أنّى لي أن أعرف ذلك؟، صدقني يا سيدي أنت آخر مَن يسأل هذا السؤال، أنت مفتّش لا يشقّ له غبار ولم تقف قضيّة مهما بلغتْ غموضها في طريقه، ولكني أؤكّد لك بأني أعرفكَ جيدًا، أعرفك أكثر ممّا يتخيل عقلكَ وتبوح به أفكارك لك الآن، ولكن دعنا من هذه السخافات».

تململ كافنديش في مكانه ثم أسدل منديله ووضعه في جيبه ثم قال: «لقد طلبتَ حضوري، أرجو أن تخبرني عن سبب ذلك الاستدعاء».

«أنا لم أستدعكَ يا سيد كافنديش، أنت جئتَ هنا بمحض إرادتك الحرة وكان بإمكانك الرفض ولكن كما ترى، لقد اخترتَ بنفسك المجيء» قال فرنسيس بنبرةٍ باردةٍ واثقةٍ ثم أردف مغمضاً عينيه: «إنه فضولك الذي أتى بكَ إلى هنا، فضولك الذي يقودك كما قاد الكثيرين من قبلك أيضًا، ألا تعتقد معي بأن الفضول هو الميزة البشرية السامية التي قادت العباقرة للمجد وللجنون أيضًا وأحيانًا إلى الموت إن شئتَ الدقّة».

لم يعرف كافنديش ماذا يقول حيث صارت أفكاره أكثر تخبّطًا واكتفى بالصمت في حضرة ذلك الرجل الغريب، في تلك اللحظة نهض فرنسيس من مكانه وحينما هبّ كافنديش للوقوف وضع فرنسيس يده على كتفه ثم ربتَ عليه كإشارةٍ له بعدم النهوض ثم قال وهو يسير بهدوءٍ نحو الآلة الغريبة: «**اشرب كأسك يا سيد كافنديش، إن ذلك المشروب يهدّئ الأعصاب ويجعل صفحة العقل جليّة والأفكار ساطعة كما أنه سيعينكَ على تقبل هذا الكمّ من النور**».

رشف كافنديش من كأسه ولأول مرة يحس بطعمها الحلو الذي تتخلّله لذوعة طيبةٌ، فجرع الكأس مرة واحدة، ثم نظر تجاه فرنسيس ومن هول النور حوله شعر بأنه لا يراه لكنه ركّز بعينيه في الاتّجاه الذي مضى فيه، فرآه واقفًا ينظر للآلة موليًا له ظهره، تأمّله لهنيهة مفكرًا ثم أحسَّ بإحساسٍ غريبٍ يسري داخله، ثمّة هدوء يتسلّل إليه وشعور غريب بالخفة يتملّك منه حتى كاد يقسم أنه يطفو فوق الأرض، نهض من مكانه ثم مشى بخطواتٍ خفيفةٍ حتى وقف على بعد خطواتٍ قليلةٍ من فرنسيس ثم تساءل: «**ما اسم هذا الخمر؟!**».

«**الموت يا سيد كافنديش.. الموت**» قال فرنسيس بنبرةٍ قاطعةٍ فجحظت عيناه، فابتسم فرنسيس ابتسامةً غامضةً مكملًا حديثه: «**الموت، ماذا تعتقد عن الموت يا سيد كافنديش إن كان لي أن أسأل؟!**».

تلعثم كافنديش ولكنه قال في النهاية: «الموت هو نقطة عدميّة، إني مؤمنٌ به كما أؤمن بالحياة، لكنني كما ذكرت لك، هي نقطة ينعدم عندها كل شيء».

فهز فرنسيس رأسه بهدوءٍ: «وماذا تعتقد فيما بعد الموت؟!، إني أسأل الرجل الباحث المستنير الذي يبحث عن أجوبةٍ».

قال كافنديش ملوّحًا بيده: «مَن منا يعرف ما يحدث بعد الموت؟! عن نفسي إنّي مؤمن بحياة ما بعد الموت، بالعالم الآخر المجهول».

ابتسم فرنسيس ابتسامة العارف ثم أومأ برأسه ثم قال وهو ينحّي غليونه جانبًا: «سيد كافنديش، الموت هو الحقيقة الثابتة الوحيدة في حياتنا، أمر إلزامي، مفروض علينا، نتقبّله كما نتقبل وجودنا في هذه الحياة بل يكاد الأمر يفوق ذلك التصور، فمنّا مَن لا يتقبل وجوده من الأساس تحت أي ادّعاء أو اعتقاد كان، لكن في النهاية سواءً تقبلنا ذلك أو لم نتقبله يبقى الموت حقيقة راسخة لا يد لنا فيه، وإن تحدثت من وجهة نظرٍ دينيةٍ لأكون أكثر دقّة فستجد أن الله غالبًا ما ذكر الموت قبل الحياة في جميع الكتب المقدسة، أليس الأمر غريبًا؟!، إنك تتساءل في نفسك عن معنى ذلك الآن! وستسأل نفسك أيضًا سؤالًا بديهيًا حينما تدلف إلى اللاوعي؛ لتجد أنّ الله يخلق الحياة من الموت، الإنسان والنبات والحيوان من الطين، وقِسْ على ذلك جميع مخلوقاته التي نعرفها ولا نعرفها، للأسف يا سيد كافنديش إنّ

العقل يرى ما يريد أن يراه فقط ويرفض كل ما يدفعه للحقيقة؛ لأنه ببساطة يخشاها، يخشى مواجهتها، والحقيقة أنّي لا أعرف سببًا لذلك، ولكن ربما هناك العديد من الأسباب»، ابتسم ثم تابع وهو ينظر في عينيه ثم قال: «ربما لأن الوعي الجمعي لدى البشر جعلهم ينشدون السلامة، يبتعدون بل يفرّون من أيّ شيءٍ يحاول كشف الغشاوة من أمام أعينهم، وكأنَّ ذلك الأمر أعجبهم فنسوا ما أتوا خصيصًا من أجله، والغريب أنَّ في الكتب المقدسة أيضًا ستجد أنَّ حين وصول الموت يرفع الله عنك ذلك الغطاء لترى الحقيقة، لكننا للأسف لن نستطيع أن نعود لنخبر الآخرين بها؛ لأن الوقت ببساطة قد انتهى ولم يعد لك مكان في الحياة، هذه الحياة، الموت مخلوقٌ يا سيدي كما الحياة، هذه حقيقةٌ راسخةٌ عمرها عمر الإنسان نفسه على هذه الأرض، اتّبعني يا سيد كافنديش من فضلك»، مضى فرنسيس تجاه مكتبه بخطواتٍ ثابتةٍ وتبعه كافنديش مفكرًا فسمعه يقول وهو يجلس مرة أخرى: «كل الذين اقتربوا من الموت، سواءً تعرضوا لحادثٍ أو صدمةٍ أو فقدان شديد، أو مَن آمنوا بأنهم على وشك الموت، وأنا أقول إنّهم آمنوا فعلًا، مرّوا بتجربةٍ عظيمةٍ، منهم مَن رأى نفقًا مظلمًا في نهايته نورٌ ينتظرهم، ومنهم مَن أحسّ بأنه يطفو خارج جسده، ومنهم مَن أجزم بأنه رأى موته كاملًا حتى رُدت له الحياة مرة أخرى، وفي الحقيقة منهم مَن لم يحسّ أو يرى شيئًا على الإطلاق، كلها تجارب لم تثبت أمام العلم بشكلٍ

قاطعٍ وتفسيراتها جميعًا خالية من الصحة، أكاد أنفجر غيظًا ممَّن ينكرون الحقيقة، والحقيقة أنَّ هؤلاء الذين تعرضوا لهذه التجارب لم يعودوا كسابق عهدهم؛ لأن جزءًا فيهم قد استنار بشكلٍ أو بآخر، لكن ما جعلني متحيرًا أنهم جميعًا عاشوا تلك اللحظات بمادّيتها الحقيقية وبتوقيتها الحقيقي، فمثلًا في عالم الأحلام يكون الأمر مختلفًا حيث أجزم العلم مثلًا بأن الحلم لا يتعدّى ثواني معدودة ولكنك قد تعيش حياة بكاملها داخل ذلك الحلم لتستيقظ منه مستغربًا ومفكرًا، وأما عن الذين يمارسون الخروج من الجسد بأساليبهم المختلفة يؤكدون بأنهم يرون شيئًا مختلفًا في ماديته وتوقيته عن الحقيقة، أما حين مواجهة الموت بشكلٍ حقيقيٍّ، كل شيء يظل ثابتًا، الوقت بحقيقته والمكان بماديته ولكننا نحن الذين نختلف، أمر مدهشٌ وغريبٌ، أعرف ذلك «أخذ نفَسًا عميقًا ثم انحنى تجاه كافنديش قائلًا: «أنت تتخيل أنّي لا أؤمن بشيءٍ كما سمعت عني، لكني في الحقيقة مؤمنٌ تمامًا بوجود الله، لكني يا سيدي لديّ مشكلة غاية في البساطة بأني لا أكفّ عن التفكير والتطبيق، لم يخلقني الله ومعي عقلٌ لأمارس حياة العامة الغريبة، حياتهم التي تتمثل في العيش، الحب والزواج وإنجاب الأطفال وجني الأموال وكل تلك المسرّات التي تضخها الحياة ثم ينتهي الأمر كما جئنا تمامًا، بالتأكيد لم يخلقنا الله أيضًا لمجرّد التعبد في المعابد والكنائس والمساجد وغيرها من كلِّ دُوَر العبادة، إنّي أعتقد

أن تلك العبادات ليست أكثر من طريقٍ روحيّ، أو لنقل إحدى الطرق للوصول إلى الغاية، إلى السرّ من وجودنا، ألا تعتقد معي ذلك؟!، وإلا فقل لي بالله عليك: لِمَ مَنَّ الله علينا بهبة العقل إن كنا سنرضخ لغرائزنا التي فطرنا عليها دون تعبٍ؟، وكمثال بسيط، اجلب طفلًا حديث الولادة واتركه وحيدًا في مكانٍ ناءٍ، مع الوقت سيكتشف وحده غرائزه جميعًا دون مساعدة من أيّ شخصٍ، الجسد مبرمج على تلك الأفعال منذ اليوم الأول لولادتنا وربما قبل ذلك ولا يستطيع أيّ شخصٍ الإقرار بنفي ما أقول، ولذلك جاء فلاسفة وعلماء من قبل ليخبرونا بتلك الحقيقة الراسخة ولكنّنا رميناهم بالجنون والهرطقة ونفيناهم من حياتنا تمامًا؛ لأنهم ببساطة يعارضون ذلك السلام المزيّف الذي هوينا فيه بملء إرادتنا، وكما قال أفلاطون: الجسد ما هو إلا ستارٌ بيننا وبين الحقيقة، ألا تعتقد معي أنه كان محقًا فيما يقول؟!».

أومأ كافنديش برأسه وقد شعر بأنه أكثر خفة وهدوءًا وبأنَّ سلامًا غريبًا يستحوذ عليه فسمع فرنسيس يقول: «ألم تشعر يا سيد كافنديش بأحاسيس متناقضة من قبل؟! ألم تحس مثلًا بأنك لستَ أنتَ؟! بأنك شخصٌ آخر؟! أو بأنكَ عشتَ قبل ذلك؟! ربما أحسست لوهلةٍ بأنك نفس الشخص ولكن ليس هذا الوقت والمكان الذي ينبغي أن تكون فيه؟! ألم تدخل مكانًا مثلًا وأحسستَ بأنك دخلتَه من قبل؟! بل أحسستَ أحيانًا بأنَّ ثمة موقفاً أو محادثةً كاملة تتكرّر أمامك كأنكَ عشتَ تفاصيلها قبل

ذلك؟! سيد كافنديش إن العقل يسجّل كلّ شيء بدقةٍ متناهيةٍ، يترجم المشاعر والأحاسيس والأفعال وردودها ويحولها إلى تجربةٍ، أعتقد أن التعلم هو مجرّد صور من الذكريات والحب، هناك ذكريات لا نستطيع الإمساك بها وذكريات أخرى في طيّ الغموض، تلوح في الأفق من وقت لآخر لكننا لا نستطيع أن نجزم بها بشكلٍ قاطعٍ، ولا نستطيع إمساكها ورغم محاولاتنا نفشل؛ لأن الأمر يشبه القبض على شربة ماءٍ، وفي النهاية نضطر إلى تجاهلها، نحن نتجاهل الأمور الوحيدة التي لا ينبغي لنا أن نتجاهلها ونغرق في حياتنا حتى نموت، كما ذكرت لك الإنسان كائنٌ مفعم بالنسيان ومليء بالتناقضات، يدفع نفسه دفعًا خلف ستار جسده بشهواته وملذاته بملء إرادته خوفًا من الحقيقة، يغرق نفسه بيده ويقتل نفسه في النهاية ثم ببساطة ينشد الرحمة والغفران أملًا في حياةٍ هانئة بعد الموت، إني أكاد أنفجر يا سيدي، عجبًا لتلك الأنانية والتَّنَطُّعُ الغريب الذي يتمتّع به!».

أخذ كافنديش نفَسًا عميقًا وقد ألهمَته كلمات فرنسيس هورسلي وأحس بالأسف لما يكنّه الجميع من كرهٍ لهذا الرجل، نسي كل تلك الاعتقادات الخاطئة عنه وأحسّ بإجلالٍ عظيم ينبثق من داخله تجاهه، فسمعه يقول بهدوءٍ مبتسمًا: «**لو لم تكنْ أنت كافنديش، فمن تتمنّى أن تكون يا سيدي ؟!**». ابتسم كافنديش ثم قال: «**إنه سؤال يشبه تلك الأسئلة التي كنّا نلقيها على بعضنا البعض أثناء فترة الطفولة**».

فبادله فرنسيس الابتسامة قائلًا: «لأننا حين الطفولة يا سيدي ما زلنا بشرًا، ما نزال نملك العقل الذي وهبنا إياه الله دون تدخّلات من الأعراف والمفاهيم من البيئة والمنزل والمجتمع ودُور العبادة التي تؤسّس معتقداتنا ومفاهيمنا فيما بعد، والآن أجبني كما لو أنك طفلٌ صغيرٌ».

تململ كافنديش في مكانه شاعرًا بالخجل ثم قال: «كنت أتمنّى أن أصبح عالمًا».

أومأ فرنسيس برأسه متفهمًا: «لم يكن عندي شكٌّ في إجابتك، بالنسبة لي لكَمْ تمنّيت أن أكون محققًا عظيمًا يكتشف خبايا الإنسان من خلال جرائمه المروعة». ثم ابتسم ابتسامة حالمة ثم أضاف بهدوءٍ وبنبرةٍ قاطعةٍ: «لذلك اخترتكَ أنت بالذات لتقوم بهذه المهمّة «استغرب كافنديش ولكن سرعان ما قهقه سعيدًا بهذا الاعتراف فبادله فرنسيس ابتسامةً طيبةً ثم قال: «تتساءل بالطبع يا سيد كافنديش عن السبب وراء طلبي في مجيئك، ببساطة أردت أولًا أن أزيل بعض الغشاوة من على عينيكَ كما أردت أن أؤمنكَ على أمرٍ مهمٍ بالنسبة لي».

ثم صَبَّ كأسًا أخرى لنفسه وكأسًا لكافنديش وهو يتطلع إليه بعينين تخترقان أعماقه، تناول الأخير الكأس وجرعها مرّة واحدة مستشعرًا حلاوتها اللاذعة والانطباع الهادئ الذي تتركه في النفس، تطلع إلى فرنسيس الذي قال فجأة: «هذه الآلة هناك، لقد رأيتها، بمجرد أن أموت أريدكَ أن تمنحها لدكتور نيلسون،

لقد تركت وصية بذلك، لكني أردت أن أتأكد من تنفيذها تحت رعايتكَ أنت بالذات؛ لأني موقنٌ تمامًا من جدّيتك وأمانتك، ربما تتساءل عن ماهية الآلة لكني لن أستطيع إجابة هذا السؤال؛ لأنه أمرٌ شديد الأهمية والسرية، وللأسف لا أستطيع أن أعلن عنها في وقتنا الحالي، اعتبرها كما تشاء وفسر حولها الأقوال كما تشاء، لكني أؤكد لك أنها باكورة أعمالي واجتهادي لسنين طويلة جدًا ولن أئتمن ثمة شخصاً عليها سوى دكتور نيلسون، فهو الوحيد الذي يعرف قيمتها الحقيقية».

أحسّ كافنديش بأنه يطفو تمامًا في اللحظة التي قال فيها: «**لكَ كلمتي يا سيدي، سأنفذ وصيتكَ مهما كلفني الأمر**».

أومأ فرنسيس ممتنًا ثم ابتسم ابتسامة غريبة غامضة في اللحظة التي سقطتْ فيها رأس كافنديش على المكتب ليذهب في نوم عميقٍ، فقال فرنسيس بهدوءٍ وغموضٍ وابتسامة مخيفة ترتسم على ملامحه: «**أنا واثقٌ يا سيدي بأنكَ ستنفذ الوصية.. واثقٌ تمامًا**».

تشارلز كافنديش عام ١٩١٨.

صحا كافنديش من غفوته ورأسه يئنّ بآلام عميقة، نظر حوله كأنه يكتشف وجوده، وجد نفسه في مكتبه داخل مكتب إدارة شرطة سكوتلاند يارد، أخذ نفسًا عميقًا محاولًا استذكار ما

حدث وسرعان ما لبث أن هرول سريعًا ووقف أمام مرآةٍ صغيرة يضعها على جانب مكتبه، نظر في ملامحه متوجسًا للحظة، وشرع ينظر لنفسه كأنه يكتشف نفسه لأول مرةٍ، يكتشف وجوده ويتأكد منه، كانت عيناه تبثان نظرة غريبة ومخيفة، تبرقان بلمعة جنونية، خالجته الكثير من الأفكار وهو يتأمل هيئته لكن انتزعه من داخل أفكاره المتلاطمة صوت قرعات الباب، تململ قليلًا ثم جلس على كرسيّه مرة أخرى بعد أن هندم ثيابه ثم أمر الطارق بالدخول، دلف إليه رجل شرطة شابّ ثم قال: «**أتمنى أن تكون الآن بحالٍ أفضل يا سيدي**».

تطلع إليه كافنديش بنظرة مستفهمة فقال: «**لقد جاء بك بعض الرجال أمس وهم يحملونك حيث أمرتهم بنفسك بأن يأتوا بك إلى هنا بدلا من منزلك، ولقد قضيت الليل بطوله نائمًا على مكتبك، ولم يجرؤ أحد منا على إيقاظك**». فأومأ كافنديش برأسه محاولًا تذكر ما حدث بالضبط ليلة أمس وقد اعتلته أحاسيس غريبة متناقضة ثم قال رجل الشرطة مرة أخرى: «**لقد كانوا رجال العالم فرنسيس هورسلي، أعتقد أنك كنت عنده بالأمس ولديّ خبرٌ غير سارٍّ**».

فتململ كافنديش وتطلّع إليه مستفهمًا دون أن ينطق كلمةً. فأردف رجل الشرطة بنبرةٍ عمليةٍ لا تخلو من ضيقٍ: «**لقد وجدوا العالم فرنسيس هورسلي ميّتاً في معمله هذا الصباح**».

جحظت عينا كافنديش وأحسّ بأن الأرض تغور به في بئر عميقة، فسمع رجل الشرطة يقول مسترسلًا: «**لقد تأخّر على تناول إفطاره كعادته، وأرجعوا الأمر بانشغاله بأعماله، ولكن للأسف يا سيد كافنديش مرّ وقتٌ طويلٌ لم يظهر خلاله، فأحسوا بأن ثمّة أمراً مقلقاً يحدث فاضطروا لكسر باب المعمل فوجدوه مسجيًا غارقًا في دمائه على الأرض ورسالة واضحة بخطّ يده يوضح فيها ظروف انتحاره**».

أخذ كافنديش نفَسًا عميقًا ثم قال: «**سننطلق في الحال لتقصّي الحقائق**»، كان وقع صوته عليه غريبًا وأحسّ بأنه يستمع لشخص آخر»، وقبل أن يغادر الغرفة نظر تجاه المرآة ثم ابتسم ابتسامةً غريبةً.

«أحيانًا ما يثبت الضمير الإنساني غرابته الشديدة ضاربًا بعرض الحائط كل الأعراف الإنسانية ومتجاهلًا القيم الأخلاقية في سبيل إثبات وجهة نظره، الإنسان في مجمله شخصٌ مجنونٌ تقوده قناعاته سواءً أكانت جيدة أو سيئة، بريئة أو ظالمة، مُطَمئنة أو مخيفة، لكل منّا جانبٌ أسودُ مخيفٌ، لعلّ ذلك الجانب يحلّل بعض الأشياء المحرمة لتلقى قبولًا لدى ضميرنا المعتم في فترات متباينةٍ وغريبةٍ من حياتنا، الإنسان لا يعرف الحقيقة إلا في لحظات النهاية، في تلك اللحظات التي ينعدم فيها الكلام حيث ينقشع الظلام وتواجهنا الحقيقة الإلهية والأبدية متحدية، لكنها للأسف اللحظات التي لا نستطيع خلالها أن نخبر أحدًا

بالحقيقة؛ لأنه ببساطة كُتب لها أن تبقى مجهولة، وستظل هكذا حتى نهايتنا جميعًا، وإلا بالله عليك أخبرني: لِمَ يتكبّد البشر في كل مرةٍ نفس الأخطاء؟!، وكأنّ الإنسان بهشاشته وكبريائه الملعون يصمّم على المضيّ قُدماً نحو حتفه دون إدراكٍ للحقيقة الكاملة».

قرأ كافنديش تلك الكلمات من كتاب «**اللوم على الله**» لفرنسيس هورسلي ممعنًا في التفكير تتآكله التساؤلات ثم أغلقه ووضعه بجانبه على المقعد داخل العربة التي تقوده إلى قلعة فرنسيس؛ ليحقّق في موته، هالَته الكثير من التساؤلات وأحسّ بأن ذلك الموت كان محتمًا منذ فترةٍ طويلةٍ، ولكن هل انتحر فرنسيس فعلًا؟!، أم أن هناك شيئًا آخر مطموسًا غامضًا لا يعرفه أحدٌ؟!، أخذ نفَسًا عميقًا وهو يقف في مواجهة المنزل العملاق الشبيه بالقلعة ثم نظر إلى السماء بهدوءٍ وبدا كأنه يصلّي أو يتضرّع من أجل شيءٍ في سريرته، اقتحم المعمل ليجده مسجّيًا على الأرض سابحًا في دمائه وقد اخترقت رصاصة أطلقت من مسافة قريبة رأسه، الغريب أنه لم يجد المسدس الذي تمّتْ به عملية الانتحار إن كان فرنسيس منتحراً فعلا، استجوب الخدم جميعًا وقد أكّدوا له جميعًا بأنهم كانوا نيامًا ولم يكتشف أحدٌ جثته إلا عند الفجر وذلك الوقت تحديدًا الذي يتناول فيه فرنسيس إفطاره كعادته منذ سنين طويلة، وحين لم يظهر اضطروا لكسر الباب عليه فوجدوا ما وجدوا، عرف أيضًا بأن أحدًا لم يزره ليلًا سواه، وأكدوا له أنه آخر

مَن رآه ولم يره أحد قطّ بعد ذلك، وأكدوا له بأنهم وجدوه مغشيًّا عليه أمام باب المنزل الكبير حينما لمحَه أحد الخدم وقد بهتوا حينما وجدوه على تلك الحالة واضطروا إلى نقله إلى مكتب شرطة سكوتلاند يارد، علم أيضًا كافنديش من القائمين على حراسة المنزل بأنه لم يلفت نظرهم أيّ شيءٍ غريب أو حضور أيّ ضيف آخر ليلة أمس.

الغريب في الأمر أيضًا أن الخدم أكدوا أن فرنسيس لم يفارق المنزل لأيام كاملة اختلى فيه بعمله داخل المعمل، سمعوا خلاله صرخاتٍ مدويةً لكنهم اعتادوا على تجارب الرجل الشيطانية التي لا يعرفُ أحد كُنهها ولا طبيعتها، فتّش كافنديش في كلّ ركنٍ على علامة تقوده، على أيّ أثر لشخصٍ، ولم يجد سوى مذكراتِ الرجل الشخصية موضوعة على مكتبه، أثارته في بداية الأمر وفي غفلة من رجال الشرطة المنتشرين في مكان الجريمة استطاع أن ينتشلها ويدسّها في جيب معطفه، وجد هناك عددًا هائلًا من الحيوانات المسكينة التي قام فرنسيس بتعذيبها، وجد قططًا وفئراناً وكلابًا وطيورًا مختلفة، كما أنه أنه لاحظ وجود عظمة فخذ آدميّة في معمله فنظر إليها مدقّقًا وأفكار تدور برأسه، خرج من أفكاره على نظرةٍ غريبةٍ من ضابط مسنّ بصحبته، فتساءل كافنديش عن سر تلك النظرة فأخبره الأول بأنها المرة الأولى التي يراه فيها بدون ذلك المنديل في يده والذي يضعه دائمًا على فمه، ابتسم كافنديش ثم قال بلا اكتراثٍ وهو يلهو بغليون فرنسيس

الملقى على المكتب: **«لم يعد الأمر مهمًا بعد الآن»**، فازداد إحساس الرجل بالغرابة، لكنه في النهاية لم يقلْ شيئًا.

وجد كافنديش خطابًا موجَّهًا إليه باعتباره مفتّشا في شرطة سكوتلاند يارد ففتحه بهدوءٍ ثم همَّ بقراءته: سيد كافنديش المحترم مفتش شرطة سكوتلاند يارد، **«لا تقسُ على نفسكَ في البحث عن قاتلي، فأنا مَن قتلتُ نفسي، وأؤكد لك يا سيدي أنها ليست النهاية، إنها فقط البداية، وكن على يقين بأنني بينكم الآن»**.

ملحوظة : أرجو منكَ أن تنفذ وعدكَ لي وأرجو أن تسامحني.

ف. ه.

طوى كافنديش الخطاب في يده ثم تطلّع نحو الغرفة المغلقة التي توجد بها الآلة، ثم مضى نحوها بعد تفكيرٍ بخطواتٍ ثابتةٍ وأمر بفتحها، دلف إليها بهدوء وابتسامة داخله يجتهد في إخفائها، تطلّع إلى الآلة المهيبة، بدَتْ له على شكل أخطبوط عملاق، مصنوعة من الفولاذ لها ثماني أذرع عملاقة تخرج من رأسها الذي يبدو على هيئة كرةٍ كبيرةٍ ويمتد حتى يصل إلى الأرض، على جانبي الآلة توجد ـ على امتداد الذراع في أقصى اليمين والذراع في أقصى اليسار ـ مساحة يمكن لشخص مهما بلغ حجمه الوقوف أسفلها، بينما توجد ذراع في رأس الآلة يعمل

على تشغيلها، فكّر قليلًا ثم أمر بتغطية الآلة بشكلٍ جيدٍ، وأغلق الغرفة بإحكام واحتفظ بمفتاحها معه.

وقف كافنديش في اليوم التالي في مواجهة دكتور نيلسون الذي بدا مختلفًا تمامًا عن الأسبوع المنصرم، مهندمًا ومتأنقًا، جالسًا في مكانه بثبات يحتسي قهوته، بدا جامدًا، عيناه غائمتان وباردتان تعكسان بريقًا جنونيًا، ورغم ما أبداه من هدوءٍ إلا أنه أحس بأنه يداري ضيقًا داخله، كما أنّه لمح الجريدة أمامه على خبر انتحار العالم فرنسيس هورسلي، نظر له نيلسون نظرةً خاطفةً ثم دعاه بإشارةٍ من يده لمشاركته الجلسة، خلع كافنديش قبعته الطويلة التي جلبها لنفسه خصيصًا قبل زيارة دكتور نيلسون ثم بهدوءٍ متأملًا الرجل جلس في مواجهته، شعر بشيءٍ من السعادة الحذرة وهو يتأمّل نيلسون بعد أن عاد بشكلٍ جزئيٍّ إلى سابق عهده، أخبره بهدوء عن انتحار العالم فرنسيس هورسلي فلم يبدُ على نيلسون تأثُّر، بل لم يعلق أساسًا على الخبر واكتفى بهزّةٍ من كتفيه، وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ غريبٌ حيث بدا له كأنه يتألم، طأطأ كافنديش رأسه ثم قال: «**دكتور نيلسون، كيف حال كريستيان ؟!**».

«**أوه.. كريستيان إنه بخير حالٍ، بدا مرهقًا فسمحتُ له بالراحة**»، غلب على صوته الفتور على غير عادته حينما يتحدث عن كريستيان.

«ألم يؤذكَ موت زميلك وعدوك أيضًا فرنسيس هورسلي بهذه الطريقة المخزية؟!».

لمعت عينا دكتور نيلسون قبل أن يجيب **«فرنسيس لم يكن عدوّي، قد نكون اختلفنا في بعض الأمور ولكن مَن في إنجلترا لم يعانِ من جنونه وكبريائه المحموم ؟!، وبالنسبة لواقعة قتله، كلّ إنسان ينال جزاءه يا كافنديش، ورجل كفرنسيس يستحق رصاصة في رأسه المجنون».**

سرت رعدةٌ في جسد كافنديش وهو يتأمل دكتور نيلسون الذي عُرف عنه مدى نبله حتى مع أعدائه، فما الذي حدث؟!، ولِمَ تلك القسوة في نبرته حينما تحدث عن موت فرنسيس هورسلي على عكس ما عاهده فيه؟!، اقتحمَته الشكوك وحاوطته فقال: **«لكني لم أذكر شيئًا عن الطريقة التي قُتِل بها فرنسيس يا دكتور نيلسون، كما أنّ الصحف لم تذكر شيئًا كما أمرت عن الطريقة التي أودت بحياته ؟!».**

ابتسم نيلسون ابتسامةً باردةً ثم قال بثقة وهدوء، **«إنه أمر بديهيّ، ولا يتطلب ذكاءً يا سيد كافنديش، رجل كفرنسيس لا يستحق إلا رصاصة في رأسه، فالعقول القاسية لا بدّ أن تنفجر في النهاية لتشعر ولو بجزءٍ بسيطٍ من الآلام التي سبَّبَتْها لمَن حولها، لِمَ تبدو شاحبًا هكذا يا صديقي الطيب؟! اشرب شايكَ، سيبرد».**

لمعت عينا كافنديش واكتسى وجهه بالدهشة التي ألجمَتْ لسانه، لم يكن ليجرؤ على توجيه الاتهام لدكتور نيلسون لمجرد

الشكَ، كما أنه لا يوجد لديه دليلٌ ماديٌ واحدٌ على صحة شكوكه، لا يملك سوى مذكرات شخصية لرجل غامض، كما أن المجني عليه قد يرغب في قتله كلَ سكان إنجلترا، وفي النهاية مات منتحرًا، لكن الغريب حتى الآن بأنَّ المسدس المستخدم في عملية الانتحار لم يتمَ العثور عليه، فأخذ كافنديش نفَسًا عميقًا ثم قال: «**إني هنا في مهمّة محددة وعليّ تنفيذها على وجه السرعة، لننحّ صداقتنا جانبًا الآن، لقد ترك لك فرنسيس هورسلي جزءًا من إرثه**»، لمعت عينا نيلسون بمجرد سماعه لتلك المعلومة ونهض من مكانه ناظرًا من الشرفة خلفه مفكرًا وتكاد الدهشة تغشاه فسمع كافنديش يقول: «**لقد ترك لك آلةً عملاقةً، كان ذلك طلبه الأخير مني، لقد زرته ليلة مقتله قبل أن يردي نفسه قتيلًا، لن أدخل في تفاصيل كثيرة ولكن أعلمني بمجرّدِ توفر الوقت لديك لاستلامها، فتلك كانت وصيته الأخيرة**».

استدار نيلسون ناظرًا له نظرةً يملؤها الاستغراب ثم قال: «**زرتَه ليلة مقتله ؟!**».

قال كافنديش بهدوءٍ ونبرة قاطعة: «**نعم**».

رمقه نيلسون بنظرةٍ ناريةٍ لفترةٍ طويلةٍ، نظرة يحاول فيها سبر أغواره لمعرفة الحقيقة حيث لمعَتْ عيناه واتّقدتا ببريقٍ جنوني، أحسّ بأنَ ثمّة شيئاً غريباً يحدث ولكنه لا يستطيع التكّهن به ثم بهدوءٍ ونبرة عتابٍ قال: «**كافنديش لِمَ ذهبت إلى هذا الرجل؟!**» فرد كافنديش بهدوءٍ: «**لأعرف حقيقته يا دكتور،**

أنت تعرف جيدًا بأن الأقاويل قد كثرت حوله، ولكني لا أستطيع إنكار مدى إعجابي به، وفي النهاية كلّ شيءٍ قد انتهى» تطلع له بنظرةٍ فاحصةٍ ثم قال: «بما أنّنا أصدقاء فلقد بُحتَ لك بلقائي بهورسلي، لكنك يا صديقي الطبيب لم تكشف الستار بعد عن زيارتكَ له!» تطلع إليه نيلسون بعينين ثابتتين لا تعكسان شيئاً فأردف يقول: «لقد أكّد لي الخدم وجودك أنت وكريستيان معًا منذ أسبوعٍ في منزله، كما أنني رأيته بأمّ عينيّ يزوركَ في ضيعتك بالريف خلال وجودك هناك، فقل لي يا صديقي إذن: ما الذي يدفع الأعداء لزيارة بعضهم البعض؟!».

حدجه نيلسون بنظرةٍ قلقةٍ دون أن ينطق بكلمة فاسترسل يقول: «الأعداء لا يعقدون الهدنات إلا في حالتين فقط، إمّا أنّ الحرب استنفدتهم وإما أنّ هناك مصلحة مشتركة أضحَتْ تجمعهم»، أنهى كلماته مبتسمًا ثم قال بهدوءٍ وهو ينظر في عيني نيلسون كأنّه يسعى للنفاذ داخل أعماقه لكن نيلسون ولّاه ظهره بغير اكتراثٍ، ثم قال بصوتٍ هادىء مسموع: «أعتقد أنّك تولي الموضوع اهتمامًا أكبر من حجمه يا كافنديش، وأنصحكَ بألا تفكر بتلك الطريقة، فما كان بيني وبين هورسلي لا يتعدّى كوننا اثنين جمعهما القدر في وقتٍ لا يجب أن نجتمع فيه، ولكنها الإرادة الإلهية في النهاية والآن...»، ثم استدار مرةً أخرى ونظر في عينيه متحدّيًا وقد بدا عليه بعض القلق ثم قال: «وأين تلك الآلة الآن ؟».

«**إنها في منزله**»، قال كافنديش مفكّرًا ومتأملًا ناظرًا في عيني دكتور نيلسون وقد أصابه الحزن والضيق كما أن التساؤلات لم تفارقه رغم اجتهاده الحثيث في إخفائها، والحقيقة أنّ تساؤلاته لم تكن متعلقةً بالشكل المادي الظاهر بل بالجانب النفسي غير المرئي الذي دفع نيلسون مثلًا للتكتّم على سبب زيارة هورسلي له وكذلك طريقته الغريبة التي أبداها لمّا سمع بانتحاره، كان كافنديش في الحقيقة يبحث في النفس بعيدًا عن ماديّتها الثابتة التي لا تتغير، لكن قطع حبل أفكاره دكتور نيلسون وهو يقول: «**لا أريد أن أستلم منه أيّ شيء، لا أريد أن أسمع عنه من الأساس، أرجوكَ يا كافنديش، تخلّص من تلك الآلة**»، بدا نيلسون منفعلًا ممّا أثار استغراب كافنديش الذي قال بهدوءٍ ودون مناقشة: «**كما تريد يا دكتور نيلسون.. كما تريد**».

فتح كافنديش باب الغرفة مغادرًا لكنّه اصطدم بكريستيان وشكٍّ بأنه كان يستمع إلى حديثهما، فما كان منه إلا أن ابتسم ابتسامةً غريبةً، وألقى عليه التحية ثم غادر في الحال، نظر إليه كريستيان حتى غاب تمامًا عن ناظريه ثم رمق دكتور نيلسون بنظرةٍ معاتبةٍ يشوبها شيءٌ من الغضب.

«أحيانًا يكون الموت هو الطريقة الوحيدة للحياة».

رائحة غريبة وكريهة محبوسة داخل ذلك القبو المظلم حيث لا إضاءة تخترقه سوى إضاءةٍ خافتةٍ لمصباح كيروسين معلّق على جدارٍ تتكدس أسفله بعض المعدّات الغريبة، أسلاك طبية، أسلاك معدنية دقيقة تخرج جميعها لتتجمّع في نقطةٍ واحدةٍ، داخل إناء صغير به سائل غامض موصول بموقدٍ، سرير صغير يستخدم كحمّالة وفوقه يستقر شيءٌ مغطّى بملاءة مضرجة بالدماء، يتخايل على الجدار ظلٌّ لرجلٍ يتحرك حركات هادئة متأنية، تتحول تحركاته فجأةً وتنفعل بشكل فوضوي كفأر يعبث، وسرعان ما يخيّم السكون والصمت على المكان، وكأنما العالم اختفى كلّيةً، ولم يبقَ في الوجود شيءٌ، أنفاس متلاحقة تعلو وتيرتها والإضاءة الخافتة تحاول رسم جزءٍ بسيطٍ من الحقيقة، تُكْشَفُ الملاءة، يظهر بشكل غير واضح ملامح بشرية في غاية التشوّه وقد ضُرِّجَتْ بالدماء، تظهر ابتسامة عصبية ودمعة واحدة تسيل بهدوءٍ لتسقط على الملاءة، يتمتم بشيءٍ ما وكأنها صلاة، يمدّ يده ويمسك بشيءٍ صلب لا تتّضح معالمه في الظلام، يرفعه فتقع الإضاءة عليه فيبدو لامعًا براقًا، انعكاس بريق طرفه الحادّ يغشي الرؤية أو يكاد، يصيح بعبارةٍ واحدةٍ: «**لتعلم أيّها الوجه أنّي بقتل صاحبك أمنحك الحياة**».

تهوي السكين على قلب الضحية، تسيل دماء المجني عليه ودموع الجاني، بعد ثوانٍ تُسمع ضحكات ترجّ القبو، ضحكات مخيفة وكأنما بُعِثَ الموتى من الظلام والمجهول، يهوي على الأرض مع توقّف غريب لضحكاته، صوت تشنجات يعقبه بكاءٌ حارٌّ.

ينطفئ رويدًا مصباح الكيروسين حتى يعم الظلام، وينتهي كلَ شيءٍ.

ينتهي تمامًا.

11

لا شيء على الإطلاق.

لا شيء على الإطلاق يمكن أن يفسر ذلك الخطاب الغريب الذي استلمه نيلسون في اليوم التالي لانتحار العالم فرنسيس هورسلي، والغريب أنّ ذلك الخطاب موجَّه منه هو شخصيًا ومؤرِّخ بتاريخ انتحاره!، لم يكن الخطاب طويلًا بل لم يحمل سوى كلماتٍ تثير الرعب في القلوب، قرأ نيلسون الكلمات وهو في صحبة كريستيان وقلبه يتواثب في صدره من فرط الانفعال.

عزيزي دكتور نيلسون..

الموت واجبٌ أدّيته بنجاح، وأؤكد لكَ بأني أعيش الحقيقة الآن، الآلة معك، إمّا أن تفعل الصواب وإمّا أن تحطّمها وترفض الحقيقة.

كن متأكدًا من أنّي سأنفّذ وعدي، كن متأكّدًا يا صديقي الجاهل، فأنا رجلٌ يفي بوعوده دائمًا.

ف. ه.

قال كريستيان مهدئًا: «**دكتور نيلسون، لقد كتب الخطاب قبل انتحاره بالتأكيد، وكلّ ما فعله أنه أبلغ إدارة البريد بتسليمه لك اليوم**»، فرمقه نيلسون بنظرةٍ ذات معنى، فما كان من كريستيان إلا أن طأطأ رأسه متوترًا وقد غشيه التفكير، شيء في صدريهما يزداد ثقلًا مع كلّ يوم، ولكن لا مناص الآن من المضيّ قُدُمًا بعد كلّ ما حدث، لا شيْء سيوقف ما تغيّر وما سيتغير، تلك كانت الحقيقة الراسخة التي يدركها الاثنان.

أمَّا عن كافنديش فقد صار أكثر انشغالًا وتطلُّعًا، كما أنه قام بإخلاء طابق كاملٍ في منزله المكون من ثلاثة طوابق متواضعة للآلة، وقام بجلب باب حديدي للغرفة التي توجد بها، ثم قام بإغلاقه بإحكام ثم قام سرًا بإخفاء المفتاح في مكانٍ لا يعرفه سواه، قرر أن يُبقي على الآلة بعد ما تولّى مصيرها بوعدٍ أطلقه لفرنسيس، وفي الحقيقة حتى لو كان فرنسيس لم يطلب منه ذلك أو يئتمنه عليها لفعل نفس الفعلة أيضًا، في الحقيقة إنَّ كافنديش لن يفرّط في تلك الآلة مهما حدث ورغم أنه ربما يجهل طبيعتها إلا أنه وفي سريرته شبه واثق بأن تلك الآلة يوما ما ستقود مصيره وربما ستكشف بغموضها بعض الأمور المريبة التي ستحدث قريبًا، اتَّقد بالحماس والانفعال مع كلّ يوم يمرّ وصار مندفعًا بشكل كبيرٍ نحو العلم، لا يتوانى عن حضورٍ أيّ ملتقى علمي أو اجتماعي مختلطًا بالناس بشكلٍ كبير، كما لو أنّه متعطش للحياة، بل كما لو أنه يعيش الحياة كما لم يعشها من قبل ورغم ذلك لم

تتوقّف زياراته لصديقه دكتور نيلسون الذي تقبّله بصدرٍ رحبٍ على حالته الجديدة المقلقة، فقد أضحى الأخير منكفئًا بعض الشيء على عمله، ينوء بحملٍ ثقيلٍ لا يعرف كُنْهه أحدٌ غيره، أحيانًا ما يشتعل بروح الألفة والصفاء وأحيانًا أخرى ينزوي في معمله لساعاتٍ وساعاتٍ دون أن يكلّف نفسه حتى عناء التفكير في مستقبله، فما الذي حدث لنيلسون بالتحديد؟! لا أحد يعرف!

أما كريستيان فقد صار أكثر ألفة عن ذي قبل، مقبلًا على الحياة، يكاد ينفجر سعادةً في أحيانٍ كثيرةٍ، لكنه انزوى بنفسه بعيدًا عن إيما تمامًا وقد تأكد الجميع بأنه لن يسامحها أبدًا، وذلك الأمر ما ألقى بالحزن والخزي في قلبها المكلوم من الأساس.

مرت الأيام سريعة إلا أنّه قبيل ذهاب كريستيان إلى الجامعة بأيام وجد نيلسون كريستيان يقف في مواجهة مرآةٍ ويمسك بيده شيئًا ما، راقبه عن كثب من مجلسه القريب، ثم وجده بهدوءٍ يضع ذلك الشيء على وجهه، لقد استطاع كريستيان أن يصنع قناعًا بدا طبيعيًا لدرجةٍ مخيفةٍ، ألصقه بوجهه وعدل من وضعيّته تمامًا ليتناسب مع وجهه حتى أضحى إنسانًا آخر، لا يمكن تمييزه أو التعرف إليه، دُهش دكتور نيلسون وشعر بالفخر لما يراه رغم بساطته وتساءل في نفسه للحظة عن سبب إحجامه عن صناعة قناع كهذا منذ زمنٍ، ولكنه كان يدرك الإجابة جيدًا بأن الأقنعة لا تدوم، مهما طالت المدة ومهما عظمَتْ جودتها فسقوطها هو النتيجة الوحيدة والمتوقعة، حريٌّ بالإنسان أن يعيش كما هو حتى

لا يأتي يوم ويجد نفسه مجرّد قناع، بلا وجه حقيقي وبلا هوية، أحزنه الأمر كثيرًا وفكّر فيه في خلواته لكنه في النهاية انصاع للأمر ولم يبدِ استياءه.

بدا كريستيان سعيدًا وهو ينظر لنفسه في المرآة، حتى هو لم يصدق ما يراه، وتمنى لو أنّه يمتلك ذلك القناع إلى الأبد دون الاضطرار إلى إزالته ليعود إلى دمامته المعهودة.

لم تسعد إيما بالقناع ورأتْ أنه أكثر دمامة من سحنته الحقيقية، وأجزمتْ بذلك أمامه بل قالت: «**لقد عشت ١٨ عامًا في ظلّ وجه يعرفك وتعرفه، والآن تضع قناعًا ينسيكَ هويّتك، فلا تبتئس إن قلت لك بأن ذلك القناع هو بداية نهايتك**».

حاول كريستيان أن يهدئ من روعها وأن يثنيها عن غضبها، ولكنها امتنعَتْ وحزنَتْ، فقال دكتور نيلسون فجأة وبانفعالٍ دون مقدّماتٍ وهو يستمع إلى حديثهما: «**لقد عاش معذّبًا برؤية وجهٍ لا يعرفه، ينظر في المرآة ولا يكاد يعرف مَن يكون! هل هو صاحبه؟! أم أنه صاحب الشخص الذي يقبع أسفله؟!، مَن يكون كريستيان في الحقيقة؟!، وجهٌ دميمٌ في مرآة أعينكم وأعين الجميع؟!، أم شخص حقيقي يعيش أسفل قناعٍ لا يد له فيه؟!، من يكون كريستيان يا إيما؟!، المرآة أم الحقيقة؟!، لا تحزني منه ولا تغضبي يا عزيزتي إن قال إنّه عندما يتطلّع لنفسه في المرآة ويدقّق النظر ولا يعرف نفسه، لا يعرفها على الإطلاق، فلا تلومي شخصًا يبحث عن حقيقته وسط الأقنعة**».

تطلّعتْ إليه إيما بنظراتٍ معاتبةٍ، لكن الصدمة كانت أشدَّ من أن تجعلها تنطق بكلمةٍ واحدةٍ ثم اكتفت بهزّة من كتفيها بعد أن رمقتهما بنظرةٍ قاسيةٍ وهرولتْ بعيدًا عنهما وقد غشيها إحساسٌ غريبٌ مقلقٌ، أحسّت إيما بأنها خسرت الاثنين معًا منذ فترةٍ طويلةٍ، زوجها وأوّل مَن شعرت تجاهه بشعور الأمومة الفطري، انصاعَتْ في النهاية إلى القدر ليقرر مصيرها.

انتهى الجدل حول القناع وجاء اليوم الذي سيغادر فيه كريستيان المكان الذي نشأ وترعرع فيه لأوّل مرةٍ، سيغادر لندن بما لها وما عليها، اقتحمه الحنين والوحشة وهو ينظر في عيني أخيه تشارلي البالغ سبع سنوات، ألجم دموعه بقدر ما استطاع وهو ينحني تجاهه ويقبّله ويعده بالعودة قريبًا بمجرّد انتهائه من دراسته ثم وقف في مواجهة إيما وأحاسيس متباينة تدبُّ في قلبه، ما بين الوحشة والحنين والحب والغضب لكنِ غلب كلٌّ تلك العواطف حبُّه الجمُّ الذي يكنُّه لها، الحبّ الذي قلّما عبر عنه حتى بينه وبين نفسه، اغرورقَتْ عيناه بالدموع وهو يتأملها ويتأمل معها سنين خلَتْ وحضرَتْ في ذاكرته المرة الأولى التي التقاها فيها فسالَتْ دموعه وهو يشعر بكلّ الامتنان الذي يمكن لشخصٍ أن يكنّه في قلبه لها، قبّل رأسها واحتضنها لمدةٍ طويلةٍ.

وقف في مواجهة دكتور نيلسون، انحنى له في تهذيبٍ ومشاعر جيّاشة تثور بداخله، تساؤلات عدّة تغلي وتفور داخله، حيره التّناقض الغريب في ذلك الشخص، القسوة واللين، الحب

والكره، الأمل واللامبالاة، سرٌّ واحدٌ كان باقيًا بين الاثنين، سرٌّ تعاهد الاثنان على إبقائه داخلهما إلى الأبد، لم يتحدّث أحدهما عنه طيلة مدة طويلة، ذلك السرّ الذي حمى كريستيان وقلب حياة نيلسون، سرّ ربّما سنعرفه مع مجريات الأحداث في أوقاتٍ لاحقةٍ.

⌛

الآن يقف كريستيان على حافّة باب القطار، يتأمّل المنتظرين والقادمين والراحلين، يتأمل ماضيه وحاضره ومستقبله، يقلّب النَّظر في ملامح البشر الثّرية بكل أنواع الأحاسيس والتعبيرات المدهشة، تذكر نصائح دكتور نيلسون ثم أخرج مظروفًا من جيب معطفه ثم ألقى نظرةً عليه مبتسمًا ابتسامةً غامضةً، كان مكتوبًا عليه «**البروفيسور هنري ويزلي**».

انتشله من داخل أفكاره صوت نيلسون الشاب وهو يقول مبتسمًا ناظرًا للسماء القاتمة والمنذرة بهطول أمطارٍ حيث عَوت الرياح وتطايرَت المعاطف «**هيّا بنا لنبدأ حياةً جديدة كريستيان**».

قال كريستيان بغموضٍ شاردًا «**نعم لنبدأ**».

12

في مواجهة منزلٍ كبيرٍ مغلقٍ ببوابة حديدية على أطراف مدينة كامبريدج وقف كريستيان يحدّق في ذلك العمران الذي بدا مهيبًا، بدا المبنى أشبه بكاتدرائية، بدَتْ في عينيه جسدًا بلا روح، عقلًا بلا قلب، ذكّره المبنى بتلك الكاتدرائية، كاتدرائية كولونيا التي طالما قرأ عنها حينما شرع في قراءة تاريخ العمران في أوروبا وتأثيره على العمران في العالم، أقرّ في نفسه أنّ المنزل تعود عمارته إلى الطراز المعماري القوطي، أخذ نفَسًا طويلًا ثم أخرج المظروف من جيبه وتأمّله للحظات ثم غمغم بالاسم «هنري ويزلي» كانت البوابة الحديدية العملاقة مواربة، دلف من الباب في هدوءٍ وحذرٍ، الصمت الموحش الذي يقطعه صوت حفيف الأشجار على جانبي الحديقة وعواء الريح يبثّ روح الخوف داخله، أخذ نفَسًا عميقًا مفكرًا فيما سيفعل، وجد أمامه على مسافةٍ غير قريبة المبنى العملاق يطالعه كوجهٍ قديمٍ في لا مبالاة تنمّ عن كبرياءٍ واستخفافٍ، مضى نحو وجهته في هدوءٍ حتى وجد نفسه أمام بضعة سلالم أُصقلَتْ بالجرانيت، صعدها بهدوءٍ

وما لبث أن لمح عربةً أنيقة تجرّها أربعة خيول سوداء قوية، تصهل في توتّر وهي تسير متمهلة حتى توقفتْ فجأة، لم يبدُ أن هناك حوذيًّا يقودها، توقّف كريستيان لوهلة منتظرًا أن يترجّل أحدهم من العربة ولكنه سمع صوتًا دافئًا من أعلى درجات السلّم يقول: «أنت لن تبقى هنا طيلة النَّهار، أليس كذلك ؟!».

تطلع إليه كريستيان مرتابًا وقد خالجه الشكّ وبلع ريقه بصعوبةٍ فسمعه يردف وهو يوليه ظهره: «**اتّبعني**».

بدا الرجل محدودب الظهر، يرتدي عوينات طبيةً لها سلسلة ذهبية، له عينان كبيرتان واسعتان زرقاوان، وأنفٌ معقوف وذقن حليق مدبب، كما يغطي رأسه شعر مشعثٌ كثيف شاع الشيب فيه، ذو قدم عرجاء لكنه يمسك بعصا ويمشي في خيلاء وسرعة غريبين مقارنة مع حجمه الضئيل وحالة قدمه، يرتدي معطفًا بنيًّا مهترئًا حال لونه، تبعه كريستيان سريعًا مفكرًا ثم دلف معه إلى داخل بهوٍ كبيرٍ مظلم وخالٍ تمامًا من أثاثٍ، بينما السقف موشى بصور الملائكة وصور أخرى للعذراء والسيد المسيح وهناك أيضًا ثريًا عملاقة غطّاها التراب تتدلّى في مهابة حتى تكاد تشعر بأنها ستسقط على أرضية المنزل، تطلع إليها كريستيان طويلًا متأملًا ومفكرًا حتى سمع صوت باب يفتح مصدرًا صريرًا موحشًا وكأنه لم يفتح منذ عصورٍ، ولمح الرجل يدلف منه فأسرع بخطاه؛ ليلحق به، حينما عبر الباب فاجأه ظلامٌ دامسٌ حاوطه من جميع الجهات، لكنه مع اعتياد عينيه على الظلمة رأى بصعوبةٍ بداية

درج خشبيّ يتجه نحو أسفل، سمع صوت قرقعة آتيًا من أسفل عقبه صوت خشخشة مفاتيح وباب عتيق يفتح وإذا بالرجل يقول: «**أسرع أيها الشاب قبل أن يدركك الكلب أوليفر**».

تخبط كريستيان وهو يهمّ بنزول الدرج سريعًا وقد حمّسه وجود كلب في المنزل، أحس للحظة بأنه يعيش رواية برام ستوكر «**دراكيولا**» بتفاصيلها الخلابة الموحشة، حينما وصل وجد نفسه أمام باب حديدي عتيق تزيّنه حلقة نحاسية صدئة ومكتوب عليه بلغةٍ قديمةٍ جملة لم يفهمها كريستيان، كان الضوء المتسلل من داخل الغرفة يضيء ما يسمح برؤية مفاتيح معلّقة داخل طاقةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ مدفونةٍ في الحائط لها باب صغير يناسب حجمها، فهم حينها صوت القرقعة والخشخشة، تقدم نحو الغرفة المجهولة بهدوءٍ وحذرٍ، دلف إلى الغرفة ليجد الرجل وقد أراح نفسه جالسًا على كرسيّ خلف مكتب أنيق في نهاية الغرفة الفسيحة المستطيلة، كانت الغرفة معبّأة بروائح مختلفة ولكنها كريهة، كانت بعض الروائح تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ تلك الروائح في معمل دكتور نيلسون، كما كان هناك عدد من الأدوات والمعدات المستخدمة في إجراء التجارب العلمية موضوعة على منضدة كبيرة تحتلّ مساحة كبيرة من الغرفة بينما هناك مكتب في نهايتها، لم يكن ثمّة نافذة أو أيّ نوع من التهوية للغرفة، لمح إناءً شفافًا يغلي بداخله سائل غامض وبداخله جسدٌ غريبٌ لم يتبينه، اقترب من الرجل الذي كان يمسك

بورقةٍ يقرأها وقد ولّاه ظهره، فلمح سبورة في مواجهته كتب عليها عدد كبير من المعادلات كما كتبتْ بخطٍ واضح أسفلها جملةً واحدة وقد بدا له من طريقة الكتابة أنها كتبتْ بشكلٍ غاضبٍ «**إنه الجحيم**».

تململ كريستيان في مكانه وتنحنح حتى استدار الرجل فجأة وتطلع إليه كأنه يراه لأول مرة وبشيء من الفظاظة قال: «**مَن أنت؟، وكيف وصلتَ إلى هنا؟!**».

تلعثم كريستيان لوهلة واختلجت عيناه متوترًا ثم قال بنبرةٍ مهزوزة: «**أنا.. أنا..**».

قاطعه الرجل الذي تأمّله من خلف عوينات: «**أوه، إنه أنتَ، اجلس أيها الشابّ**».

ثم عاد الرجل إلى القراءة مرّة أخرى كأنه نسي وجود كريستيان من الأساس، نظر الأخير حوله فلم يجد كرسيًا ولا أي وسيلة للجلوس، تململ في مكانه وحاول أن يتكلّم ولكن كبح نفسه في ظل وجود هذا الرجل الغريب الذي أُرسل له بناءً على طلب دكتور نيلسون وتذكر كلماته جيدًا: «**إنه الوحيد القادر على مساعدتك، قد يبدو لك مجنونًا بعض الشيء، ولكن يا كريستيان إن العباقرة مجانين ولهم طقوسهم الخاصّة وحياتهم المتفردة التي لن يفهمها أحدّ، هنري يستحق أن يكون في الصدارة ولكن بئسًا للعالم الذي يُلقي بنجومه اللامعة في بئرٍ سحيقةٍ، بينما يرفع نفاياته للصدارة، لا تخشَ الرجل، إنه لا يستطيع حتى إيذاء حشرة**».

أجزم كريستيان بجنون الرجل وما لبثت أفكاره أن اكتملتْ حتى تطلَع إليه هنري مرة أخرى وهو يتساءل بريبةٍ: «**من أنت ؟! وكيف وصلت إلى هنا؟!**».

امتعض كريستيان ولكن سرعان ما نهض الرجل من خلف مكتبه وقد بدا في نبرته أنه يوبّخ نفسه قائلًا: «**تبًّا لذلك العقل، فأنا لا أهتمّ بالتفاهات وأحيانًا ما أنسى وجودي نفسه، قل لي مرة أخرى أرجوك: مَن تكون؟**».

انحنى كريستيان بهدوءٍ واحترام وهو يقول: «**أنا كريستيان نيلسون ريفز، ولقد أرسلني دكتورُ نيلسون بنفسه ومعي هذا الخطاب وهو موجّه إليك**»، وناوله الخطاب.

تأمّله الرجل لهنيهة مفكرًا وكأنه ينقّب في ذاكرته وقد علا ملامحه تعبيرٌ بالوجوم، ثم تناول منه الخطاب متفرسًا وجهه بشكلٍ غريبٍ ثم قال وهو يقترب من وجهه بقدر ما استطاع: «**هذه ليستْ ملامحك، هذا ليس وجهك، أليس كذلك؟! قناع متقن، لا يستطيع الرعاع اكتشافه، أحسنتَ يا ولد**» فتح الخطاب وتنحّى جانبًا؛ ليقرأه بينما غاص كريستيان في أفكاره مندهشًا ومتفاجئًا بقدرة الرجل على اكتشاف سرّه بمثل هذه البساطة، من مجرّد نظرة، وأجزم في نفسه بفراسة الرجل وحدّة ذكائه.

انتشله من أفكاره وجوم الرجل وهو يغلق الخطاب وتطلّعه إليه وقد علا وجهه التساؤل والترقب، فقال كريستيان مرتابًا: «**هل هناك في الخطاب ما..**».

قاطعه هنري والفضول والترقّب ينضح به نبرته: «**اخلع قناعَكَ يا ولد، وأظهر لي حقيقتك**».

استاء كريستيان، ليس من الطريقة التي طلب بها هنري، بل من اختزاله الحقيقة في مجرد وجهٍ، الحقيقة لا تكمن في الملامح، إنّها في العقل والقلب، في دواخلنا، في أعمق أعماقنا، في تلك البؤرة الصغيرة البعيدة المتوارية داخلنا في الظلام، تمنى لو أنّه يقول ذلك ولكنه اكتفى بأنْ أولاه ظهره، وشرع ينزع القناع عن وجهه وحينما انتهى أحس بأن سكينًا قريبةً ستنفذ إلى قلبه، كسكاكين كثيرة سبق وأن نفذتْ وأوجعتْ وأدمتْ وأسالتِ الدموع، استدار بهدوء وخشية ليقف في مواجهة هنري الذي تفرّس في ملامحه مذهولًا وقد جحظت عيناه وفُغِرَ فُوه ثم قال: «**يا لبؤس السماء!، ويا لجمال الصانع!**».

تحيّر كريستيان من التعليق الغريب الذي ألقاه على مسامعه، فسمعه يقول: «**آسفٌ، لكني لم أستقبل ضيوفًا في منزلي منذ عهدٍ طويلٍ، ولا أعرف كيف تقضي أصول الضيافة؟، ولكن هناك نوعٌ رديءٌ من الشاي أحتفظ به في درج مكتبي، هلا أعددت لنا كوبين من الشاي؟**».

تأمله كريستيان مفكرًا ومندهشًا، وساورَتْه العديد من الشكوك والأفكار، إن الرجل متناقض بشكلٍ يدعو للدهشة، بل للريبة والفضول المميتيْن، أحسّ بأنه يعرفه بشكل أو بآخر، بأنهما تقابلا في مكان ما في هذا العالم الواسع ولكنه لا يستطيع الإمساك على تلك الذكرى البعيدة، أعدّ الشاي سريعًا في إبريقٍ

قديم بينما وجد كوبين من الفضة موضوعين على رفٍّ صغير في نهايةُ الغرفة، وضع الشاي أمام هنري الذي بدا مفكرًا وهو يطالع كتاب أمامه، أغلق الكتاب ثم مال برأسه قليلًا إلى الأمام وهو يلهو بكوب الشاي دون أن يمسّه ثم نظر إلى كريستيان قائلًا : «**أنتَ معجزةٌ يا ولد، معجزة أُرسلَتْ من السماء**».

قال كريستيان بخجلٍ حيث لم يأخذ كلماته على محمل الجدّ: «**إنك تبالغ يا سيديَ**».

أشار الرجل برأسه بحركةٍ نافيةٍ وهو يقول بنبرةٍ دافئةٍ كنبرة مدرّس في محاضرة: «**لا.. لا.. لا أبدًا.. إنّ ما تحمله من ملامح لا يدلّ على شيء سوى العظمة، قد تراه وجهًا قبيحًا ولكني لا أراه كذلك، فالبؤس يا ولد هو ما نلحقه بأنفسنا، هو تلك الاعتقادات التي نعتنقها فتصير سبيلنا إلى الحياة، لكن ذلك القبح، تلك الدمامة ما هي إلا جمال نادر تفنّن الخالق في صنعه، ربما أحسستَ على طول حياتك بأنّك تحمل لطخة أو وصمة عارٍ، لكن الحقيقة غير ذلك تمامًا، إنك تحمل دليلًا حيًّا على جمال الصانع وفنّه الفريد وما عليك إلا العيش مع تلك الحقيقة، تعلم أنّ تحول وجهك إلى سلاح تفتك به لا إلى سلاحٍ تُقتل به، أنت لستَ ضحية في رأيي، بل أنت تَجَلٍّ من التجلّيات العظيمة التي نادرًا ما يجود بها الله علينا**».

«**ما أشبه كلماته بكلمات السيد إدوارد مع اختلاف أسلوبها**» فكّر كريستيان في نفسه ثم قال: «**لكني لم آتِ إلى هنا**

من أجل وجهي، ولكن من أجل العلم، من أجل ذلك التغيير الذي أنشده، جئتُ من أجل البش....».

«لا تتحاذق عليّ يا ولد؛ فأنا لستُ أباك، أنت جئتَ هنا من أجل تغيير هذا الوجه، ولكني أؤكد لك بأن الأمر مستحيلٌ، مستحيل تمامًا، إنَّ علم الجينات لم يصل بعد إلى مثل تلك التقنية التي تؤهّله لتحويل الدمامة إلى جمال، ذلك الجمال من وجهة نظرك وعليك أن تمتثل لذلك، لا تجعل هوسك يقتلك».

«وبما أنك يا سيدي تعرف معنى الهوس، فأنت تدرك جيدًا بأني لن أتزحزح من مكاني هذا دون تنفيذ مأربي مهما كلّفني الأمر».

تطلّع إليه هنري طويلًا ثم ابتسم قائلًا وهو يناوله الكتاب أمامه: **«ابدأ بهذا الكتاب، أنا ألقي محاضراتي في الساعة التاسعة صباحًا».**

اعتدل كريستيان في مكانه متأمّلًا الكتاب ثم رمق هنري بنظرةٍ طويلةٍ متفحّصة فوجده ينظر إلى الفراغ، مشتّت الفكر، وقد غاص في أفكاره، فقال: **«ولكني..».**

فقاطعَتْه إشارةٌ من يده وهو يأمره بالانصراف دون أن ينظر إليه، خرج كريستيان من المنزل بهدوءٍ ثم توقف أمامه متأمّلًا، فسمع نباح كلبٍ صادرًا من الداخل، فهزّ رأسه مبتسمًا ومفكرًا في تلك المقابلة الغريبة وذلك المنزل الغامض، فسمع أحدهم يقول متوقفًا في مواجهته: **«أيّ جحيمٍ أرسلكَ إلى هنا أيها الدميم ؟!».**

13

صُعِق كريستيان في مواجهة ذلك الرجل العملاق مشوّه الخلقة، رثّ الثياب، لم يكن هناك أحدٌ في الجوار، كان القناع قد دُمّر تمامًا حينما قام بخلعه ونسي تمامًا بأنه يمضي قُدُمًا عاريًا إلا من حقيقته، أمسكه الرجل من تلابيبه بقوةٍ وحدجه بنظرةٍ تفور غضبًا، حدجه بعينه الوحيدة حيث ظللت عينه الأخرى سحابةٌ بيضاء بينما شوَّهت خلقته رقعة كبيرة من أثار حرق ليس بالقديم، ابتسم الرجل فبانَ ما تبقّى من أسنانه المشوّهة ثم قال: «كنت أحسب أنني مسخ لندن الوحيد، والآن أيها المسخ أعطني أموالكَ، وإلا أرديتك قتيلًا كما فعلت في تلك الحرب الملعونة».

كان يقصد بطبيعة الحال الحرب العالمية الأولى التي راح ضحيتها أكثر من ٩ ملايين مقاتل بجانب ملايين الأبرياء الذين لا ذنب لهم، في الحقيقة كان كريستيان قادرًا على صدّ تلك الهجمة الشرسة، فقد أضحى أكثر قوة وصحّة وأكثر طولًا حيث فاق طوله ستة أقدام، ولكنه أضحى أيضًا أكثر دمامة بشكلٍ لا تتقبّله عينٌ أو بصيرة مهما بلغ درجة تقبّلها، لكنه لم يفعل أو حتى يحاول، في

أعماقه كان متوجّعًا، تنهشه صدمة الظلم وتعيق تفكيره، وتساءل في نفسه بينما الضرب ينهال على وجهه بقبضةٍ قوية «**ألا تشفق المسوخ على بعضها البعض؟!، ألا يشفق ذوات الدم الواحد على بعضهم؟!، أنّى للعالم أن يكون بهذه القسوة ؟!**».

في تلك اللحظة كان ملقى على الأرض وضربات شديدة العنفوان والقوة يتلقاها في بطنه وعلى جانبيه فطفح الدم من فمه وأنفه حتى شعر بعد وهلةٍ بسكون غريب وسلام لم يعهده من قبل، اضمحلّت معالم الكون حوله وأضحت الرؤيةُ رمادية وباتت الأصوات تخفتُ رويدًا من حوله حتى انعدم كل وجودٍ له تمامًا، صار خفيفًا كريشةٍ ولم يعد شيءٌ يؤلمه في الوجود، لأول مرة منذ ولادته يشعر بهذا السلام، وفي الحقيقة كان كريستيان وللحظةٍ واحدةٍ ممنونًا لذلك القدر الذي ربَتَ عليه؛ ليمنحه حياةً من السلام الخالص، ليُخلص عقله من عذابات طالما آلمَتْه وسحقته تحت أقدامها الشائكة، كم أنَّ القدر رحيم!

كم أن القدر رحيم!..

هنري ويزلي – عام ١٩١٨.

رقد البروفيسور هنري ويزلي بجوار كريستيان داخل منزله في الطابق الثاني، غرفة فسيحة لها لمسةٌ من الفن القوطي لا تخطئها العين، حالها حال المنزل بأكمله، كان السرير ضخمًا وكأنه صُمِّم

خصيصًا لعملاقٍ من العصور البالية السحيقة، بدا ويزلي شارد اللبّ وهو ينظر لتلك الجروح التي لحقَتْ بكريستيان، لم يبدُ على ملامحه مشاعر معينة تعكس ما يدور بداخله، لكنه قبع في مكانه ساكنًا وقد ضمّد جراح كريستيان بيدٍ خبيرةٍ تعرف تمامًا ما تفعل، لم يكن لويزلي ثمّة اهتمامات حياتية، فلقد هجر العالم تقريبًا واقتصرتْ حياته منذ شبابه على العلم والتجارب والاكتشافات، سافر إلى بلدان كثيرة حول العالم، باريس، القاهرة، روما، فيينا، الإسكندرية، برلين، جنيف وغيرها من المدن باحثاً عن إجاباتٍ لأسئلته التي لا تنتهي، نسي حياة العامة، لم يتزوج أو ينجب ولدًا يرث ميراثه الضخم الذي ورثه عن عائلته العريقة، أهمل نفسه تمامًا حتى بات هو والعلم كيانًا واحدًا لا يمكن فصلهما، لم يعزه في وحدته سوى اكتشافاته المتواضعة في بعض الأمور الخاصة بعلم الأحياء، أما اكتشافاته الأخرى الأكثر قيمة فقد سبّبتْ له الألم حيث نعَته العديدون بالجنون، وآخرون بالإفلاس والهرطقة، سحب الرجل أذياله وبعد حربٍ شديدةٍ مع العلماء اتفقوا على أن يتخلصوا منه ويجعلوا منه محاضرًا في جامعة كامبريدج، وفي الحقيقة إنَّ محاضراته لم يكن يحضرها أكثر من بضعة طلابٍ يرون في الرجل عبقرية خباها العِند والكِبر والقهر أيضًا.

لم يتأثر ويزلي بكل تلك الأحداث ولكن ما كان يحزّ في نفسه مدى الضعف والإفلاس الذي وصل إليه العالم، لقد رحل كلّ مَن كان يحبّ في حياته ولم يتبقَّ له سوى أختٍ وحيدةٍ تكبره

سنًا تعيش في أستراليا لم يرَها منذ سنوات لانشغاله بوحدته وعلومه كما تبقَّتْ له أملاك لا يعرف عنها سوى القليل ولا يأبه لها حتى إنَّ العاملين لديه يسرقونه من وقتٍ لآخر من وراء ظهره دون أن يدري بينما يعيش وحيدا في هذا المنزل الكبير الذي يعود لجدّ أجداده والذي توارثوه جيلًا بعد جيلٍ.

كان يعمل بجدٍّ دون إهمالٍ أو إرجاء ويعرف أنَّ للوقت قيمة لا تقدر بأيّ ثمنٍ وأن الدقيقة الضائعة لن تعود، صارت ماضيًا لن يستطيع إمساكها أو القبض عليها، فقلَّما نام أو استراح أو منح نفسه شيئًا من المتعة التي ينبغي الحصول عليها لاستكمال الحياة.

استفاق كريستيان من غيبوبته شاعرًا بصداعٍ رهيب يدكّ رأسه وآلام متواصلة تجوب جسده، فتح عينيه بصعوبةٍ ليجد البروفيسور جالسًا بجواره يقرأ كتابًا، تطلّع إليه وفهم كلّ شيء، ابتسم ابتسامة حزينة متذكرًا ما حدث، حاول النهوض فأجفل البروفيسور، وسرعان ما منعه عن ذلك متعلّلًا بمدى عمق جراحه ثم قال بعد وهلةٍ وهو يتطلع إليه بعينين امتزج فيهما الحزن بالشفقة: «**الشيطان سلبَكَ كلّ شيء يا كريستيان، لا تحزن، إن العالم مليء بالأرذال ومعدومي الضمير، لقد وجدتكَ ملقى أمام المنزل عاريًا كما ولدتكَ أمك، وكأنَّ مومسًا بلا قلبٍ تركَتْ طفلها أمام كنيسة ليرعاكَ قسيسيها**».

نهض من مكانه سريعًا ووضع الكتاب جانبًا، لمح كريستيان عددًا من التماثيل المنحوتة، وجد فيها عمقًا في الشعور، وتنوعًا

ونشاطًا في الحياة، وتعاطفًا مع أشكال عالم النبات والحيوان جميعًا، وإنَّ فيها لرقة وظُرفًا ورشاقة، تململ في مكانه وهو يتطلّع إلى البروفيسور متسائلًا فأدرك الأخير ما يرنو إليه فقال: «**لقد كانتْ أسرتي مهتمَّة كثيرًا بالفن القوطي كما ترى، وفي الحقيقة إني لا أفهم شيئًا في هذا الفن، لكنه يتناسب تمامًا مع طبيعة حياتي المقفرة من كل سبيل للحياة العادية التي يعيشها البسطاء**»، ثمّ ابتسم ابتسامة دافئة وهو يلمح التساؤل في عيني كريستيان الداميتين المتورّمتين، «**لكلِّ شيءٍ ثمنٌ يا كريستيان، لن تحقق ما تريد دون أن تدفع ثمنه، فالمجد قد يكون ثمنه روحك أو ما هو أسوأ، كل ما يشغلني الآن سؤالٌ واحدٌ، لماذا لم تدافع عن نفسكَ؟!، وكيف سمحتَ لأحدهم بأن يسلبك كرامتك؟!**».

أدرك كريستيان أنَّ تلك هي طريقة البروفيسور فهو لا يعني بكلماته الحارقة أذىً، بل إنَّه لا يفكر فيها قبل النطق بها وربما ذلك ما أعجبه فيه، واضح وصريح، غير متكلّف ولا يأبه لرأي مَن حوله فيه، لقد انتزعتْ منه حياة الوحدة كل السمات الطبيعية للإنسان العادي، سلبته الطرق الاعتيادية للتعامل مع مَن حوله، في الحقيقة كان السؤال مؤذيًا ومؤلمًا حتى إنَّ كريستيان شعر بانقباض في صدره وتساءل عن حقيقة ما حدث: هل تصلّب بتلك الطريقة مستسلمًا تحت وطأة الخوف والصدمة؟! أم كان هناك شيءٌ دفينٌ آخر يحثّه ويدفعه لذلك؟!، هل توالي الصدمات والآلام التي لحقَتْ

به جعلت منه متبلّدًا خانعًا يأبى حتى الدفاع عن نفسه؟! أم أن هناك شيئًا آخر لا يفهمه؟! في الواقع لم تكن هناك إجابةٌ وذلك ما حيّره وجعله يغوص في أفكاره إلا أن البروفيسور انتشله من داخل تلك الدوامة الفكرية قائلًا: «**كريسيتيان، استمع لرجل عجوزٍ هرمه وعقّله الزمن، قد تفيدك تجاربه، أو بالأحرى قد يفيدكَ ما لم يجربه، اختلط بالناس، لا تجعل وجهك عائقًا، لا تفقد الحياة لمجرد أنكَ تشعر في سريرتكَ بأنها غير مؤهلةٍ لك، الحياة مؤهلة للجميع، فبعد سنواتٍ طوالٍ تأكد لي أن علم الأحياء يكمن في دراسة مشاعر البشر وأحاسيسهم وردود أفعالهم، ليس الأمر مقتصرًا على التجارب والمعامل والمختبرات، لكنه معتمدٌ في الأساس على الانخراط بين البشر ومعرفة ما يكنونه في دواخلهم المحيرة، لا تُضِع الفرصة كما أضاعها رجلٌ عجوزٌ**».

تطلع إليه كريستيان مفكرًا وقد سرى شيءٌ من الراحة داخله، تذكر فجأة ذلك السلام الذي أحسّ به حينما تعرّض للضرب المبرح، حاول ربط ذلك الأمر بالسؤال الذي ألقاه عليه البروفيسور قبل قليلٍ، وتساءل في نفسه: هل الراحة تأتي من الألم؟! أم أن الألم أحد الطرق لجلب السلام؟!، لم يكن هناك ولمرة أخرى إجابة! لكنه في سريرته كان مقتنعًا تمامًا بما يقوله البروفيسور، فما قيمة الحياة دون عيشها حتى وإن كان يملك كلّ شيءٍ؟!، وأحس بأن تلك هي معضلته الحقيقية منذ مجيئه إلى الحياة، لطالما حلم بحياةٍ بسيطةٍ عاديةٍ ينخرط فيها بين البشر، سمع البروفيسور يقول

في هذه اللحظات: «**لقد صنعت لك قناعًا آخر رغم أني أرفض الفكرة من الأساس، ولكن بعد أن وجدتكَ على هذه الحال بمجرد ظهورك الحقيقي فإني لا أَلومكَ إن ارتديته، الاختيار عائدٌ إليك، ستبقى هنا حتى تتعافى تمامًا**»، ألقى عليه نظرة ثم فتح الباب وانصرف.

لمح كريستيان في نهاية الغرفة شيئًا كبيرًا مغطًى بملاءةٍ، لم يسمح له فضوله بأن ينتظر ليكتشف ذلك الشيء، نهض من مجلسه بصعوبةٍ وأوجاع متواصلة تئنّ في جسْده، لم يكن يرتدي سوى سروال فقط بينما جذعه العلوي عارٍ تمامًا، أزال الملاءة بهدوءٍ ليكتشف وجود مرآة عملاقة خلفها، وبمجرد أن التقى بنفسه في المرآة حتى نأى بوجهه بعيدًا صارخًا رغمًا عنه غير قادرٍ على مواجهة ملامحه التي استحالَتْ لشكلٍ أكثر دمامة وسرعان ما سالتْ دموعه حارة على الكدمات والجروح في وجهه فآلمه ملحها، لكنه لم يأبه؛ لأن الوجع في صدره كان أكثر قوّة وعمقًا، تأوّه بصوتٍ مسموعٍ ثم عاد ببطءٍ ليطالع وجهه مرة أخرى في المرآة مغمضًا عينيه، وبعد هنيهة اختلجت عيناه من الألم ففتحهما بهدوءٍ وتأملٍ نفسه وكأنه يتأمّل ملامح شخصٍ آخر، لا يعرفه، لم يلتقِه قطّ في حياته، لا يتمنّى أن يلتقيه، ثم صاح وهو يضرب يده بقوةٍ في الزجاج: «**لتعلم أيها الوجه أنّي بقتل صاحبكَ أمنحكَ الحياة**».

14

كان المنزل الذي اشتراه له دكتور نيلسون منزلًا مميزًا، طابقان فُرشا بجميع الأثاث الذي تتطلّب إقامته على مدى دراسته، كما كان المنزل يتمتع بالأناقة، له حديقة خلفيةٌ عُني بها جيدًا، ابتسم كريستيان سعيدًا وقد غشيه الشرود للحظات، جلس على كرسي وثيرٍ في الردهة مفكرًا قليلًا ثم لمس بيده القناع الذي يرتديه وسرعان ما انخرط في الذكريات القريبة.

⌛

أغمض عينيه في مواجهة المرآة وقد كانتْ هناك بقع دماء متناثرة على جذعه العلوي، أمسك بالقناع ووضعه في مواجهة وجهه فحجب نظره عن المرآة، فتح عينيه بهدوءٍ ثم نظر أمامه، إلى تلك التفاصيل البسيطة التي صنعها البروفيسور في القناع، مال برأسه قليلًا وبتردُّدٍ لينظر إلى المرآة مرة أخرى ليرى انعكاس شكل القناع عليها، لكنه سرعان ما ارتدّ مرتعدًا من ذلك الوحش الذي يراقبه في المرآة، كانت نبضات قلبه مسموعةً مرتجفًا محاولًا

بشتى الطرق أن يكبح نفسه الفزعة فمال مرةً أخرى محاولًا تحدّي نفسه ونظر إلى نفسه متأمّلًا لهنيهةٍ مستغربًا كأنه ينظر إلى ملامح إنسانٍ آخر، ثم تقدّم خطوة للأمام والقناع ما زال بيديه ثم دون إرادةٍ منه عقد مقارنةً ما بين القناع الذي يحمله والوجه الذي يرتديه، الأول يدفع الناس للترحيب به واكتساب صداقته، يُعامل كما لم يُعامل على طول فترة طويلة مبلّلة بالقهر والدموع، والثاني ينبذه ويقصيه عن العالم في بئرٍ سحيقةٍ عجفاء بلا رشفة رحمة، ظل يتابع يديه وهي ترتفع رويدًا وتلتصق بوجهه حتى تحوّل كريستيان مرة أخرى لإنسانٍ لا يعرفه، وجه آخر كالذي يرتديه ولكنه وجه لن يجلب له العار والمذلة، العمل واحدٌ، والنتيجة مختلفةٌ، فكر كريستيان بشأن ذلك طويلًا وقال في نفسه: «**كل ما يلزمني أن أغدو الشكل الذي أراه في مخيلتي، أن أدقق النظر في ملامح البشر، أن ألتقط نفسي من بينهم، أنتزعها إن تطلّب الأمر ذلك، لقد عرفتُ رجلًا منبوذًا مثلي ذات يوم وأخبرني بأن القوة تكمن في الضعف، والسلاح يكمن في الجراب الخاوي إن آمنتُ بقدراتي، وأنا أملك ما لا يملكه أحدٌ، العقل المتقد والنظرة اليقظة والحكمة الاستثنائية والعلم المستنير، لتجري المشيئة كما يشاء الخالق**» ركع أمام المرآة وتلا صلاةً تعلّمها من أحد الكتب القديمة: «**الله يا مَن منحتني جمالًا مباركًا من فوق السماوات امنحني الجمال على الأرض، ولتنزلْ لعنتك على كلِّ**

دميم، ولتحلّ بركاتك على كلّ مَن يخلص العالم من نفاياته، ولتسامحني على إثمي العظيم.. آمين».

⌛

انتشله من داخل أفكاره صوت حوافر خيول في الخارج وصياح أحدهم، دلف إلى الشرفة الملحقة بالبهو ثم نظر خارجًا ليجد حوذيًّا بدينًا واقفًا بجانب عربته التي يجرها اثنان من الخيول، تردد قليلًا لكن قطع تردّده صوت الحوذي وهو يصيح: «**هل أنت السيد كريستيان ريفز ؟!**».

أومأ كريستيان برأسه بالإيجاب فقال الحوذي: «**لقد أرسل لك البروفيسور هنري ويزلي حقيبة معي وخطابًا، أرجو أن تستلمهما يا سيدي**».

هبط كريستيان سريعًا ثم استلم الحقيبة والخطاب من الحوذي الذي سرعان ما انصرف محيّيًا كريستيان بإيماءةٍ من رأسه وهو يقول: «**لقد أمرني البروفيسور بأن أصطحبكَ صباحًا إلى جامعة كامبريدج مع أني لا أرى داعيًا لذلك، فالجامعة ليستْ بعيدةً على الإطلاق من هنا حيث يمكنك الوصول إليها سيرًا باتجاه الشمال لمدّة لا تتجاوز ١٠ دقائق، لكنني أنفذ في النهاية أوامر البروفيسور**».

لم يعلق كريستيان، في الحقيقة كان يحتاج إلى تدريبٍ مع وجود هذا القناع الجديد، لكي يستطيع التحدّث وتحريك ملامحه بسلاسةٍ وليونةٍ، فقد كان ينقصه شيءٌ من المرونة واكتفى بإيماءةٍ من رأسه، تأمّله الحوذي متوجسًا للحظة ثم انصرف في حال سبيله، أدخل كريستيان الحقيبة داخل المنزل ثم فتح الخطاب سريعًا وشرع يقرأ:

عزيزي كريستيان الجميل..

لقد أرسلت لك بعض الملابس التي أرجو أن تليق ببنيانكَ القويّ وطولك الفارع، كما أرجو أن تناسب ذوقك الرفيع، فلا داعي لإخبار دكتور نيلسون بما حدث، فالرجل لا يحتاج إلى قلقٍ زائدٍ يضاف إلى مشاغل حياته، كما ستجد داخل الحقيبة أيضًا بعض الكتب التي ستفيدك في دراستك.

ملحوظة: ***«كريستيان، اقرأ ردود الأفعال جيدًا لتحصد ما تريد، إنّها طريقك الوحيد للخلود».***

تحياتي القلبية

بروفيسور: هنري ويزلي

ألقى كريستيان نظرةً على الحقيبة مبتسمًا وشاعرًا بالامتنان للرجل، وغامت عيناه في الذكريات، ولكنه استفاق سريعًا ثم أغلق الخطاب ووضعه بعنايةٍ بعد بحثٍ داخل الغرف عن المكتب حيث وجد غرفة مكتب أنيقة مزوّدة بمكتبةٍ كبيرةٍ مكتظةٍ بالكتب،

مكتب أنيق كما أنّ المنزل بأكمله كان يُضاء بالكهرباء، وضع الخطاب داخل دُرج ثم مضى خارجًا وفتح الحقيبة ووجد عددًا لا بأس به من القمصان الحريرية وأخرى مصنوعة من الصوف كما وجد سراويل ملائمةً له ومعطفًا أسود جميلًا مبطّنًا من الداخل بقطيفة أرجوانية، وجد بعض الكتب لكبار العلماء الإنجليز في علم الأحياء والجينات، لم يُطِق الانتظار وغلبه الفضول وجلس على الأرض بجوار الحقيبة وشرع يقرأ في الكتب، ينهل منها كعادته حتى باغتَه الليل وأرهقه التعب فنام في مكانه وكتاب مفتوح يستقرّ على صدره.

صحا كريستيان مرتجفًا على صوت دويّ الرعد، كان النَّهار ما زال يحاول نشر أضوائه الأولى عبر ظلمات الليل الذي خلَّف وراءه سحائب رمادية داكنة وقاتمة كأنه يعلن أنَّ روحه ما زالت تحوم بسماء إنجلترا وتحديدًا كامبريدج، في الحقيقة إنَّ كريستيان كان يحبّ ذلك الجو، بغضباته وثورته، بالخوف الذي يبثه في القلوب، حيث تخلو الميادين والشوارع من البشر ويبقى الريح يعوي والرعد يدوي وتسود الوحشة والسكون المقبض الذي ينذر بالسوء، أحسَّ كريستيان بأنَّ ذكريات الأمس هي ملكٌ للأمس، واليوم هو يومٌ جديدٌ قد يصاحبه أمل جديد وتحقيق مأرب عظيم، تحوَّلتْ انفعالاته فجأة ورويدًا إلى هدوءٍ نسبيٍّ حيث انداحت أفكاره في بئرٍ سحيقةٍ من ماءٍ عذبٍ.

قرَّر أن يلتقي المدينة الجديدة - كامبريدج - ويعيد فرصة التعرف عليها بعد ما حدث له، غشيه انفعاله مرة أخرى فارتدى ملابسه سريعًا، ظل يمشي في الشوارع بين المنازل والمحالّ والحانات يتابع الناس بعينين باسمتين وقلب مطبوع على الألفة والسعادة التي طالما تمنَّاها في أعماقه، دلف إلى إحدى الحانات ثم ألقى نظرة داخل المكان يتفحّصه قبل الدخول، كان المكان مكتظًّا بالناس الذين هرعوا إلى داخله اتّقاءً من غضب الطبيعة الموحش، وجد مكانًا شاغرًا في مواجهة الساقي، بدا له المكان مألوفًا كأنه رآه قبل ذلك، حتى الميادين والشوارع أحسَّ بأنه يعرفها للدرجة التي جعلَتْه يسير بحرية كأنّه تربى في كنفها، جلس ثم طلب من الساقي كأس براندي، نظر في الكأس مبتسمًا قبل أن يجرعها مرة واحدة والسعادة تغمره.

شرب كأسًا وأخرى، أعجبه المذاق رغم لذعته الأولى ولكن سرعان ما انداحت تلك اللذعة واستقر مكانها إحساسٌ فريدٌ بالسخونة والانتعاش، فطلب الثالثة والرابعة حتى غشيه السُّكر، فجلس يقهقه في مكانه دون سببٍ واضحٍ ثم صاح قائلًا موجّهًا كلماته في الفراغ شأنه شأن مَن غشاه السكر، «**إن اليوم هو يوم ميلادي المجيد، فاليوم أنا صاحب وجهٍ جديدٍ لا يكلّ ولا يملّ، رجل عادي يستطيع أن يمرح ويشرب الخمر كما يشاء، ينخرط كما يحب بينكم ولا يأبه لتعليقات اللوردات وذوي النفوذ في لندن الكريهة، ولا يكترث له العتاة والظلمة في أنفسكم، سأكون**

المبشر والموعود وسأنتشلكم من ظلام جهلكم» ثم نظر إلى رجلٍ قبيح ضخم البنية والسُكْر يتملّك منه ثم صاح: **«أنت أيها القبيح، لن تَظل قبيحًا هكذا وبيدي هذه سأجعل نساء الدنيا يتدافعن عليك أمَلًا في ابتسامةٍ واحدةٍ منك».**

اضطربت الحانة واشتد غيظ مريديها وحاول الرجل القبيح الضخم أن يهاجمه ولكن العقلاء أوقفوه بحجَّة سُكره وعدم وعيه بما يقول، فصاح أحدهم محاولًا أن يبث روح السخرية؛ ليهدئ الجو المضطرم: **«ومتى ستصبح ملك إنجلترا أيها المبشر؟!»**، ضحك الجميع استهزاءً فقال كريستيان بهدوءٍ وبلا اكتراثٍ: **«ليسقط ملك إنجلترا»** هنا اشتدّ الغضب فزأر الرجل القبيح وانفلت من بين الأيدي التي توثق حركته ولكَمَ كريستيان في أنفه لكمةً قويةً أسقطته على الأرض سقطة عنيفة ثم صاح مزمجرًا: **«قل لي كيف أفادكَ تبشيرك الآن أيها العفن؟!»**، ولكن للغرابة كان كريستيان يقهقه عاليًا رغم الدماء التي كانت تسيل من أنفه وفمه وحاول النهوض بينما التفَّ الناس حول الرجل القبيح الذي كان يسبُّه بأقذع الشتائم محاولين تهدئته ولكن كريستيان سقط مرة أخرى وقال بلسانٍ مخمورٍ: **«ليكن أيها القبيح، فأنت لديك القدرة على العيش بينهم»** وأشار بصعوبة على الناس حوله بشكلٍ استعراضيٍّ **«رغم أنهم جميعًا يرونك قبيحًا وفي قرارتهم ينعتونَكَ بالقبيح الدميم، ها ها ها، والمصيبة أنك تعرف ذلك وربما تتذلّل لهم وتنافقهم ليمنحوكَ ابتسامة مصطنعة وحبًا**

مزيفاً، إنهم في الحقيقة يدارون خبثهم ويلعنونكَ في سريرتهم ثم يبتسمون في وجهك دفعًا لقوتك المفرطة المثارة ولكن ليس حبًّا فيك، فالقبيح لا مكان له في ذلك العالم، ها ها ها»، تململ الرجل في مكانه وساد صمتُ مضطرب المكان وحينما هب القبيح مترددًا بعد أن أثرت فيه الكلمات لأن يضربه مرة أخرى صاح أحدهم قائلًا: «**إنه صديقُ لي، ولقد فقد إنسانًا عزيزاً عليه هذا اليوم، فلا تقسوا عليه أيها البشر، سأصطحبه إلى الخارج**».

عبر نيلسون الشاب بين المريدين وقد أفسحوا له مجالًا ثم أمسك بكريستيان ناظرًا له نظرة عطفٍ، ثم أعانه حتى وقف وساعده حتى خرج بعيدًا عن الحانة ثم أوقف عربةً تجرها الخيول وأدخله فيها، وحين استقر الاثنان داخلها تطلّع إليه نيلسون ثم قال وهو يمدُّ له يده بمنديل: «**أنت تذكّرني بصديقٍ قابلته في القطار، تملك فلسفته ولكنك لا تملك حكمته**».

تطلّع إليه كريستيان طويلًا محاولًا إفاقة نفسه والخروج من ذلك المستنقع الآسن، ذلك السُكر المعربد في روحه ويقظته، جمع صورة غير واضحة المعالم لمحدثه ثم قال بعد هنيهة مذهولًا ويائسًا: «**لترحمْني السماء وتعنِّي على بؤسي**».

15

عرف كريستيان الحقيقة بأنَّه لن يستطيع العيش مع عددٍ كبيرٍ من الأقنعة، لن يستطيع المضيّ قُدُمًا مع كل يوم يضع فيه قناعًا مختلفًا على وجهه، أنّى له صناعة وجه واحد بتفاصيل واحدة في كل مرة؟!، كيف يتسنّى له امتلاك تلك البراعة؟! لم تكن لديه ولا لدى أيّ أحدٍ القدرة على فعل ذلك، صُنعُ العجينة التي تتكون منها الملامح يتمُّ بشكلٍ فوضويٍّ مع الاحتفاظ بقياسات الوجه، وفي النهاية يخرج القناع بالشكل الذي قرّره لنفسه منذ البداية ولا تَدخُل في ذلك، سخر في أعماقه وضحك بشدةٍ ثم قال لنيلسون الذي بدا مستغربًا: «**حتى الزيف يا صديقي مزيّف، ها ها ها**».

أخبره كريستيان بصعوبةٍ عن مكان منزله، أعانه حتى أدخله إلى حجرته في الطابق العلوي وأراحه على السرير ثم ألقى عليه نظرة مبتسمًا بودٍّ وقال: «**أنت تعذّب نفسك وتعرضها للهوان وما أعرفه عن الحياة القصيرة التي عشتها بأن وحدهم البؤساء مَن يفعلون ذلك، ينغمسون في الإطاحة بأنفسهم كأنَّ الألم الذي**

يتسببون فيه لأنفسهم يعزّيهم عن بؤسهم، فلا تُلقِ بنفسك إلى التهلكة يا صديقي، وأنقذ نفسك من البؤس».

تطلَّع إليه كريستيان وقد بدا أنه يعاني صداع السكر، أحسَّ مع نسمات الهواء الباردة والمنعشة التي داعبته بأنه يستفيق رويدًا، لكن كلمات نيلسون الشاب كانت أكثر تأثيرًا عليه، تكدرتْ سحنته وغاص في بئرٍ سحيقةٍ من الألم، حاول استرجاع ما حدث في الحانة ولمّا عاودته بعض الأحداث حزن في نفسه وأحسّ بانقباضٍ في صدره ولعن نفسه والعالم معًا، نهض من مجلس وفتح الشرفة ناظرًا تجاه السماء القاتمة ولمح وميض البرق وهو يبرق في السماء فيخطف الأبصار وتمنَّى في سريرته لو أن يصعقه البرق وينتهي كل شيء في لَمحةٍ كما بدأ أيضًا في لمحة لعينة مسروقة من الزمن.

سمع نيلسون يقول بنبرة حكيم: **«صديقي الطيب، قد لا أعرفك جيدًا ولكني واثق بأنكَ لا تختلف عن شابٍّ قابلته خلال طريقي من لندن إلى هنا، لقد كان ذلك الشاب حكيمًا وواثقًا من نفسه وعلمه والحياة التي عاشها ورغم صغر سنّه إلا أنّه بدا لي أنه عاش دهرًا من الزمن، لا أنصحك بأن تكون ذلك الشاب ولكن أرجوكَ ابحث عن مرادك الحقيقي ولا تحذ عنه، فكثير من العظماء حادوا وفي النهاية لحقهم الخزي والعار، حتى المجانين يا صديقي لديهم فلسفتهم الخاصة التي لا نفهمها،**

فكن مجنونًا لو شئت، ولكن لا تضع فرصة الحياة التي منحها الله لك لسببٍ، ابحث عن السبب وستجد خلاصك».

شرع نيلسون الشاب في الانصراف حينما انغمس كريستيان في أفكاره بعد هذه الكلمات العذبة وجال في خاطره العديد من الأمور التي أهملها، فالحياة لا تكمن في معاشرة أناسٍ لو عرفوا حقيقته لرجموه بالطوب وحكموا عليه بالإعدام شنقًا حتى ترتجف قدماه مودعًا الحياة في صمتٍ تصاحبه اللعنات، الحياة أكثر قيمةً وبهاءً من ذلك بكثيرٍ، هبَّ من مجلسه بصعوبةٍ والصداع يسحب أذياله الأخيرة منه ثم قال لنيلسون وهو يفتح الباب: **«ما اسمك أيها الصديق الطيب؟!».**

«يمكنك أن تناديني نيلسون، لقد أطلق عليَّ والدي هذا الاسم تيمنًا بالعالم الموموق دكتور نيلسون ريفز».

صعقه الجواب حين سمعه يردف بابتسامةٍ واسعةٍ: **«يتمنَّى أبي لو أصير مثل هذا الرجل الرائع، وكم أتمنى أيضًا أن أصير مثله في عزته وثرائه وعلمه قبل كل شيءٍ ولكنك لم تقل لي ما اسمك؟!».**

قال كريستيان وقد شرد لبه: **«اسمي كريستيان، كريستيان جولد سميث».**

جحظت عينا نيلسون للحظةٍ ثم قال بعد تأملٍ وتفكيرٍ: **«يا الله، لقد كان صديقي الآخر، صديقي القطار، يحمل نفس الاسم أيضًا، إنك تحمل اسمه وأتمنَّى أن تملك حكمته»،** ثم انصرف

بهدوءٍ وكريستيان يتابعه، وبعد خطواتٍ قليلةٍ استدار وألقى عليه نظرة قائلًا: «إن أردتَ أن تجدني، فسأكون موجودًا غدًا في جامعة كامبريدج، إنه يومي الأولى للدراسة».

ودَّعه كريستيان بإيماءةٍ ومشاعر متناقضة وأفكار مختلطة ومتباينة تدبّ في مخيلته، كلها أفكار تتعلق بنيلسون ريفز، نيلسون ريفز الحقيقي.

هنري ويزلي - ١٩١٩.

مرَّ عامٌ على وجود كريستيان بالجامعة، كان عامًا مليئًا بالأحداث والمفاجآت، لاحظ البروفيسور هنري ويزلي أن كريستيان لم يغير القناع الذي أعطاه له بعد أن توصل إلى طريقة للحفاظ عليه مع استخدامه المتكرر له على الدوام، فكر في الأمر طويلًا وعن السبب الذي دفع كريستيان للاحتفاظ به لكنه بعد فترةٍ ليست بالطويلة استسلم للأمر برمّته ونحّاه عن فكره، لم يأبه البروفيسور لذلك؛ لأنه في الحقيقة أحسَّ بأنه لن يستطيع مجاراة عقل الشاب المتقد وطريقة تفكيره الاستثنائية، فقد عمد كريستيان إلى مكتبة الجامعة الضخمة لاستخراج أهمّ كتب العلوم وأندرها وكذلك الرياضيات وربط العلمين ببعضهما البعض، أضحى كريستيان منكفئًا على عمله ليلَ نهارَ كأنه لا يحس بالوقت ولا بالعالم من حوله، لم يكن يخرج إلا قليلًا،

حين يسود الظلام العالم، ترى كريستيان يسير وحيدًا أحيانًا بين الشوارع كأنه شبح يتوق للحياة الآدمية، اقتصرت كل تلك المرات على زيارة البروفيسور لسؤاله عن بعض الأمور التي تشغل باله وتحيِّر فكره، ساعده الأخير بما استطاع من قدرته وخبرته العلمية الطويلة وفي قرارته كان يحسّ بشيءٍ من الغبطة تجاه الشاب، فكم من مرةٍ أثاره فضوله العلمي وطريقته في تحليل الأمور وتفنيدها، كان كريستيان لديه طريقته الخاصة غير المتوقعة حتى إنَّ تجاربه لم تكن مفهومة بشكلٍ كاملٍ للبروفيسور وقد عمد كريستيان إلى السرية فيما يخص تجاربه، كما أنه ربط العلوم ببعضها للوصول إلى مأربه، شيء لم يفعله أحدٌ سابقًا وأضف إلى ذلك سنّه الصغيرة، فالشاب ما زال في مقتبل العمر وما زال لديه من الوقت ما يؤهله لأن يصبح منارةً علميةً تُخلد على صفحات التاريخ بحروفٍ من نورٍ، كل ذلك كان سببًا لأن يغبطه البروفيسور ويكنّ له كل الاحترام والتقدير ولكنه في سريرته كان يشعر ببعض الألم الذي يشعر به أستاذٌ تفوق عليه تلميذه حتى إنَّه في بعض المرات بدا حادَّ الطباع ضيق الصدر بوجود كريستيان.

ذات مرةٍ في إحدى المحاضرات التي كان يلقيها على الطلاب في الجامعة فاجأه كريستيان بسؤالٍ غاية في التعقيد ولم يستطع البروفيسور الإجابة عنه، فما كان من الشاب إلا أن عرض عليه تحليله الخاص بعفوية على الملإ أمام بضعة من الطلاب فأصابه الحرج وصعقته الدهشة لبراعته، لكنه أظهر غضبًا وانفعالًا

مبالغَيْن، واتَّهم كريستيان بالجنون والهرطقة رغم أنه يعرف في قرارته أنَّ الشاب على صوابٍ.

جلس في مكتبه داخل الجامعة في هذا اليوم حزينًا تتقاذفه الأفكار ويوخزه ضميره العلمي والإنساني قبل كلِ شيءٍ بما فعله لكريستيان داخل المحاضرة ولعن كبرياءه الذي تسبَّب في كل ذلك، أرسل في طلبه فجاءه الشاب ووقف في مواجهته ولم يبدُ على ملامحه المزيفة أنه يكنّ له أيّة ضغينةٍ أو حتى يأبه لما حدث، هنأه البروفيسور بقلبٍ يعتصره الحزن على ما توصل إليه، وفي الحقيقة إنَّ ذاك الحزن كان نابعًا من أمرين، الأول من إحساسه بالتدني والفشل أمام عقل مستنير كعقل كريستيان، والأمر الثاني من إحساسه بوخز الضمير بما ألحقه به من أذى وتهمةٍ لا يستحقهما على الملإ أمام الطلاب الذين يكنّون له – ويزلي ـ كل الاحترام، ويعتبرونه ثورةً علميةً وعقلًا لم يأت له مثيل رغم كل الأقوال التي كثرت حوله عن جنونه وهرطقته، وتكفيرًا لذلك الذنب طلب من كريستيان أن يستخدم معمله وقتما شاء ودون استئذانٍ علَّ ذلك الأمر يهوّن عليه ما يحسّ به، كما أنه أحس بأن ذلك العقل يحتاج لكل دعم وكل مساعدة ليصل العلم إلى مرحلة جديدة من التطور وتلك هيَّ الغاية الأسمى من الأمر كله بغضّ النظر عن المجد الشخصي وكل تلك المعاني الجوفاء التي لا تقدم شيئًا ولا عزاء للعالم.

لاحظ البروفيسور فيما بعد بأن كريستيان لا يضيّع الوقت، يقضي أوقاته ما بين الدراسة والبحث والتجارب في معمله. لا يُفلت دقيقة واحدة ويقبض على الوقت دون أن يبدّده في تفاهات حتى إنَّه كان يأكل بينما يعمل، وفي ليلة مطيرة موحشة تسلّل البروفيسور إلى معمله ليراقب كريستيان وما يفعله فوجده يكتب بعض المعادلات على السبورة ثم يقوم بعمل تجربةٍ منفعلًا والحماس بادٍ عليه، وسرعان ما ينفعل ويمسح المعادلات ويشرع في كتابةٍ أخرى، يعود إلى مفكرته الخاصة ويدون بها ملاحظة وسرعان ما يعود لبدء التجربة من جديد، وضع البروفيسور عويناته أمامه محاولاً قراءة المعادلات فعقدت الدهشة لسانه ثم أخرج سريعًا ومنفعلًا ورقة وقلمًا وشرع يدوّن ما كتبه كريستيان، حاول تفسير الأمر وتفكيك رموز المعادلة، ولمّا بانت له الحقيقة جحظت عيناه ودقَّ قلبه بعنفٍ كطبول الحرب وأَكبر عقل الشاب الذي يسعى لقفزةٍ علميةٍ قد تغير مجرى الأحداث بل تغير مجرى اتجاه العالم بأكمله، تسلَّل خارجًا وهو يجود على الشاب بأسمى عبارات الإكبار وأجلّها، وقد أحس بالزهو والخوف معًا، تسلَّل إليه الفزع فجأة ورأى أنه من واجبه أن يرسل في طلب دكتور نيلسون، دلف إلى مكتبه وشرع يكتب خطابًا موجّهًا للأخير لكنه توقف فجأة مفكرًا وقد ساوره شكٌّ فيما قد يحدث، قد يسعى دكتور نيلسون لتملك مشروع الشاب وحينها لن يضاف إلى الشاب مجهوده العلمي بل لن يصدقه أحدٌ مع وجود تلك الخلقة

البشعة التي يملكها مقارنة مع سمعة ونفوذ دكتور نيلسون، كما أنه لن يسامح نفسه لو أن ذلك حدث، أحس بالهمِّ يتثاقل عليه ويوهنه فأرجأ الأمر إلى وقتٍ لاحقٍ حتى يرى إلى أين ستقوده الأقدار؟.

هل كانت نية البروفيسور هنري ويزلي صادقة إلى تلك الدرجة؟! في الحقيقة لا، في قرارة البروفيسور كان يحنّ للمجد القديم حينما كان يتهافت عليه العلماء ويمجدونه، يتوق إلى ذلك الماضي البعيد قبل أن يقصيه الجميع وينعتوه بالهرطقة والجنون وقبل أن يتكاتفوا عليه ويلقوه في كامبريدج لينتهي به الحال محاضرًا ينتظر مَنيَّته، لقد بدَّد معظم أملاك وثروات عائلته من أجل مجد كالذي يسعى إليه كريستيان، فدعا الشيطان إلى نفسه وقرَّر مساعدة كريستيان بكلٍ ما استطاع من علم ومجهودٍ ومالٍ إن تطلب الأمر ولكنه في نفس الوقت قرَّر أن يتمَّ ذلك الأمر بسرية تامة وبشكل عادي أيضًا لا يشكك به كريستيان أو يثير حفظيته حتى لا ينقلب الشاب عليه وقد تكون العاقبة وخيمةً.

شرع يراقب كريستيان دون أن يدري، يتابعه ويرصده بدقةٍ دون أن يغيب عن ناظريه ولو لدقيقة واحدة، منذ بداية النَّهار حتى يعود إلى منزله من أجل النوم، بات كخفيره الذي يحميه ولكنه في الحقيقة كان يحمي تطلعاته وأمانيه، لاحظ في البداية أن كريستيان قلَّما انخرط بزملائه وينوء بهم، بل إنه يتجاهلهم في أحيانٍ كثيرةٍ متعمدًا ولكن مع الوقت لاحظ أنهم من وقتٍ لآخر يتجمهرون حوله ويسألونه في أمور شتى حول علم الجينات،

ولم يكن الشاب يبخل عليهم بعلمه، بل إنَّه مرة سمع أحدهم يشيد به ويسخر من ضحالة علم البروفيسور نفسه، دفعه ذلك الأمر لإهمال عمله والخروج معهم ومصاحبتهم في أوقات كثيرة من الليل أو النَّهار على حدٍّ سواء، علم في نفسه أن الشاب يفتقد تلك الحياة التي يفتقدها هو أيضًا، مَن ذلك الذي تُقدَّم له الحياة الحقيقية على طبقٍ من ذهبٍ ويرفضها؟!، مَن ذلك المعتوه الذي يجد التمجيد والحب على حد سواء ولا يقبل بهما؟!، إن مساعي كريستيان الحقيقية لا تتلخَّص في مجدٍ أو جاهٍ أو نفوذٍ، ولا يبغي من ورائها ثراءً مزيفًا، لا يتطلع إلى التحكم في مجريات العالم أو يسعى لحفر اسمه من نورٍ بين صفحات التاريخ، بل إنه يتوق لتلك الحياة البسيطة التي يتمتع بها الجهلة والمثقفون، النبلاء والرعاع على حد سواء، أن يصبح شخصًا له علاقات بمَن حوله لا يحكمها سوى الحب والسعادة والرضا فقط.

فكر البروفيسور بأن كريستيان لا يختلف عنه كثيرًا، بل إنه يكاد يشبهه تمامًا، كلاهما منبوذٌ ولكن كلٌّ على طريقته، ولكن الأماني والتطلعات مختلفة، ولم يصبح في العمر بقية لكي يحقق البروفيسور ذلك المأرب البسيط الذي يسعى إليه كريستيان، ولذا بات الحصول على المجد هو العزاء الوحيد له قبيل نهايته المحتومة على يد الموت التي لا ترحم، سرح بأفكاره بعيدًا حتى إنَّه تخيل أنه يستطيع هزيمة هادم اللذات، مفرق الأحباب، الموت، ولمَ لا وهناك عقلٌ لا يوجد له مثيل في العالم تحت رعايته وتصرفه؟!،

ولمَ لا والعلم الذي ابتغاه طول حياته بين يديه الآن؟!، لا شيء مستحيل في عالم يفاجئنا كل يوم.

صبر البروفيسور على تلكَ الحالة الجديدة التي أصابت كريستيان لمدة طويلة، فقد بات الشاب مقبلًا على الحياة، يخرج كثيرًا في صحبة شابٍّ يُدعى نيلسون ويبدو من لقاءتهما أنه يكنُّ له حبًا جمًّا وتقديرًا عظيمًا كما لاحظ ارتياده للحانات ليلًا بصحبة بعض الأصدقاء، بل إنه كوّن صداقاتٍ جديدةً داخل الحانة نفسها، وأضحى محبوبًا بشكلٍ كبيرٍ، وبات يرسل الخطابات بشكل منتظم إلى عائلته، عائلة ريفز، وينتظر بفارغ الصبر خطاباتهم حتى إنَّ دكتور نيلسون وإيما وتشارلي جاؤوا لزيارته ومكثوا لديه في منزله أسبوعًا كاملًا اصطحبهم خلاله في نزهاتٍ متكررةٍ، وسادت الألفة والحب الأجواء، أحس البروفيسور بأن غايته تخبو، وبأن لا سبيل لاسترجاع كريستيان نشيطًا ومبدعًا ومجتهدًا كما كان إلا إذا تدخل في الأمر وأعاد الأمور إلى نصابها السابق، إلى نصابها الذي يبتغيه، فلم يعد في العمر ما يجعله ينتظر أكثر، ناوشه الشيطان وتملَّك منه في النهاية وقرر أن ينفذ خطته.

جلس في مواجهة كريستيان في أحد الصباحات الدافئة على غير العادة ثم قال بنبرةٍ لا تعكس شيئًا: «**كريستيان، إنّي سعيد لأجلك تمامًا، لقد أضحَتِ الحياة أكثر جمالًا في عينيك، إني أغبطك على ما آل إليه حالك، وكَم أتمنى لو كنت مكانك**»، ثم

أشار بيديه بما يعني الاستسلام ثم أردف: «**ولكن ما باليد حيلة، نحن لا نحصل على كل شيء من هذه الحياة، أليس كذلك؟!**».

تطلع إليه كريستيان مبتسمًا، وفي الحقيقة كان مخمورًا بالسعادة التي حققها بعيدًا عن التجارب والمعامل، أضحى قلبه مطبوعًا على الألفة وينوء بكل ما يعكِّر صفوه وينحّيه جانبًا، فقال في هذه اللحظات وهو ينظر للبروفيسور من خلف قناعه: «**إن الحياة أبسط بكثيرٍ مما كنت أتصور يا بروفيسور، لم أكن أبغي منها أكثر ممَّا أملك الآن، ولا يهمني شيء آخر سواءً أكان ذلك الشيء علمًا أو جاهًا أو حتى ثراءً منقطع النظير، كل ما أتطلع إليه تلك الابتسامات الصافية والقلوب الطيبة وهذه الحياة البسيطة التي طالما حلمت بها، وقد هداني الربُّ بحكمته للرضا بما آل إليه أمري**».

ابتسم البروفيسور ابتسامةً ماكرةً ثم قال ببؤسٍ مصطنعٍ: «**العلم سيفتقد عقلك**».

بادله كريستيان ابتسامة حكيمة وهو يقول: «**العلم لديه من العلماء ما يكفيه، أما أنا فلديَّ ما يكفيني**».

استأذن كريستيان في الانصراف وحين هبَّ واقفًا قال البروفيسور: «**إني أتساءل يا كريستيان؟!**».

تطلَّع إليه كريستيان وهو يعدل من ياقة معطفه الطويل فاسترسل البروفيسور: «**أتساءل: ماذا لو انكشف القناع عن وجهك الحقيقي؟!، هل سيظل هؤلاء يحبونك كما يحبونك**

الآن؟!، هل سيقبلون دمامتك الاستثنائية بقدر ما يتقبلون وجهك المزيف؟!، لا أعلم حقًا!، إن الأمر محيّر بالنسبة لي ولا أكاد أفهمه لكنه بالطبع يستحق التأمل والتفكير، أليس كذلك؟!».

صمت البروفيسور وهو يتأمل ويشعر بوجه كريستيان الحقيقي متقوضًا ومتكدرًا ويحسّ بقلبه الذي غار في بئرٍ من العذاب والألم والتوجس، ثم قال؛ لينهي كلامه: «**لم أقصد قط أن أبدّد سعادتكَ، ولكني أردت فقط أن ألمّح لك بما يعتمل في صدري، فأنا أحبكَ وأنت تدرك ذلك جيدًا**» أومأ كريستيان برأسه ثم انصرف وقد علاه كدرٌ واضحٌ بينما تابعه البروفيسور متأملًا وآملًا أن تتغير الأمور.

مرت الأيام ولم يتغير شيءٌ، في البداية بدا كريستيان حزينًا في صحبة مَن حوله، ولكنه مع الوقت عاد إلى عاداته الجديدة مرحًا وسعيدًا، وذلك الأمر أغضب البروفيسور بشدةٍ فقرر العمل سرًا على معادلات كريستيان الأخيرة قبل أن تؤول الأمور إلى ما هي عليه الآن، حاول مرارًا وتكرارًا في معمله أن ينفذ ولو جزءًا بسيطًا من أبحاث كريستيان ولكن باءتْ كل تجاربه بالفشل، جلس على أرضية المعمل وقد اعتصره الغضب والحزن وآلمه الخزي فتملَّك منه الشيطان أكثر من ذي قبل ووسوس له بما سيطيح بكل شيء.

نيلسون ريفز - ١٩١٩.

لم تنقطع الخطابات قطُ بين دكتور نيلسون وكريستيان منذ أن رحل من لندن، في الحقيقة كان كريستيان يقصّ لنيلسون كل شيء يحدث معه، يشرحه بدقة متناهية دون أن يفلت منه شيء، يخبره عن تجاربه وأصدقائه والبروفيسور هنري ويزلي، وفي الحقيقة إنَّ نيلسون كان يقوم بالمثل تمامًا ولكن كان ذلك الأمر سريًا للغاية حيث كانت ترسل الخطابات إلى معمل دكتور نيلسون فلا تعرف إيما عنها شيئاً، حيث تبدل حال نيلسون تمامًا وصار أكثر تكتمًا عمّا ذي قبل رغم السعادة البادية عليه منذ رحيل كريستيان إلا أنه سرعان ما أحس بالاكتئاب بالإضافة إلى أعماله الكثيرة التي صار يجد فيها مشقة كبيرة لإنجازها، كما أنه كان مجبرًا على التعامل مع عددٍ كبيرٍ من البشر حوله، العمال في ضيعاته المختلفة والعاملين في منازله واللوردات والعلماء وغيرها من الأمور، اكتشف أنه بالفعل لا يملك الصديق الحقيقي الذي يؤازره، ورغم أن كافنديش يعتبر صديقًا وفيًا إلا أنه كان ينوء به في الفترة الأخيرة دون سببٍ واضحٍ كما أن علاقته بإيما تشوّهت تمامًا، وصارت مجرد علاقةٍ عاديةٍ بين فردين لا يكنّان لبعضهما سوى الاحترام حيث انداحت الأيام الخوالى الجميلة في بئرٍ من النسيان واللا مبالاة.

بدت السعادة على دكتور نيلسون بأخبار كريستيان الجديدة، ولكنه بدا متجهمًا ومفكرًا في الأمر ولم ينتظر لإنهاء أعماله وذهب سريعًا لإيما لحرصه على سعادتها ولمعرفته بأنَّ حزن إيما الذي ساد الأجواء هذه الفترة نابعٌ من قلقها على كريستيان الذي لم يرسل لها خطابات إلا لمرة أو اثنتين فقط، كما أنه كان يشعر بالذنب تجاهها حيث تحولت علاقتهما لمجرد فردين يعيشان تحت سقف واحد، أعطاها الخطاب الذي أرسله كي تقرأه، فقد كانت قلقةً عليه غاية القلق؛ لأنه في الفترة السابقة لم يعنِ بهم كما كان، واجتاحها هاجس بأن الصغير قد تبدلت أحاسيسه تجاهها وقد طوّقه سحر العلم وسحبه إلى أرضه الخلابة وأفقده الحنين إليها، لكن ما قرأته في الخطاب كان مغايرًا لكلّ توقعاتها، فقد أضحى مرحًا، تفوح رائحة السعادة والأمل من بين كلماته، واجتاحت تشارلي سعادة غامرة وفرح فرحًا جمًّا حينما علم بأنه سيرى أخاه قريبًا بعد أن وعده نيلسون بزيارته في الأسبوع القادم.

في ذلك المساء السابق لسفرهم لزيارة كريستيان جلس كافنديش في مواجهة نيلسون يتناقشان في بعض الأمور الدنيوية والعلمية وقد أثار كافنديش حال كريستيان الجديدة الذي سمع بها من نيلسون، وتساءل في نفسه عن سرّ تلك السعادة المفاجئة والاستثنائية، ويبدو أن نيلسون قرأ ما يجول في خاطره فقال بهدوءٍ ونبرةٍ فاهمةٍ: **«عزيزي كافنديش، إن كريستيان لا يطلب من الحياة الكثير كما نحن، فإن أعظم تطلعاته تتلخص في قبوله**

بين بني البشر دون إيذاء لمشاعره، فأنت لا تعلم قيمة الشيء إلا حينما تفقده».

رغم ما أبداه دكتور نيلسون لكافنديش إلا أن الأخير شكَّكَ في إحساس نيلسون وأيقن في داخله أن نيلسون ليس سعيدًا بتلك الحال الجديدة كما ينبغي أن يكون لسببٍ يكنّه في نفسه، كما أنه في داخله كان يشعر بأنَّ ما يحدث حالةٌ مؤقتة سرعان ما ستزول مع زوال سببها الواهي، إنَّ مَن يشبهون كريستيان لا ينالون السعادة أبدًا، فإن كان الشخص العادي لا ينال السعادة ببساطة إن نالها من الأساس، فكيف الحال مع شخصٍ ككريستيان إذن؟!

رحلت الأسرة للقاء كريستيانٍ وقد أدهشتهم رؤيته، فقد بدا أنيقًا ومبتسمًا على الدوام، وقد عكّر صفو إيما رؤية ذلك القناع الجديد على وجهه، ولكنها أرجأت الحديث في هذا الأمر إلى وقتٍ لاحقٍ حتى لا تتبدل السعادة إلى أسى وكدرٍ حيث قررت أن تقبض على تلك السعادة بكامل قواها ولا تدعها تفلت أبدًا لتهنأ بها ولو لمرة واحدة، أما عن تشارلي الذي نما عوده وصار أكثر جمالًا عمّا سبق فقد كان سعيدًا بشدةٍ حتى إنَّه ظل يحتضن أخاه لفترة طويلة وقد أسال ذلك الإحساس الدافئ البريء دموع كريستيان وإيما معًا، الغريب عن تشارلي أنه لم يتعرف على كريستيان فور رؤيته على عكس ما كان يحدث سابقًا، فقد كان يستطيع أن يتعرَّف عليه مهما كان الأمر صعبًا، ويستطيع أيضًا أن يحسّ به مهما أبدى من أحاسيس مغايرة، لذا كان كريستيان

يعشقه عشقًا ولا يتردَد عن تقديم روحه له إن تطلب الأمر ذلك إلا أن هذه المرة بدا الأمر غريبًا ومريبًا بعض الشيء حتى إنَّ كريستيان ونيلسون تبادلا نظرةً غامضةً يشوبها الحزن والقلق والتوجس.

أما دكتور نيلسون فقد كان هادئًا يرسم ابتسامةً خفيفةً لا تكاد تُلحظ، عيناه تجوبان المكان كأنهما تفتشان عن شيء مدفون، عن أمر سري مُخفى بين ثنايا كريستيان، انحنى له كريستيان بإجلال بمجرد رؤيته ولاحظ أن الرجل قد أصابه الشيب في شعره في أكثر من موضع ولم يُنقص ذلك الأمر منه بل زاده وسامة وأبهة وحضورًا فذًا منقطِع النظير، لم يلمح دكتور نيلسون ما يثيره في جنبات المنزل وفي الحقيقة إن ما يثير دكتور نيلسون مختلف تمامًا، فلم يرَ مثلًا كتابًا نادرًا أو معادلة ملقاة على مكتبٍ أو بحثٍ ينفرد بشيءٍ جديدٍ كما تمنى في أعماقه أن يجد، وحينما تساءل عن الدراسة أجابه كريستيان ببساطة بأن كل شيءٍ يسير على ما يرام.

شعر دكتور نيلسون من خلال وجوده أنَّ ما يُضمره كريستيان عكس ما يظهره، أو بالأحرى ليس ما يُظهره حقيقيًا تمامًا، هناك إحساسٌ غريبٌ يتسلل إليه وينبئه بأن هناك خطبًا ما لا يعرفه سوى كريستيان، فلولا ذلك القناع الملعون لتأكد من الحقيقة فور رؤيتها وأقرَّ في نفسه بأن الأقنعة دائمًا خادعة.

خرجت العائلة في نزهةٍ لزيارة شوارع ومعالم مدينة كامبريدج وقد تفاجأ نيلسون بالصداقات التي كونها كريستيان حيث كان العديد من المارة يحيِّيه بإيماءةٍ محترمةٍ طيبةٍ تعكس

حبهم واحترامهم الصادق له، للحظة توقف دكتور نيلسون متأملًا وقد اجتاحه كدرٌ وغضبٌ حتى إنَّه بدا مشمئزًا بعض الشيء شاعرًا بالقرف من وجوده فطلب منه بصعوبةٍ محاولًا كبح مشاعره التي بانت على خلقته أن يعودوا إلى المنزل متحججًا بإحساسه بالإرهاق.

التقى دكتور نيلسون ذلك اليوم بزميله دكتور هنري ويزلي وقد قصَّ عليه الأخير ما حدث بالتفصيل منذ جاء كريستيان إلى كامبريدج حتى هذه اللحظة، وقد أثنى الرجل على فطنته وذكائه الفريد، لكنه أخفى عن الرجل المعادلات والتقدم المبهر الذي توصل إليه كريستيان والذي سرعان ما أهمله بعد ما وجد ضالته في قناعٍ لا يمثل أيّ شيءٍ سوى إلهاء عن مأربٍ عظيم قد يتحقق لو نظَّر للأمور بعين عالم حكيم، ولكنه أرجأ الموضوع لحالته النفسية وما يمرّ به من ظروفٍ خاصة غير اعتيادية دفعَتْه لهذا الطريق.

حزن غامض يتملّك من قلب دكتور نيلسون وإحساس بالغصة لا ينفك عن العبث به خلال الأسبوع الذي قضاه في صحبة كريستيان فقرر أن يتحدث إليه عما يعتمل في صدره قبيل عودته مرة أخرى إلى لندن، جلسا في حجرة المكتب وبدا التردّد واضحًا على وجه دكتور نيلسون خصوصًا حينما رأى الابتسامة العريضة التي تزيّن قناعه المزيف، ولكنها بالتأكيد تملك قلبه الذي أرهقه البؤس والأسى، لم يكن يدرك في الحقيقة ما ستؤول إليه الأمور ولا يريد أن يعرف، حاول أن يتكلم عمّا يعتمل في

سريرته ولكنه غيَّر مجرى تفكيره وحبس إحساسه بين قضبان صدره الذي ضاق بكلٍّ شيءٍ وأنهكه التفكير، فابتسم أخيرًا ابتسامة عريضة وهو يربت على كريستيان قائلًا: **«أنا سعيدٌ لأجلك»** كانت نبرته غامضة لا توحي بإحساسٍ محددٍ، أهي سعادة فعلًا أم سعادة يخالطها شيء مجهول؟!، ولكنّ كريستيان أومأ له وما زالت الابتسامة تزيّن وجهه، نهض كريستيان من مكانه بعد أن ألقى نظرةً غامضةً على دكتور نيلسون وأطلَّ بوجهه من النافذة المفتوحة وقد اعتراه سكون غامض، أحاسيس متضاربة كانت تجوب بقلبه وتنهكه، هل كان كريستيان حقًّا سعيدًا؟!، هل ما يكتنزه من سعادة وتغير إيجابي حقيقي فعلًا؟!، في الحقيقة لا أحد يعرف ولكن نيلسون يعرف كيف يفنّد ويفسر الأحاسيس فتلك موهبة لا يتمتع بها إلا ذوو الخبرة ممّن درسوا البشر وعاهدوهم، ابتسم في نفسه وهو يتأمل كريستيان ثم فتح أحد الأدراج ووضع به ورقةً مطويةً دون أن يلحظ كريستيان ذلك.

ودَّعهم كريستيان بقلبٍ يعتصره الحزن لكنَّهم وعدوه بتكرار تلك الزيارة؛ ليرفِّهوا عنه ويؤكدوا له أنه دومًا في قلوبهم مهما غيّبه الزمن وأعاقَتْه الظروف، تمنّوا له التوفيق ورحلوا بعيدًا وهو يتابعهم بعينين مبلَّلتين بالدموع ونصف ابتسامة تتوق للاكتمال.

16

ارتدى كريستيان قناعه في هذا اليوم كما يفعل عادة، سحبه من المحلول الذي صنعه بنفسه خصيصًا ليحافظ على تماسكه وليونته، ثم جاء بفرشاة نظيفة مطمورة بالكامل داخل سائلٍ شفافٍ لزج بعض الشيء وقام بهدوء ودقة شديدتين بمسح القناع بها، في كلّ مرة كان يفعل ذلك يحسّ بقلبه يغور وبأن العالم يكاد يتوقف خوفًا من أن يلحق بالقناع أيّة مشكلةٍ أو تخريب غير متعمد، لم يكن كريستيان قد نظر في المرآة دون القناع منذ فترةٍ طويلةٍ، في الحقيقة لم يكن قد رأى ملامحه أو واجهها كما كان يفعل سابقًا ليَذكر نفسه بآلامه ومعاناته التي لا تنتهي، غلبه الظن في بعض الأحيان بأنه تحول إلى شخص آخر يملك هذا الوجه الجديد المصنوع بحرفية عالية، واجتاحَتْ نفسه أسئلة عديدة، ما هو الإنسان فعلًا؟!، وجه يقرر له مصيره؟! وعلى إثره تسير حياته تبعا لنتائجه؟!، أم أن الإنسان أعظم وأعمق من مجرد وجه؟!، لقد ملكت كل ما يؤهلني لأكون محبوبًا بين الناس ولكن بوجهٍ دميم فنبذوني!، ولمّا تغيّر الوجه تغيّرت الأفكار وتحوّلت لتسير كمأ

شثت!، لتلك الدرجة تحدّد ملامحنا ماهيتنا وماهية مَن يتعاملون معنا؟!، كيف أضحى العالم سطحيًّا وواهيًا إلى تلك الدرجة؟!، وكيف يسمح البشر لأنفسهم بأن يملكهم شيءٌ لا معنى له؟!، اندهش من كلّ تلك الأسئلة والأفكار التي خالجته وسخر في أعماقه وحزن حزنًا شديدًا ثم تمتم قائلًا: «**ما نحن إلا مجرّد مرايا محطمة**»، وجالت بخاطره فكرةٌ قديمةٌ، ناوشته وحاولت السيطرة عليه، فكرة طالما سعى لها منذ بداية الحياة التي فرضت عليه، عزرتها تلك العثرات وتلك النفس الدفينة المغمورة في صراعات تتجلى وتخبو من وقتٍ لآخر، ولكنها غالبًا ما تترك ألمًا قديمًا، مَن قال إنّ الآلام القديمة تموت بمرور الزمن؟!، إنها فقط تنتظر الإشارة لتئنّ في روحنا من جديد.

اتجه في طريقه إلى الجامعة كعادته صباحًا بعد أن قرّر أن يمضي إليها سيرًا، كان سعيدًا بدفقات الهواء المنعشة الباردة وقرّر أن يُمضي يومًا استثنائيًا رغم ما تنذر به السحائب المتكاثفة بيوم مطير موحش، أفكار شتى شرعَتْ تجوب بوجدانه في محاولةٍ لنهش فرحته والعبث بها، تساءل ببساطة عمَّن يكون حقيقة، وجه أم قناع؟!، إنسان أم شبه إنسان؟!، دميم أم جميل؟!، مَن يكون كريستيان في الحقيقة مِن بين كل هؤلاء؟!، دلف إلى الجامعة محييًا بعض الزملاء الذين نظروا له نظرةً غريبةً وسادت وجوههم تعبيرات توحي بالاستغراب، لم يعنه ذلك كثيرًا ووقف في انتظار بعض أصدقائه كما كان مقررًا مسبقًا بينهم ليلة أمس،

وحين حضورهم رحَّب بهم بشدةٍ ولكنهم ناءوا عنه قليلًا وقد اعترتهم دهشةٌ وخوفٌ، كان نيلسون الشاب أحدهم حيث قال: «**كريستيان، ماذا يحدث لوجهك؟!**».

عقدت دهشة السؤال لسان كريستيان وأحسَّ بأن الرعب يتملك منه، تسمَّر في مكانه وحاول أن يتكلم ولكن مع كل حركةٍ لوجهه كان القناع يتساقط رويدًا من على وجهه كسقوط الغراء من فوق حائط مشوَّه قديم ليظهر وجهه الحقيقي، ابتعد عنه الجميع مذعورين حيث شرع يرتجف وصاح أحدهم مرتعدًا: «**إنه مسخ**».

فصاح آخر: «**بل إنه وحش اتخذ من وجه كريستيان قناعًا ليقضي علينا**».

قذفه أحدهم تحت هول المفاجأة بالكتب في يده وركله آخر مذعورًا في بطنه فوقع على الأرض، أمسكه نيلسون الشاب من تلابيبه بعد ما استفاق من دهشته ولكمه لكمةً قويةً في وجهه وهو يصرخ: «**أين كريستيان صديقي أيها الوحش؟! ماذا فعلتَ به؟!**».

لم تكن الكلمات لتنصف أي حكّاء أو روائي عمّا كان يشعر به كريستيان في هذه اللحظات الصعبة التي ستقود الأحداث إلى منعطفٍ آخر تمامًا، انحبست دموعه وغار قلبه في بئرٍ سحيقةٍ من الألم والهوان، تلقى صفعة أخرى وركلة في بطنه فطفحت الدماء من فمه وأنفه، وقعت الشتائم المقذعة والاتهامات الخبيثة الظالمة على مسامعه كجمرٍ من نارٍ يشويه ويحرقه لكنه وسط كل

ذلك الهوان والتعذيب لم يسمح لدموعه أن تسقط، حبسها داخله ليُبكيه قلبه البائس المذعور، في لحظةٍ تحوَّل كل شيء إلى ظلمةٍ في عينيه، كاد الألم يقتلعه من جذوره وينسفه نسفًا، وفي قرارته تمنى لو أنَّ ذلك يحدث فعلًا لتنتهي عذاباته وآلامه وكل شيء، أنَّى لإنسانٍ أن يتحمل كل ذلك الألم والشقاء؟!، فقد تحول المحبون إلى عصبةٍ من الكارهين الذين يلعنون حتى وجوده، استحالوا إلى محاربين قرروا الإطاحة به رغم الهدنة التي عقدها معهم لأيام طويلة خلَتْ، أين ذهب الاحترام والود؟، وأين ذلك الحب والتقدير الكبيران؟! نُزعا نَزعًا مع سقوط الزيف وخروج الحقيقة إلى النور؟!، ولكن أيهما حقيقي فعلًا؟! القناع المزيف أم القناع الحقيقي الذي ابتلاه الرب به؟! الرب! لكن الرب لا يبتلي أحدًا، أيّ حقيقة سقطت؟، وأي زيف وضح؟! صرخ كريستيان فجأة وسط هول كل تلك الأفكار وتحت وطأة الضرب المبرح، فارتعد من حوله، تمزقت ثيابه عليه من شدة الضرب، نهض وهو يلوح في وجوههم غير قادرٍ على الشرح أو الدفاع عن نفسه، ولكن ماذا يشرح؟، وبأيّ كلماتٍ سيدافع عن نفسه؟!، دفع أحدهم من فوقه بقوةٍ وركله في بطنه بصعوبةٍ بالغةٍ من شدة الإعياء بعد ما سقط، أمرهم نيلسون أن يبتعدوا عنه سريعًا قبل أن ينال منهم، حاول أحدهم الاعتداء عليه ولكن الثورة داخل كريستيان شرعَتْ تشتعل، تفور وتغلي وتحتدم وتجيش في أعماقه لتخرج وتحرق كل مَن يقترب منها.

قاتلهم بقدر ما استطاع حتى استطاع بصعوبةٍ بالغةٍ أن يهرب من بين أيديهم بجسد مدمى وقلب مفطور ووجه لا ينفك عن تعذيبه وإذلاله، خرج البعض في إثره يلقونه بالحجارة ثائرين وهو يجري بقدر ما استطاع مترنحًا من الإعياء حتى استطاع أن يختفي داخل أحد المنازل المهجورة، مكث هناك لساعة، استرد خلالها أنفاسه بصعوبةٍ ولكن الخوف والرعب طوَّقاه وخشي أن يلحقوا به فمضى ببطءٍ نحو منزله والإعياء يكاد يقضي عليه حتى سقط على عتبة المنزل والدماء تسيل من جسده فانهمرَتِ الأمطار وعوتِ الرياح ورعدت السماء وبرقت لتكتمل تلك السمفونية المرعبة المؤلمة، وليدوم المشهد بوحشيته الخلابة في الوجدان.

ظهر فجأة من اللامكان البروفيسور هنري ويزلي وقد بدا مذعورًا ثم أعانه وأدخله إلى المنزل ثم جاء ببعض الإسعافات الأولية وقام بتضميد جراحه، ثم أخرج سائلًا من حقيبته ووضعه في فمه ثم قال بنبرةٍ دافئةٍ مصطنعةٍ: «**الآن ستنام يا كريستيان، وغدًا يوم آخر لمولودٍ جديدٍ**».

وقف في مواجهة النافذة المفتوحة يتنفَّس الهواء ويتابع في صمتٍ مفكرًا سقوط الأمطار وقد غذت الغضبة الكونية إحساسه المضطرم وأفكاره الشيطانية ثم ابتسم ابتسامةً خبيثةً ملقيًا نظرة على كريستيان الذي ذهب في نومٍ عميقٍ ثقيلٍ يهلوس متمتمًا بكلمات غير مفهومةٍ.

«العزاء الوحيد الذي تنتظره نتيجة لإخفاقك هو اعترافك به».

كريستيان ريفز.

17

«كان لي صديقٌ جميلٌ، أخبرني الجميع بمدى دنوه من الموت، لم أصدقهم وصدقتُ نفسي، صدقت ذلك الألم في عدم تصديقهم لأملي وحينما شرعت عيناه تنغلقان صرختُ فيه، لكنه لم يسمعني، كان هناك يضحك ومعه الأمل ومعه كل تلك الأقاويل السخيفة عن العزاء والحياة الأخرى، إنها سخيفةٌ حقًا، لأنه ببساطة لم يمت حقًا، إنه حتمًا هنا في مكان ما».

تلك الكلمات الغامضة والعميقة محفورة بيد دكتور نيلسون على ورقة تركها داخل درج كريستيان الذي باء بكل طاقته ومجهوداته لإصلاح الخلل في النظام الكبير، كل ما استطاع أن يقرّ به هو أنّ ما يحدث هو مجرد خللٍ كبيرٍ ولا بدّ من إصلاحه، تأمل تلك الكلمات بقلبٍ مُدَمى بعد أسابيع طويلة مرت على الحادثة الأخيرة، انكفأ خلالها مرة أخرى على أبحاثه وتجاربه، لم يكن ينام إلا مرغمًا وقليلًا ما تناول الطعام ونادرًا لو شوهد خارج منزله أو منزل البروفيسور هنري ويزلي، وقف في مواجهة إناءٍ ضخمٍ وُضِعَ فيه سائلٌ بلون أرجواني شفاف يغلي وقد خرجت

منه العديد من الأسلاك والأقطاب، تأمله لبرهةٍ طويلةٍ من الزمن وقد ناوشته الذكريات القريبة.

⌛

استيقظ كريستيان مذعورًا من نومه الثقيل على صوت دويّ الرعد وقصفه المتواصل لمدينة كامبريدج، وجد جسده مرتجفًا وقلبه يخفق خفقات يكاد يسمعها من فرط الرعب الذي دبَّ في قلبه، أحسَّ بأن ما حدث مجرد كابوس مرير وما عليه إلا الاستحمام وسيعود كل شيء إلى طبيعته الأولى، غالبته الآلام الناتجة عن الضرب في اليوم السابق لكنه تجاهلها متعمدًا ومذعنًا إلى ذلك الأمل الكاذب الذي يتمسّك به قلبه، بل كل جزء فيه، مضى بصعوبةٍ حتى وجد نفسه في مواجهة المرآة التي سقطتْ من فوقها الملاءة، حيث قام سابقًا بتغطيتها تمامًا حتى لا يعود إلى عادته القديمة وكي لا يذكّر نفسه بآلام تخيَّل بأنه تخلص منها، ألهبَتْه رؤية نفسه في المرآة حيث كانت الدماء المتخثرة تتناثر على جذعه العلوي الذي امتلأ بالكدمات الزرقاء والأرجوانية كما لاحظ أيضًا الكدمات على وجهه الدميم الذي ازداد دمامة مع تلك الكدمات والدماء، اقترب كريستيان أكثر من المرآة وقلبه يغور في قدميه، ارتجف جسده وأجهش بالبكاء وتشنج كلما اقترب حتى سقط أمام المرآة من شدة الإعياء، وبعد تردّدٍ لمسها بيده ثم أعان نفسه بصعوبةٍ حتى لامس وجهه المرآة فأضحى وجهه الدميم

وجهين يتعانقان، دوّى الرعد في اللحظة التي سالت فيها دموعه على وجهه لتلهبه وظل يتلمس وجهه في المرآة كأنه يتعرّف عليه للمرة الأولى، سحقه الألم وغالبه إحساس باليأس، فتشنّج جسده تشنجًا قويًا وظل يصرخ صرخات مقيتة مفزعة التحمَتْ مع صوت قصف الرعد في الخارج، ودون أن يدري ذهب كريستيان في غيبوبةٍ طويلةٍ.

بعد ستة أسابيع كان خلالها البروفيسور يقوم على علاج كريستيان والاعتناء به امتثل للعلاج وصار أكثر صحة عن ذي قبل، بعد أن أصابته حمًى شديدة ألزمته الفراش، نادرًا ما غادر سريره ليجلس قليلًا في حديقة منزله حينما يصفو الجو ويهنأ بقليلٍ من الدفء الصعب توقعه من خريف إنجلترا المهيب.

أفكارٌ شتى كانت تجوب في رأسه وذكريات مؤلمة قاسية طالما أنهكَتْه وهي تهاجم فكره ووحدته بلا رحمةٍ أو شفقةٍ على حاله، كان البروفيسور يزوره صباحًا ومساءً دون انقطاعٍ، وفي أحيان أخرى كان يزوره وقت الضحى ليطمئن على صحّته وقد أهمل كريستيان تمامًا كل الخطابات التي استلمها من عائلته في لندن، لم يكترث حتى بوجودها ولم يوخزه ضميره على تلك الفعلة، بات تحوّل غريب يدبّ في أعماقه، هيئة غريبة شرعت تتملّك منه، لكنه للغرابة لم يهمل خطابات دكتور نيلسون،، رويدًا عاد إلى الكتب ولكن ليس من أجل الدراسة، بل من أجل ما انتواه، وكلما شقّ عليه إيجاد كتاب أو بحث قديم معيّن استعان

بالبروفيسور الذي لم يخذله قط حيث اجتهد الأخير بكل اتصالاته ونفوذه وأمواله لكي يحقق كل رغباته، وفي الحقيقة إنَّ كريستيان لم يكن آبهًا به ولم يشكره ولو لمرة واحدة على الخدمات الكثيرة التي قدمها له، باتت علاقتهما علاقة غريبة غير مفهومة على الأقل من جانب كريستيان، فأحيانًا حينما يجلب البروفيسور له شيئًا ممَّا طلبه كان يتسلّمه بخلقة متجمدة مفزعة ثم يغلق الباب دون ترحيبٍ أو حتى إبداء أقلّ فنون الاحترام التي يعرفها عن ظهر قلب، وحينما شعر بأنه على استعدادٍ لاستكمال تجاربه في معمل البروفيسور لم يستأذنه بل ذهب ليلًا إلى منزله متسلّلًا كي لا يراه أحدٌ فيقع في مشكلةٍ هو في غنى عنها، ولمّا سمع البروفيسور ذات ليلة جلبةً في المنزل انتزعه الخوف من سباته ومضى لا إراديًا نحو بندقية قديمة لم تستخدم منذ سنوات معلقة على جدار غرفته ورثها عن والده محب الصيد وعلى أطراف أصابعه تسلّل ناحية الصوت فوجد كريستيان منكفئًا على عمله فنحّى البندقية جانبًا ثم ابتسم ابتسامةً راضيةً وعاد إلى غرفته لينام حالما بالمجد الذي ينتظره.

أما عن الجامعة فصار كريستيان لا يذهب إليها إطلاقًا، فقد اعتقد في داخله بأنه لا يحتاج لها من الأساس حيث أضحَتِ الدراسة من وجهة نظره مجرد قيدٍ لحرية الوعي الذي وهبه له الربّ، وقد استطاع التخلص من نيلسون الشابّ حينما وضع لوحةً على بابه تقول: إنَّ صاحب المكان قد غادره بلا رجعةٍ، وقد تساءل عددٌ كبيرٌ من الطلاب الذين شهدوا واقعة الاعتداء على

المخلوق في الجامعة ولكنهم لم يصلوا لجوابٍ، فمنهم مَن شكّك في وجود كريستيان من الأساس، ومنهم مَن أجزم بأن هناك شيئًا شيطانيًا يتعلق به، وأبدى آخرون عدم شعورهم بالراحة تجاهه رغم ما كانوا يظهروه من مودة واحترام.

وفي الحقيقة إنَّ اختفاء كريستيان كان مفتعلًا حيث قام دون علم من أحد حتى من البروفيسور نفسه بصناعة قناعٍ جديدٍ، ولكن هذه المرة ليس من أجل الحياة ولكن من أجل ما قرّره في نفسه، سمع كل تلك التكهنات والأقاويل السافرة بأذنيه، في الجامعة وفي الحانات، يظهر كشبح ويختفي كأن لا وجود له من الأساس، اشتعل الغضب في داخله واضطرم وهو يسبّ ويلعن كل دقيقةٍ أمضاها في صحبتهم أو صحبة كلّ مَن تقوّل عليه بباطلٍ أو عامله بنفاقٍ كما تبيّن له، أيقن في داخله أن الحياة مسخة لا تقل دمامة عن وجه الدميم في شيء، بل إنها تزيد بأضعاف وأضعاف، مقتها كما مقت خلقته ودهسها تحت أقدامه وقد اضطرمت أحاسيسه وشرعت تتحول رويدًا رويدًا إلى شيءٍ أسود ملطخ بالدماء والآلام.

⌛

في تلك الليلة حينما وجد عن طريق الصدفة الورقة التي تركها دكتور نيلسون له جلس مفكرًا في تلك الكلمات العميقة التي كتبها، اشتمَّ رائحة الورقة التي ما زالتْ تحتفظ برائحة الحبر المميز الذي يستخدمه نيلسون في الكتابة، وناوشته الذكريات

القديمة ولكنه استطاع التغلب عليها مفكرًا بعمقٍ في كلمات الرجل ولمَ تركها له؟!، وما الغاية الحقيقية من ورائها؟!، ماذا يقصد دكتور نيلسون بالتحديد؟!، وأيّ صديقٍ ذلك الذي فقده؟!، أدرك بأن الكلمات برمّتها تحمل رسالةً ضمنية وسرية له وعليه أن يفهمها، في الحقيقة إنّ كريستيان لم يكن مؤهلًا نفسيًا بشكلٍ سويٍّ على استيعاب الكلمات أو تفنيدها، فرمى الورقة في الدرج مرة أخرى وعاد إلى عمله المتواصل الذي لا يملّ منه أبدًا، فقد عقد النية في داخله على إتمام ما انتواه وقرّره في نفسه مهما كلفه ذلك من ثمنٍ.

في ليلة حالكة السواد لم يظهر فيها القمر كان هناك كلب يعوي ويئن بصوت تتقطع له القلوب، كان الصوت صادرًا من معمل البروفيسور، هرع الأخير إلى المعمل سريعًا فوجد كريستيان ومعه كلبٌ مقيدٌ موضوعٌ على حمالة وقد اتصلت به العديد من الأنابيب والأسلاك والأقطاب المتصلة بإناءٍ كبيرٍ ضخم، عرف البروفيسور الحقيقة فقد شرع كريستيان في تنفيذ تجاربه بشكل عمليٍّ بعد وقتٍ طويلٍ وعناء على الجانب النظري، أحزنه رؤية الكلب المسكين يئنّ بهذا الشكل فتدخل سريعًا لمنع كريستيان فحدجه بنظرة قاسية وقد اضطرمت عيناه بنيران الغضب ثم قال:

«بروفيسور، أرجوك لا تتدخّل في عملي، وإلا فسأبحث عن مكانٍ آخر».

أومأ البروفيسور مُذعنًا بعد تفكيرٍ وقد عذّبه أنين الكلب المسكين الذي آلمته رؤيته على هذا الشكل لكنه في قرارته علم أنّ ما يفعله كريستيان هو الصواب وللوصول إلى المجد لا بد من تقديم بعض الأضحيات، غادر البروفيسور المعمل مذعنًا وحزينًا وأحاسيس متباينة تشتعل في قلبه، لم يكن يدري حقيقة ماذا يفعل!، وتساءل في نفسه عن الثمن الذي سيدفعه لقاء ما يتمناه!

في الصباح وهو يحتسي قهوته أطلَّ من النافذة على رؤية منظرٍ غريبٍ، كان كريستيان يمسك بفأسٍ ويقوم بحفر حفرة عميقة في الحديقة، وبعد هنيهة وجده يشدّ شيئًا ثقيلًا مغطى بملاءة قذرة تناثرت عليها الدماء، ألقاه كريستيان في الحفرة ثمَّ ردم عليه، وبعد قليلٍ من الوقت بدا خلاله شاردًا ركع على الأرض وبدا كأنه يتلو صلاةً، بدا البروفيسور متوجسًا وقد أصابه الخوف وتساءل في نفسه مرتعدًا عن ماهية الضحية القادمة!

18

بعد انتهاء فصل الخريف وقدوم الشتاء إلى العالم مرةً أخرى وفي تلك الليلة الظلماء التي قصفها الرعد وعوَتْ فيها الريح حدق كريستيان في الكلب الجديد ذي اللون البني القابع أمامه غير مصدقٍ، بعد أسابيع من العمل والإرهاق والعناء، الفشل والسقوط والإحباط، إعادة كتابة المعادلات وصياغتها والعودة إلى الكتب وإيقاظ الوعي والخروج بعيدًا عن مدار الجسد في جلسات تأملية دامتْ لساعات طويلة، نجح كريستيان أخيرًا في تجربته الأولى، لم يكن ليصدّقه أي إنسان ولا حتى نفسه لولا ما يراه من تجربةٍ حيةٍ تتجسد أمامه الآن، فقد تحوَّل لون شعر الكلب من اللون الأسود إلى البني الغامق، ورغم نحول الكلب إثر ما تلقاه من تجارب قاسية أنَّ فيها وعانَى وعَوَى متوسلًا ليوقف كريستيان تعذيبه المستمر له إلا أنه بدا بصحةٍ جيدةٍ، حملق كريستيان فيه مرة أخرى غير مصدقٍ والدموع تترقرق في عينيه، توهج قلبه بمشاعر متضاربة مضطرمة، اتسعت عيناه من خلف ذلك القناع الذي لم يعد يخلعه قطٌ، حيث عمد إلى صناعة أكثر من قناعٍ يسمح له

بالتجوال أينما ووقتما شاء، أخذ يقترب من الكلب متأملًا ودون وعي سقطت دموعه تجري من فرحة الانتصار الذي أرهقه، لم يكن ذاك الإرهاق الناتج عن السهر والاستذكار والتجربة والفشل والإحباط، وإنما الإرهاق الناتج عن وجوده في هذا العالم البائس، لقد نجح كريستيان وأشعل نور الظلمة داخله، نجح في تلك النقطة التي لم ينجح فيها أحد، لقد صار أول شخص وعالم استطاع أن يغير في طبيعة الجسد الإنسانية بعد مشقةٍ ومساعٍ للبشرية لم تبرهن إلا عن فشلها، ظل يجوب المعمل هنا وهناك متلعثمًا ومتخبطًا في الأدوات والمعدات المختلفة حوله من فرط الفرحة العمياء التي أصابته، لم يستطع أن يصيح أو أن يصرخ، أحس بأن صوته مختنقٌ، ولا كلمات تعبر عما يجيش حقيقة في صدره، لكنها الدموع المختلطة بالحركات الصبيانية حيث بدا كطفلٍ أخرس حصل لتوّه على لعبة طالما تمناها.

حينما دلف البروفيسور هنري ويزلي إليه في ذلك الصباح كان جالسًا في الحديقة الخلفية لمنزله، وجده مغمض العينين ساكنًا، لا يصدر عنه فعلٌ، فأيقن أنه يمارس عادته الجديدة، تأمله الذي صار رفيقا له في خلواته، جلس في مواجهته دون أن يُحدث ضجةً حتى لا يعيق تفكيره، فتح كريستيان عينيه فجأة ثم قال: «**إن العالم هناك أفضل كثيرًا من هنا، في الحقيقة يا بروفيسور إننا لا نكاد نفقه شيئًا عن هذا العالم، بينما الحقيقة واضحة دائمًا أمامنا**».

تأمله البروفيسور لوهلةٍ ممعنا في كلماته الغامضة التي لا يدرك معناها الحقيقي سواه ثم ابتسم قائلًا وهو يمدّ يده بورقةٍ: «أعتقد أن التأمل أفادك كثيرًا، في هذه الورقة ستجد كل الأشياء التي طلبتَها مني أمسِ وسيتم إحضارها غدًا إلى المعمل بناءً على طلبك» صمت قليلًا لوهلةٍ حيث تناول منه كريستيان الورقة وشرع يتأكد من التفاصيل ثم قال: «كريستيان، هل لي أن أقول كلمة؟!».

تأمله كريستيان متوجسًا لوهلة ولكنه سرعان ما أومأ برأسه بهدوءٍ وهو يرمقه مترقبًا فقال البروفيسور بعد صمتٍ لم يطل وهو ينظر في عيني كريستيان: «إن العالم مليء بالحقراء وكذلك مليء بالعظماء، ولكن يا صديقي الصغير تأكد بأن العظماء وحدهم هم مَن كابدوا المشقة والحزن العميق، خسروا وفقدوا بل أحيانًا سُحقوا لكنهم أدركوا أن لا مناص من تلك الضريبة لتنفيذ مآربهم، أدركوا أنَّ عليهم أن يمروا بمثل هذه الظروف كي تُبنَى شخصياتهم ويظهر طريقهم جليًا لهم، في الحقيقة لا عظيم في هذا الزمن وأيّ زمنٍ دون ثمنٍ» تنحنح وابتسم ابتسامة خفيفة ثم أردف «لكن هناك أيضًا بعض المجانين الذين يدركون جيدًا ذلك القانون ولكنهم أساءوا فهمه فاعتقدوا أنَّ ما مروا به هو الضريبة المدفوعة للوصول إلى عظمتهم المزيفة، فانغمسوا وتوغلوا داخل عقولهم المريضة التي تملّك منها الشيطان ونفذوا أعمالًا اهتزَّ لها العالم من فرط قسوتها وشذوذها، فأذلهم التاريخ

ولعنهم، لن أسألك شيئًا ولكن عليك أن تدرك قبل إقدامك على أيِّ شيءٍ مَن تكون؟!، عظيم أم مجنون ملكه الهوس؟!»، أخذ نفَسًا عميقًا وأطرق برأسه ثم قال: «أعانك الربُّ على نفسك يا كريستيان أو أعاننا الربّ عليك إن كان عليه أن يفعل ذلك» وألقى عليه نظرة حانية وابتسم ابتسامة صادقة ثم انصرف.

تابعه كريستيان حتى غاب عن ناظريه بفكرٍ مشتتٍ وقلب متوجسٍ ثم نظر في الورقة بين يديه للحظة ثم نظر أمامه شاردًا مفكرًا في ماهية كل شيءٍ حتى قال في نفسه ساخرًا: «العالم لم يرحم كريستيان، فلمَ يرحمه إذن؟!».

انبثقت شعلة من النور الأسمر داخل كريستيان، جلس يعدّ عدّته بعد أن أتته الأدوات والمعدات التي طلبها، عزم على ما انتواه وقرر أنَّ أي شيء لتحقيق مآربه هو شيء مشروع مسموح به طالما أنه يخدم العلم العقيم من وجهة نظره، لن يذكر المؤرخون شيئًا عن الأضحيات التي سيقدمها لخدمة البشرية بل سيذكرون نبوغه وعقله المتّقد وذكاءه الفذّ وشجاعته الاستثنائية، سيتحول اسمه لحروفٍ من نورٍ على صفحات التاريخ بعد عشرات وعشرات لم تنته وسيكتب العالم عبر كتبه وعلومه في العصور اللاحقة أنه يومًا ما وُلِد شخصٌ غيّر مجرى الأحداث اسمه كريستيان نيلسون ريفز.

ما لم يدركه أحدٌ خلال تلك الفترة السابقة أن الخطابات توالتْ بشكلٍ كبيرٍ ما بين كريستيان ودكتور نيلسون أكثر عمّا ذي قبل وخصوصًا بعد أن هدأت العاصفة التي تلَتِ الفاجعة التي

مر بها كريستيان بعد سقوط قناعه ولا أحد يدري ماهية تلك الخطايات أو محتواها لكن المؤكد أن تجارب كريستيان أضحت أكثر جدية ونجاحًا مع استمرار تدفق تلك الخطابات.

19

ركز كريستيان بصره على شابٍّ أنيق ووسيم تميزه عيناه حادتا النظرة ببريقهما الأزرق الساحر، يرتدي حلة سوداء ويربط منديلًا بلون أزرق حول عنقه، كاد الشاب ينفجر ضحكًا وهو يتحدث إلى النادل العجوز ذي الأسنان الصفراء المتكسرة الذي بدا سعيدًا بتلك المناقشة وبأنه سببٌ في إدخال السعادة على شخص لهذه الدرجة، اقترب كريستيان بعد تفكيرٍ وقرارٍ بان في عينيه ذات النظرة الغامضة خلف ذلك القناع من الشاب ثم جلس بجواره وطلب كأسًا من الجين، سمع الشاب المرح يقول طلبًا للصحبة: **«مَن يطلبون الجين يسعون لنسيان شيءٍ عميقٍ في نفوسهم وتقول لي خبرتي بأنَّ ذلك الشيء أساء لهم حتى أبكى قلوبهم»**، بدَتْ نبرة الشاب فارغة تطغى عليها نرجسية مَن يتخيل معرفته بالبشر، ثم نظر تجاه كريستيان والخمر يتلاعب به ثم قال: **«إنك يا سيدي لن تنسى مهما شربت ومهما فعلت، فالأحزان لا تغادرنا وإنما تستكين حتى تلك اللحظة التي تهيج فيها من تلقاء نفسها، حينها ولو مرَّ عليها مائة عام تبدو كأننا أصبنا بها لتونا»**

رغم ما بدا من بلاهةٍ على الشاب الذي تسلل الخمر إلى نفسه إلا أن الكلمات أصابت كريستيان في مقتلٍ، أيقظت الظلمة الماضية والحالية داخله، أسكنته فسيح عتمات الألم وغررت به فاستشاط غضبًا، دوّتْ في داخله كصوت الماضي المؤلم ببؤسه وعجرفته اللا متناهية فصار قراره الصعب أيسر وأرقّ عمَّا ذي قبل فقال بنبرةٍ ثابتةٍ دون أن يمسّ كأس الجين: «**أنت محقٌّ يا سيدي، ولذلك أتطلع إلى الصحبة التي تروح عني ولكني لم أجد حتى الآن مَن يستحقها ولكنك تبدو لي ممَّن تروق لي صحبتهم ولكن..**» فقال الشاب وهو يجرع من الكأس في يده «**ولكن ماذا ؟!**».

«**لكني لا تحلو لي الصحبة في حانةٍ كهذه وأناس لا أعرفهم، إن لديَّ منزلاً قريباً من هنا ويمكننا أن نتسكع قليلًا حتى نصل إليه، ولديَّ من الملذات ما سيريق له لعابك**» ثم نظر في عينيه مبتسمًا «**أعدكَ بذلك**».

تهلَّل وجه الشاب وارتسمتْ علي وجهه ابتسامة بلهاء متشوقة ثم اقترب منه هامسًا وكأنه يودعه سرًّا «**يبدو أنكَ ولدٌ شقيٌّ**».

ابتسم كريستيان ابتسامة غامضة قائلًا بنبرةٍ ذات مغزى: «**أكثر ممَّا تتخيل**».

طالعهما النادل بعيون متسائلة وهما يغادران وقد شقَّ التوجس والخوف طريقًا إلى قلبه، وصل الاثنان إلى منزل البروفيسور وقد أخذ كريستيان الحيطة تمامًا حيث قام بوضع مادة مخدرة للبروفيسور في شرابه حتى لا يعيقه أثناء تجربته الحقيقية

الأولى، كلّ ما كان يحتاجه كريستيان هو النجاح الحقيقي الأول مستخدمًا عنصراً بشرياً، تطلع إلى تلك العينين الجميلتين صاحبتي النظرة الحادة في وجه الشاب وتمنى لو أن يملكهما، فإن ملكت العيون المناسبة ملكت القلوب، تلك نظريته الواضحة عن الجسد الإنساني والتي تنتسب له فقط.

أحسَّ كريستيان في هذه اللحظات بأنَّ هناك شيئًا غامضًا وقوياً وشيطانياً يتملك منه، كلّ ما يطمح إليه من تلك التجربة أن ينام ذلك الشاب وحينها يمكنه تنفيذ التجربة، أحضر عددًا من زجاجات الخمر المختلفة التي تنتمي لبلدان مختلفة وكأسين وجلسا في ردهة المنزل الخالية إلا من بقايا آثار لعصور بالية، لم يكن الشاب ليستطيع نتيجة لسُكْره أن يرسم صورة حقيقية للمنزل كما أنهما أتيا في عربةٍ تجرها الأحصنة وقد قام كريستيان بقيادتها بنفسه عالمًا أنه يستحيل أن يعرف أحدٌ مخططه الكامل وإلا انكشف كل شيء قبل أن يبدأ، صبَّ له كأسًا وأخرى وهما يتبادلان الحديث حول أمور عدة لا معنى لها، وفي غفلة من الشاب قام كريستيان بوضع مادة مخدرةٍ في كأسه وناوله لها وحين جرعها الشاب لم يأخذ وقتًا حتى سقطت الكأس من يده وتدلَّتْ يده بجانبه، ألقى عليه كريستيان نظرةً متوجسةً وقد تسلل إليه الرعب، أحس بأن ما يحدث أمر غير حقيقي وغير قابل للتصديق، أما يحدث حقيقي فعلًا؟!، أم أن عقله مَن يصور له ذلك؟!، استفاق على صوت شخير الشاب وقد هوى قليلًا برأسه حتى كاد يسقط

بكلّيته على الأرض فأسنده كريستيان بحركةٍ سريعةٍ قبل سقوطه ونظر في وجهه طويلًا متأمّلًا، لاحظ تلك القسماتِ الصغيرة الجميلة لأنفه وفمه وتلك العينين السارحتين في الظلام، في ذلك الشعر الانسيابي الأسود الجميل الطويل الناعم المسترسل على كتفيه، بلع ريقه بصعوبة وناوشته الأفكار، ما الذي يقدم عليه حقًّا؟!، وبأيّ قلب مهما بلغت دمامته سيقوم بهذا الفعل؟!، وأنَّى له بتلك القوة التي ستعينه على ذلك؟!، إنه خَرِبٌ وبائسٍ ومهجور كقلعة نسيها الزمن ولكن أهذا ما تطمح إليه نفسه حقًّا؟! أم أنه الثمن الواجب دفعه لتحقيق مأربه القديم؟! صعدت الدماء في رأسه حينما تذكر كلمات الشاب الماثل بين يديه: «**الأحزان لا تغادرنا وإنما تستكين حتى تلك اللحظة التي تهيج فيها من تلقاء نفسها، حينها ولو مرَّ عليها مائة عام تبدو وكأننا أصبنا بها لتونا**».

دون تفكيرٍ وحتى لا يتراجع عن قراره أو يثبّط عزمه حمل الشاب على كتفه كأنه يحمل ريشةً ثم مضى تجاه المختبر، شعر بأن الأرض تميد من تحته كلما تقدّم صوب هدفه، حينما وضعه على الحمالة عدّل من هيئته وسوّى ملابسه فبدا كميّتٍ داخل تابوت ينتظر دفنه وصلاة رثاء له، أغمض كريستيان عينيه لوهلة ليجلب لنفسه بعض الهدوء ولكنه لم يرَ في ذلك الظلام سوى اللعنات والضرب والسّحق على أيدي مَن يشبهون هذا الشاب الغاطّ في نوم عميق، أحزنه الفشل القديم في حياته وما مر به من آلام.فخلع قناعه ووقف أمام المرآة التي جلبها في وقتٍ سابقٍ

داخل المعمل ونظر لوجهه في المرآة نظرة طويلة، نظر في ملامحه كأنه ينظر لملامح شخصٍ آخر، كم مرَّ من الزمن حتى وصل إلى ما هو عليه الآن؟!، وأيّ ثمنٍ دفعه ليلقى ما لاقاه؟!، فالرحلات نحو المجد تتطلب الكثير من الجهد والعطاء وإنكار الذات وتقبل كل التضحيات الممكنة، وسأل نفسه سؤالًا، ماذا لو استفاق الشابّ الآن ورآه على حقيقته؟!، هل سيقبله كما هو أم أنه سيصبّ عليه نار غضبه وثورته حاله حال كلّ مَن اكتشفوا حقيقته؟! أم إنه سيهرع هربًا من ذلك المسخ الدميم؟!، وانغمس في أفكاره حتى إنَّه لم يعد يشعر بشيءٍ حوله في الوجود، سمع تأوّهًا آتيًا من خلفه فانتفض مذعورًا ليجد الشاب يستفيق من غفوته، كم من الوقت مرَّ على جلوسه في حضرة نفسه وأسئلته التي لا تنتهي؟!، كم من الوقت مرّ وهو يجاهد ما تبقّى منه حتى يقضي عليها ويتحوّل إلى إنسان آخر؟! فالمطلوب في المهمة الأولى عينان كتلك العينين التي يملكهما الشابّ، وبعدها ستتوالى المهمات ومعها سيتوالى القضاء على نفسه ولكن لمَ لا؟! فهي مقضيٌّ عليها منذ زمن ولكنها كانت تنتفض تلك الانتفاضات الأخيرة الموجعة التي يجود بها الجسد المذبوح في لحظاته الأخيرة.

اقترب من الشاب بعينين ناريتين وقلبٍ مغمور بالألم والغضب لكن الأخير فتح عينيه ليجد في مواجهته شكلًا دميمًا بشعًا، حاول فتح عينيه بصعوبةٍ ليتبين الحقيقة، لم يمنعه كريستيان من محاولاته ربما لرغبته في ذلك الأمل المستحيل،

لرغبته في أن يتوقف ذلك الشيطان المتسلل إلى قلبه، لرغبته بألا يتحوّل إلا ما لا يستطيع التحكم به، لكن الشاب بعد وهلةٍ استفاق مذعورًا وحاول أن يصرخ لكنه لم يستطع، أشار كريستيان له بيده أن يهدأ ولكن دمامته حالَتْ دون أيّ هدوءٍ أو طمأنينة فصرخ الشاب وهو يتخبط مذعورًا وما زالت الخمر تتلاعب به باحثًا عن الباب، رجاه كريستيان أن يهدأ ولا يذعر لكن الشاب لم يتوقف حتى وجد الباب وفتحه مترنحًا ثم خرج منه وسقط للمرة الأولى فتبعه كريستيان ليوقفه ولكن الشاب دفعه بشدةٍ وهو يصيح: «**لا تؤذني أيها الدميم**» ثم قال وهو يبتعد منهكًا: «**أنقذني يا الله من غضبكَ**» تلك الكلمات القاسية اجتاحت قلب كريستيان المتعب، أنهكه وصفه بالدميم والمسخ، أوجعه طلب الله دوماً لإنقاذ البشرية منه، منه هو، كريستيان، الذي لم يقدم على فعل مسيء لشخص قابله، عرفه أو لم يعرفه في حياته، حين استفاق من ذلك الألَم رأى الشاب يهرع بقدر ما استطاع من طاقةٍ وجهدٍ ليفتح البوابة، كانت مصابيح النَّهار قد شرعت في التجلِّي وقد تلوّنت السماء بلون رمادي مائل إلى الزرقة، فسمع الشاب يصيح: «**سوف أقضي عليك أيها المسخ... سأعود**».

لم يتحمل كريستيان تلك الكلمات وأحسَّ بأن الأرض تميد من تحته وراهن نفسه بأن كل جهده سيذهب أدراج الرياح وسيوصم بالعار بينه وبين نفسه لمجرد إحساسه الإنساني بآدميته العالقة به التي سيدفع ثمنها حتمًا، هرع خلف الشاب وفي يده جذع شجرةٍ

طويل وثقيل، وفي لمحة من البصر حينما اقترب منه بينما سقط الآخر على الأرض مرتعدًا، نظر الاثنان لبعضهما البعض لوهلة، رفع كريستيان الجذع فوقه بكلتا يديه، فسمع الشاب يقول: «لا تقتلني أيها الدميم»، أشعله الوصف الجارح فهوى على رأسه بضربة كآلة، وكأن العصا سقطت من تلقاء نفسها، فأصابت الشاب في رأسه دون أن تجرحه، فقال الشاب مرة أخرى خائفًا «لا تقتلني أيها الدميم وإلّا قتلتك» فهوى كريستيان مرة أخرى بالعصا بضربةٍ ساحقةٍ ففجرت الدماء من رأسه ثم هوى بضربةٍ أخرى وأخرى وظل يضربه على رأسه دون إحساسٍ منه حتى سحق جمجمته تمامًا، جلس كريستيان على الأرض مرتجفًا، أحس ببرودة غريبة تتسلل إلى كل جزءٍ فيه، غشيه حلم يقظة لم يتبينه وحينما استفاق منه ونظر بجواره رأى جثة الشاب وقد نضحت بالدماء، عاد إلى الخلف مرتعدًا وإحساس بالرعب يجتاحه، كان ما زال ممسكًا بالعصا الملطخة بالدماء في يده فرماها كأنه يتبرأ منها، يتبرأ من الفعلة، يتبرأ من وجوده نفسه.

دار حول نفسه متأوهًا غير عالم بما ينبغي فعله، أحسّ بلذعة الملح على وجهه فعلم بأنه يبكي، جلس على الأرض بجوار الجثة الهامدة وقرب يده المرتجفة ليلمسها ولكنه سرعان ما تراجع والبؤس يسحق قلبه، وبعد وهلةٍ قصيرة أحس بأن شيئًا أكبر منه يتسلّل إليه، بأن خفة غريبة تنتابه حتى أحس للحظة بأنه يكاد يطير، انتبه فجأة لنور الصباح الذي عمَّ الكون حوله ونظر تجاه

غرفة البروفيسور التي ما زالت ستائرها مسدلة، اجتاحه الخوف من انكشاف أمره فهرع تجاه المعمل وأحضر ملاءةً كبيرةً ووضع فيها الجثة ثم حملها بعد أن لفها جيدًا وبسرعة قام بعمل حفرة واسعة في الحديقة الخلفية للمنزل وقام بدفنها، وقف أمام القبر في جوف الأرض وأحاسيس مبهمة تجوب في أعماقه، كأن العالم يرسم أشكالًا غير واضحة بألوان متداخلة غريبة، سقط على ركبتيه على الأرض منهكًا ثم قام بتلاوة صلاة وحينما انتهى نظر تجاه السماء وقد تحوّلت النظرة في عينيه إلى سكونٍ وهدوءٍ والإحساس في قلبه إلى سعادةٍ غامضةٍ وسلامٍ لم يسبق أن أحسّ بهما في حياته.

لم يحسّ بهما قطّ.

هنري ويزلي - ١٩١٩.

في الفترة اللاحقة بعد واقعة القتل ولمدة أسبوع كامل انطوى كريستيان على نفسه وقد تبدلت أفعاله بشكلٍ غريب أدهشت البروفيسور، حيث بات كل صباح من كل يوم يقف في حديقته ساكنًا وغارقًا في أفكاره وحين يفرغ ويعود إلى واقعه يركع وكأنه يتلو صلاةً ثم يعود إلى عمله منكفئًا عليه حتى تنهك قواه تمامًا ويذهب في نوم عميقٍ ثقيلٍ وهكذا دواليك لمدة أسبوع كامل، صار أكثر شحوبًا وقل تناوله للطعام حتى إنّه في بعض الأيام لم يكن يتناول شيئاً، ندر حديثه تمامًا حتى كاد لا يتكلم أبدًا، فقرر

البروفيسور مراقبته من بعيد دون أن يدري، شعر بمسؤولية غريبة تجاهه وبأن أمرًا جللًا جدَّ عليه بعيدًا عن العلم وتجاربه، لقد كان البروفيسور ومنذ حادثة الكلب التي رآها بعينه وهو يخشى كريستيان ويتحاشى الدخول معه في أيّة مناقشة حيث اقتصر حديثهما على الأمور السطحية، طلبات كريستيان الاعتيادية من المعدات والآلات التي تساعده في إتمام عمله أو كحالة الجو والطعام وحال كلّ منهما وحتى ذلك الحديث لم يكن يدور بينهما إلا في أوقات نادرة.

حينما شرع البروفيسور في مراقبته لاحظ أنّه يحضر جنائز عديدة لأناس لا يعرفهم، بل إن الهدوء والأسى يتملّكان منه وهو يقف في مواجهة التابوت الذي يحمل الجسد وينتظر الدفن، في الحقيقة إنّ ذلك الأمر بدا غريبًا ومخيفًا أيضًا، أحس البروفيسور بأن ثمّة شيئاً لا يفهمه وذلك الشيء هو أعقد بكثير ممّا يتخيل، ولكن أنّى له اكتشافه في شخص صار أكثر غموضًا وتكتّمًا عن ذي قبل؟!، أوجسه الأمر ولم يفارقه التفكير حتى إنّه لم ينم لليال طويلة مترقبًا حركة أو إشارة تعكس ما يدور في نفس كريستيان.

انقلبت حسابات البروفيسور حينما التقى بكريستيان مصادفةً وهو يمرق الردهة شاردًا في منزله منطلقًا تجاه المعمل، فقد بدا الشاب حزينًا أشدَّ الحزن، متهدل الكتفين، رثّ الثياب، أشعث، بل إنه أيضًا بلا قناع، أحسّ بحزنٍ عميقٍ ووخزه ضميره ولعن ذلك الشيطان في داخله وتأكّد بأنّ ما يمرّ به كريستيان هو نتيجة خطته

الحقيرة التي أفقدَتْه السعادة التي اكتفى بها وسلبَتْ منه الحياة التي اجتهد ليحظى بها، بل دفعَتْه لتكبُّد كل تلك المشاقّ التي لا يستحقها، ولكن من أجل ماذا؟!، من أجل مجدٍ يعرف في قرارته أنه لا ينتمي إليه، من أجل تبجيلٍ لا يستحقه، سحقه الإحساس المتزايد بهذا الأمر وقرّر أن يتحدث إلى كريستيان ويعترف له بكل شيءٍ مهما كانت العواقب، فهو يعرف أنَّ كريستيان في النهاية شابٌّ طيبٌ أوقعَته الظروف السيئة في عالمٍ يعج بالأشرار والمتمردين.

أقبل البروفيسور على كريستيان متوتِّرًا يرسم ابتسامة اجتهد أن تكون صادقةً حيث جلس الأخير على كرسيٍّ داخل المعمل ممسكًا بكتابٍ في يده وقد بدا عليه الشرود، لاحظ البروفيسور أنه لم يتغير الكثير منذ زار كريستيان آخر مرة، فنظر في وجهه الدميم ثم قال: «**كيف حالك يا عزيزي؟!**».

لم يرفع كريستيان وجهه عن الكتاب الذي بدا أنّه لم يقرأ فيه حرفًا ثم قال: «**بخير**».

امتقع وجه البروفيسور وفكر هنيهة قبل أن يقول: «**أرى أنَّك تنهك نفسك في العمل يا كريستيان، أنتَ تستحقّ بعض الراحة**».

«**لا راحة لي في عالمكم**»، قال كريستيان كأنّه يحدث نفسه.

قال البروفيسور بنبرةٍ أبويةٍ حانيةٍ: «**اسمعني جيدًا يا كريستيان، أنت شابٌّ طيبٌ، فلا تجعل المآسي تحيلك إلى ما تكرهه، لا تجعلها تسلبك الشيء الجميل الذي أنتَ عليه، لقد أرهقت الكثيرين ودفعتهم لتحوُّلٍ كان سببًا في نهايتهم**».

تطلع إليه كريستيان مبتسمًا ابتسامة غامضة ومخيفة ثم قال: «**ليس هناك طيبون في هذا العالم يا بروفيسور، وإن كنتَ تعتقد ذلك فأنت مخطئٌ وعليك أن تغير اعتقادك، إن الطيّبين مجرد أناس يفهمون الحياة جيدًا، لكنهم لا يأبهون، يتركون مَن حولهم يظنون أنّهم أكثر ذكاءً وحيلةً منهم، بل إنهم ينغمسون في ذلك حتى لتظنّ أنهم بلهاء مساكين، لا يستحقون العيش في عالمٍ مليء بالسفلة**»، نهض من مجلسه ورمى الكتاب على المكتبِ فأصدر صوتًا مكتومًا ثم استدار مواجهًا المرآة حيث انعكسَتْ صورة البروفيسور عليها أيضًا، ثم قال وهو يحدث انعكاس الأخير «**الطيبون يا بروفيسور يسيرون في تلك الحياة كانعكاسٍ يمكن أن يتكسر ويتحطم ويتحول إلى مجرد شظايا، ولكن حقيقتهم تظل راسخةً قويةً، يهزأون في دواخلهم ممَّن حولهم ويحيكون المؤامرات داخلهم ويقتلونك ألف مرةٍ دون أن تدري، فلا تثق بالطيبين أرجوك؛ لأنهم أشرار نائمون، فلا داعي لإيقاظهم**»، ثم استدار مرة أخرى ونظر في عيني البروفيسور ثم ابتسم ابتسامةً قذفَتِ الرعب في قلبِ الأخير.

أخذ البروفيسور نفَسًا عميقًا محاولًا التماسك أمام تلك الفلسفة الغريبة، نسي ما جاء لأجله بعد أن استبدَّ به التفكير في تلك الأمور التي تحدث عنها كريستيان، نأى بنفسه عن مناقشةٍ لن تؤتي أُكلها والتزم الصمت، ثم أومأ برأسه وانصرف وهواجس كثيرة تدور بقلبه وتأكله، ماذا يفعل الآن؟!، وإلى أين تقود الأقدار كريستيان؟!، وكيف سيحدّد ذلك الشاب الاستثنائي مصيره؟!، فكر في إرسال خطاب إلى دكتور نيلسون؛ ليشرح له كلّ شيءٍ، ولكنه وجد أنه من الحماقة أن يخسر صديقًا عزيزًا كدكتور نيلسون، كما أنَّه أحسّ بأنَّ ذلك الأمر سيهينه على نحوٍ ما، فرَجُلٌ كنيلسون لن يتوانى عن الفتك به، وأقلّ ما سيفعله إكرامًا للصداقة القديمة سيقوم بالسعي في فصله من جامعة كامبريدج بفضيحة لن يتحمَّلها، كما أنَّه لن يستطيع تحمُّل صدمةٍ كهذه وهو في هذه السن الكبيرة، وتلك ليست الطريقة التي يتمنى بها إنسانٌ خَتْم حياته، لم يكن ثمَّة شخصٌ آخر يعرفه يُفرغ له ما في جعبته كي يستريح من عذاب الضمير الذي يأكله، فألزم نفسه الصمت وانطوى، لكن الأقدار كان لها قرارٌ آخر حيث أتته برقية من أستراليا تفيده بوفاة أخته الوحيدة التي لم يرها منذ سبع سنواتٍ، قهره الحزن وقرَّر السفر في رحلةٍ طويلةٍ ربما لن تتحملها صحته، ولكنه كان مرغمًا لإنهاء الأمور الخاصة بالإرث، كما أنه رأى أنَّ تلك فرصة مناسبة لينأى بعيدًا عن تلك الأجواء المقبضة التي عمَّت حياته وقلبَتْها رأسًا على عقبٍ، تمنى لو أن يجد السلوان والسلام في رحلته وقرَّر

في نفسه بأنَّ الإنسان يجد في الرسائل شجاعة أكبر، فقرر أن يترك رسالة إلى كريستيان يعترف فيها بكلّ ما نزغت به نفسه، وما اقترفته يداه في حقّه علّه يستريح من ذلك العذاب المهيمن عليه.

حينما انتهى من كتابة الرسالة في ذلك الصباح، وقبيل ذهابه في رحلته دلف المعمل فلم يجد كريستيان فقام بفتح أحد الأدراج ووضع الرسالة داخله ثم انصرف، ألقى نظرةً أخيرةً على المنزل كأنه يودّعه، ثم ركب عربته المنتظرة وانطلق في سبيله، انطلق بعيدًا وهو لا يعلم أنَّ ابتعاده سيكون سببًا فيما سيعدّ كارثة إنجلترا المدوية.

20

دسَّ يديه في جيوب معطفه ثم نظر نحو السماء المظلمة الخالية من النجوم والقمر للحظةٍ، وقف في ركنٍ بعيدٍ متوارٍ عن الأنظار، هل كان يكتشف حالة الجو البارد الذي يصاحبه عزيف الريح المرعب ووميض البرق المتواصل أم أنه كان يناجي الربَّ؟!، في الحقيقة إنَّ كريستيان كان ينتظر اللحظة المناسبة حتى تصفو الشوارع من المارّة، وتطيب له الأجواء المناسبة لتنفيذ خطّته، بعد أقل من ساعةٍ دلف الحانة بقدمين ثابتتين وقلبٍ تتقاذفه الأهواء، لقد حقّق رؤيته فقد استحالَتْ مشاعره إلى عقله بالكامل، فلقد تابع الموت في مواقف عديدةٍ، وحضر جنائز ليمعن النظر في الموت، الكائن الأسطوري الذي لا يخسر قضيته أبداً، قرأ في الكتب المقدسة كثيرًا؛ ليكتشف الحقيقة في الحياة والموت، اضطرمت أحاسيسه لمّا تأكّد له أن الموت مخلوقٌ شأنه شأن الحياة، ولكلٍّ منهما وظيفةٌ، وكل ما في الأمر أنَّ الإنسان ينال الاثنين في موعدهما، ولكن مَن قال إنَّ كريستيان لم يجرب الموت بنفسه قبل ذلك؟!

يُولَد الإنسان غير مدركٍ أيّ شيءٍ، وتبدأ حواسه في العمل رويداً حتى يصير متمكنًا منها ثم يكبر مع الزمن الذي اكتشف بأنّه أكثر الأمور إثارة، فالزمن من وجهة نظره أقدم المخلوقات، لحظة مستمرة، شعاع منطلق من نقطةٍ غاية في القدم ومستمرّ إلى ما لا نهاية، وأجزم بأن الساعة ليسَتْ أكثر من اختراعٍ وضعه الإنسان ليسهّل عليه حياته، وبأن الأمر أعقد وأشمل من ذلك بكثير، فلو كان البشر الأوائل نظموا اليوم على أنه ثلاثون ساعةً لسَرى الأمر على ما بعدهم جميعًا حتى هذه اللحظة، ولو أنهم نظموه على أنه مائة ساعةٍ لسَرى الأمر أيضًا على تلك الشاكلة، وهكذا دواليك، ولكن الزمن لا يعترف بالمجهودات الإنسانية ولا بتلك الحسابات الهشّة التي تبنّاها البشر، فالزمن هو تلك اللحظة الراهنة الآن والتي تستمر إلى الأبد، قائم بذاته وسلطانه الواسع الذي لا يعيه سوى الباحثين عن الكينونة الحقيقية للكون الكبير الغامض.

بعد ذلك يأتي دور الإنسان ليبحث عن الحقيقة من وجوده، والوجود هنا لا يقتصر على الشكل الماديّ، ولكن على ما هو أبعد من ذلك، فقد اعتبر أنّ الجسد ما هو إلا ستارٌ بيننا وبين الحقيقة الكبيرة، وما علينا سوى اجتيازه والتغلب عليه للوصول إلى تلك الآفاق البعيدة التي يوجد بها الربّ العظيم وسر الكون الكبير والزمن الغامض، كلّ تلك الفلسفات أحسّها كريستيان بقلبه، ورآها بعينه، بل قرّر في نفسه أنّ ما سيقدم عليه هو دراسةٌ جليةٌ لكلّ تلك الحقائق الكونية التي غفا عنها العلماء منغمسين في دراسة الجسد

مهملين تلك المنطقة الروحانية المهمّة التي تمثل حجر الأساس لأيّ تجربةٍ ودراسةٍ علميةٍ، ولذلك رأى أنّه من الواجب مطالعة الموت والنظر في وجهه.

كانتْ نتيجة تأملاته عظيمة أيضًا، فقد استطاع أن يجوب العالم من موضعه، ويكتشف أبعادًا لم يكن يتخيّل وجودها من الأساس واستطاع التواصل مع الأفكار التي يبثّها جسده البعيد عنه، جسده الذي قرّر التخلص منه في لحظة رغبةٍ حقيقية غزاها ألمه القديم وفشله المستمر.

جاب شوارع كامبريدج باحثًا عن الموت بقلبٍ يقظٍ ظمآن لمعرفة الحقيقة، فألقاه قدره في طريق رجلٍ عجوزٍ مريض يحتضر، ظلّ يتابعه في تلك الثواني الأخيرة قبل أن يودّع الحياة، جحظت عيناه ودقّ قلبه في صدره دقًّا يشبه دقّ الطبول وهو يحس بالروح تخرج رويدًا وبنظام غريبٍ ودقيقٍ للغاية من القدم إلى أعلى الجسد حتى تختفي تمامًا وتترك الجسد هامدًا بلا حياةٍ تذكر، سأل الرجل المحتضر عمّا يحس أو يرى، فقال العجوز قبل أن تفارقه روحه بنبرةٍ ضعيفةٍ والدموع تسيل على خديه في مشهدٍ مثيرٍ: «**أراهم جميعاً هناك، إنّهم بانتظاري**»، ثمّ سكن وجحظت عيناه وتمتم بكلماتٍ غير مفهومةٍ، ثم ارتسمتْ ابتسامة على وجهه الشاحب الخالي من الحياة، ثم فارقَتْه الروح تمامًا.

وحضر كريستيان في أحد المستشفيات بكامبريدج موت شابٍّ صغير السن يملك بنيةً قويةً ووجهًا بشع الخلقة صدمَتْه عربةٌ حيث دهسَت الأحصنة بحوافرها صدره، كان يتنفّس بصعوبةٍ، وعيناه جاحظتان تنظران إلى شيءٍ لا يراه كريستيان، فتأكّدت له نظريته عن الأبعاد الأخرى التي لا يراها البشر، ولن يروها إلا إذا تخلّصوا من تحكم أجسادهم بهم، لم يقل هذا الشاب شيئًا لكنه بدا حزينًا وهو يوّدع الحياة، أحس كريستيان بأنّ ذلك الشاب كان متشبثًا بالحياة، لطمه الموت على حين غرّة، أوجعه دون سابق إنذار ثم جاء ببهائه وقوته وسلطانه وانتزع نفَسه الأخير، هالَته كلّ تلك الأفكار وشرع يبحث ويبحث ويبحث دون توقفٍ، يقرأ ويحلّل ويفكر ويمعن النظر، يراقب الأحياء والأموات على حدّ سواء، واكتشف في رحلته تلك أنَّ الأرض تعج بالأموات أكثر ممّا تعج بالأحياء، فالكثير من الناس يهيمون في تلك الحياة بلا هدفٍ، ينتظرون اللحظة الأخيرة بفارق الصبر كأنّهم أموات تقرّر تأجيل دفنهم.

اصطحب معه شابًا ذا ذراعٍ واحدةٍ كان قد فقدها خلال الحرب العالمية الأولى التي راح ضحيتها ٣٥ مليون شخص بريء حول العالم، جريمتهم الوحيدة أنهم وُجدوا في هذا الكون في هذا التوقيت البائس الدموي، لقد أبادَت الحروب أكثر ممّا أبادت الكوارث الطبيعية، لقد سعى الإنسان في محو وجوده بلا طائلٍ

كأنَّه في بحثه عن الحقيقة أحسّ بالضياع والملل وقلة الحيلة فقرّر الانتحار علَّه يجد ما يريحه في عالم آخر.

جلس الشاب حزينًا داخل المعمل وقد غشيه السُّكْر حيث عملَت الخمر على إثارة عواطفه الجياشة، كان شابًّا جميلاً يملك عينين خضراوين ذواتي بريق أزرق بهتهما الحزن ووجهاً أقرب إلى الاستطالة وأنفاً صغيراً بدا كأنّه ضُغِط من جانبيه وشفتين رفيعتين تعكس حركتهما حزنًا عميقًا يجاهد في إخفائه، بينما كان شعره قصيرًا مشذبًا بعنايةٍ حاله حال كل العسكريين.

«**أتعرف يا صديقي؟!**» نظر الشاب في قناع كريستيان الذي أحضره للمهمة «**إني مِتُّ هناك في تلك الحرب اللعينة التي لا أدرك حتى لِمَ خضناها من الأساس؟!، لقد أُبيدت زهور شبابنا في شيءٍ لا نعرف كُنهه**» جرع كأسًا أخرى وهو يمعن النظر في كريستيان «**أسوأ ما حدث لي أنّي عدتُ، ليتني متُّ مع مَن مات هناك، لقد كنت أدافع عن حياتي باستماتةٍ ربَّما لأنَّ الحياة لا تُسلب بسهولةٍ كما أنَّها غريزة كما تعلم لا ننفكّ عن إصلاحها والعمل على الحفاظ عليها مهما كلّفنا الأمر**»، ثم نظر تجاه ذراعه وقال بأسى: «**لقد كلفني الحفاظ على حياتي ذراعي، ولكن الأمر غير ذلك تمامًا، فحينما عدتُ وجدتُ أني الوحيد ضمن أصدقائي الذي بقي على قيد الحياة، بينما الآخرون قتلوا جميعًا باسم الواجب المقدس**»، ثم ضحك فجأة ضحكةً غريبةً مريرةً ثم قال وقد اعتراه سكونٌ مخيفٌ «**الواجب المقدس!!**

تلك الكلمات الجوفاء دفع ثمنها أناسٌ لم يستحقوا الموت بتلك الطريقة، بل لم يستحقوا العيش بهذا الشكل قطُّ، كانت أقصى أحلامهم تكوين أسرةٍ والعيش في أمانٍ وراحةٍ بعيدًا عن تطلعات العالم الكبيرة التي لا أفهمها حقًّا، لقد فقدت ذراعي في الحروب ولكني أيضًا فقدت نفسي وروحي الحقيقية هناك، لقد هنأت ذراعي المفقودة بالحياة وعدت أنا ببقيتي بلا حياةٍ، إني أحسد تلك الذراع التي استراحتْ، وأرثي ذلك الجسد الميت، لكمْ أتمنى الموت لأعود كاملًا كما كنت».

سقطت الكلمات على قلب كريستيان كسقوط صخرةٍ كبيرةٍ من أعلى تلٍّ فوق شخصٍ يمرّ صدفة، آلمه ما جاش به الشاب إثر شُكره وأمعن النظر في كل تلك النظريات والفلسفات الغربية عن البشر، أحس في أعماقه بأنهم رغم تعجرفهم هم كائنات ضالة ضعيفة لا ترتقي لهذه الحياة، أحسَّ أيضًا بأنَّ ما يقبل عليه سوف يكون راحةً مقدمةً على طبقٍ من ذهبٍ لشابٍّ يتمنى لقاء الموت ويمقت الحياة، وضع المخدّر في مشروبه وسرعان ما ذهب الشابّ في سباتٍ عميقٍ، قام بوضعه على الحمّالة، ثم قام بتوصيل الأسلاك والمعدات به بعد أن قام بتعريته تمامًا، هاله منظر جسده الذي تناثرتْ فيه الجروح، شرع كريستيان في استنباط ما أراده من ذلك الشابّ، الجين المتعلق بعينيه الجميلتين الذي فشل في الحصول عليه من ضحيّته الأولى، استمرت التجربة لستّ ساعاتٍ متواصلة لم يغفُ خلالها كريستيان، بل لم يطرف له جفنٌ وهو

يراقب بهدوءٍ معطيات تجربته ومخرجاتها، انتفض جسد الشابّ بشدةٍ أكثر من مرة حتى إنّ كريستيان ظنَّ أن الطاقة الكهربائية في جسده تمردتْ فأعلنت الحرب، وخشي أن يموت قبل أن تكتمل تجربته، كان سعيدًا بغياب البروفيسور وأحسَّ بأن عناية إلهية تساعده وتسهل له الأمور، تشجع أكثر وأيقن في نفسه بأنَّ الكون شرع في عقد مصالحةٍ معه لتحقيق مأربه فقام بتذليل العقبات له.

حينما انتهى نظر في تلك الشرارة الكهربائية التي شرعَتْ تضرب هنا وهناك كالصواعق التي تخرج من آلةٍ قام بصنعها، كانت صناعة تلك الآلة أكبر مشكلة واجهَتْ كريستيان، فالآلة مختصة بتخزين الجينات في بيئة تناسبها وقد عدَّ العلماء أنَّ صناعة آلة كهذه شيء مستحيل، لكن على ما يبدو أنّه نجح، وتلك الشرارات الكهربائية أكبر دليل على ذلك، غمرَتْه الفرحة للدرجة التي عقدت لسانه ودفعته لأن يقف في مواجهة الشرارات يرقبها من مسافة لا تسمح له بلمسها بعيونٍ دامعةٍ وقلبٍ يثب في صدره، لم يكن ليتخيل أنَّ تجربته ستنجح وأنَّ ذلك الحلم المستحيل أضحى واقعًا في مواجهته الآن، ناوشَتْه لوهلة الذكريات القديمة المؤلمة ومرَّ أمامه شريط حياته البائسة وفشله، ولكنه سرعان ما نحَّى تلك الذكريات قائلًا في نفسه: **«لا أسى ولا عذاب ولا فشل بعد الآن»**.

أنساه نجاحه الشاب النائم الذي لا يدرك حقيقة وجوده، لقد خدره كريستيان بجرعةٍ كبيرة، فوقف في مواجهته يتأمله وكأنه يتأمل تمثالًا في متحف، رأى آثار التجربة على الشاب الذي ازرقّتْ مواضع كثيرة في جسده إثر التجربة العنيفة التي تعرّض لها، لمسه بحنوٍّ كأنّه يربتُ عليه واستحالت مشاعره من الفرحة إلى الحزن وهو يتأمّله، فقد كانت مشكلة تجارب كريستيان الوحيدة أن أي جين يقوم باستنباطه سيفقده صاحبه، أي أنّ ذلك الشاب أضحى كفيفًا، وفي الحقيقة إنَّ أي معادلة أخرى أو تجربة سيقوم بها ستؤدي إلى الهلاك في النهاية، اقترب من وجهه حتى صار وجهه ملاصقًا له، لمس بوجهه أنفاسه الضعيفة التي شرعَتْ تنتظم وفكر مليًّا شارداً في عالمه الخاص، أحسَّ بأنَّ ما قدمه للشاب خدمة إنسانية طالما سعى إليها، ولكنه أدرك في نفسه أيضًا أنَّ بقاء الشاب على قيد الحياة قد يساعد في هلاكه، فالأخير يعرف جيدًا مكان منزل كريستيان كما أنَّ عددًا من الناس رآوهما معًا وهما يغادرأن الحانة وهذا كفيل بتعريضه إلى عواقب وخيمة لن تقلّ عن الشنق حتى الموت، هاله التفكير في العواقب وقرر في النهاية التخلّص من الشاب لكنه ابتسم ابتسامة مريبة وحزينة قائلًا في نفسه: **«إن هذا الشابّ سيعود مرة أخرى بصورة أخرى في اليوم الذي سأنجح فيه بتغيير مجرى التاريخ، سيعود ليشارك بجزء منه، عينيه، في صورة آدمي آخر يرى الحياة بمنظور مختلف، بمنظورها الحقيقي، دون وجع أو آلام أو حروب لا طائل منها**

سوى التدمير والخراب، سيُسهِم ذلك الشاب في صناعة جيلٍ جديدٍ وثورة علمية حقيقية تضمن له الخلود رغم الموت المهيب».

أوجعه بأن يقوم بذلك الأمر لمرة ثانية ولكن لا مناص من الإجهاز عليه حتى يتسنّى له تحقيق مأربه كما رسمه من البداية، اقترب من الشابّ ونظر في وجهه الجميل الناعس الحزين، تأمله لمدةٍ طويلةٍ، بدا في عينيه أنه قرّر شيئًا فجلب موسي حلاقة وشرع في تشويه خلقة ضحيته والدموع تتساقط من عينيه، كانت الدماء تسيل غزيرة على وجه الشابّ فتحولت خلقته الجميلة إلى خلقة بشعة مشوهة، رمقها كريستيان لساعة كاملة متأملًا دون إحساس بالوقت أو حتى بالوجود نفسه، وتخيل حياة ذلك الشاب بتلك السحنة الدميمة، وفجأة مال وجه الضحية تجاه المرآة فلمحها كريستيان، وما لبث أن صرخ صرخةً مدويةً، رأى نفسه فيه، هل رأى الشكل الحقيقي الذي دفع الناس لمقته؟!، أم أنه رأى نتيجة جرمه يواجهه بوجه دام بشع؟! آلمه ذلك ووخزه كنصل السكين في قلبه فجذب مرتجفًا سكينًا من بين أدواته ورفعها عاليًا وعيناه مثبّتتان على الشاب ثم غرس السكين بكامل قوته في قلبه وهو يصيح مهتاجًا ودموعه تكاد تغشى رؤيته: «**لتعلم أيها الوجه أني بقتل صاحبك أمنحك الحياة**».

احترس ممّا تؤمن به فقد يكون سببًا في دمارك.

21

انخفض صياح المتجمهرين حتى سادهم سكونٌ مصحوبٌ بذهولٍ طال لفترة طويلة حتى اعتقد كريستيان بأنه سيمتد إلى الأبد، أحس بأن الزمن قد توقف تمامًا عند هذه النقطة ولم يعد هناك وجودٌ من الأساس، ولكنه هنا يرمقهم وينظر في وجوههم المتجهمة الذاهلة فبَدَوا كمَن أصابتهم لعنةٌ، رفع كريستيان يده بهدوءٍ كأنه يحيّيهم أو ليلفت انتباههم ليتأكّد من حقيقة وجودهم، حرّك يديه بشكلٍ استعراضي كأنّه ساحر سلب لبّ الحضور وينتظر التصفيق والتبجيل تقديرًا لعمله الاستثنائي، سادَتْ همهمات بين المتجمهرين الذين لا يقلّ عددهم عن ثلاثة آلاف شخص، أحسّ بأنّ صوت الهمهمة يعلو أكثر وأكثر، شرع ينظر في وجوههم مستنبطًا فكرةً، لاح أمامه المجد الذي ينتظره، ابتسم ولكن سرعان ما تقوض وجهه وغار قلبه حيث شرع صياح المتجمهرين يعلو مرة أخرى فتصبَّب العرق منه فاستفاق من غفوته بقلب مثقل وفكر مشتت.

نظر حوله فوجد الآلة تضرب شرارات كهربائية ما زالت بشكلٍ مثيرٍ يكهرب القلوب، نهض من مكانه بصعوبةٍ وعقله يضج بأفكارٍ غير واضحة، أتى بورقة وقلم ثم كتب اسم ضحيته الثانية حتى لا ينسى التاريخ مَن تطوعوا لصناعته، كما أنّه شعر أنه واجبه تجاههم، مسح وجهه بكفيه محاولًا الاستفاقة، وفجأة أتتْه فكرة مفزعة وبان عليه أنه تذكر شيئًا، هرول من مكانه مسرعًا تجاه الحمالة ولكنه لم يجد الجثة، انقبض قلبه وهرول تجاه الباب الخارجي مرتطمًا أكثر من مرة في أكثر من موضع حتى أدميَتْ قدمه مع سقطته الأخيرة، نظر حوله فزعًا ولكنه لمح الفأس ملقى على أرضية الحديقة وبجانبه ملاءة تناثرت عليها دماء حديثة العهد، وقف للحظة مستذكرًا فاكتشف أنه قام بدفنه ليلة أمس بل تلا عليه الصلاة كما ينبغي أن يفعل.

دلف إلى المنزل مرة أخرى مفكرًا في حالة النسيان الغريبة التي لحقَتْ به وقرر في نفسه أنَّ عليه أن يبقى مستيقظًا، دلف إلى المعمل بأرجلٍ مثقلةٍ مفكرًا ثم نظر على الآلة التي صنعها، الآلة تشبه بناء حجرة متوسطة الحجم، مربعة الشكل ولكن بلا جدرانٍ، مكونة من أربعة أعمدة من الفولاذ الذي يتصل كل منها بالآخر عن طريق عمود في المنتصف، في أعلى الآلة توجد دائرة شحن كهربائية بدَتْ كصحن طائر تتدلّى منها عشرات الأسلاك المتصلة بالعمود الفولاذي في المنتصف، تلك الدائرة مسؤولة عن إرسال الإشارات الكهربائية بينما هناك مقبض يشبه المقبض الموجود

في الأبواب مصنوع من النحاس في جانب الجهاز الأيمن معلق في مقدمة العمود في الثلث السفلي منه، ذلك المقبض هو أهمّ ما يميز الجهاز حيث بمجرد إدارته سيقوم الصحن بإرسال إشارة إلى الجهة المسؤولة عن إصدار الشرارات الكهربائية لتجمعها في نقطةٍ واحدةٍ وترسلها إلى المنتصف، حينها سيقف كريستيان في اليوم والساعة التي يقررهما ليتلقى تلك الإشارات التي تعمل على نقل الجين إليه، وفي الحقيقة إنَّ كريستيان لم يكن يعلم أكثر من ذلك حيث إنَّه لم يحاول تجربته؛ لأنَّ الجهاز ببساطة يتطلب متطوعًا لإتمام التجربة وفي حالة كريستيان فإنَّه من المستحيل إيجاد متطوع، ليس لقلّة حيلته في إيجاده، فما أكثر البؤساء والأغبياء!، لكن الأمر هنا يعتمد على مستقبله بأكمله، ليس المستقبل العلمي وإنما مستقبل وجوده، البذرة التي خلفتْ كل تلك الأفعال وراءها، لا يمكن له بتلك البساطة أن يضحّي بوجوده وبتجربةٍ قد تنجح فتحقق له ما سعى إليه، فكر مليًّا وسرعان ما كتب بعض الأشياء في مفكرته الخاصة التي لم تعد تفارقه ليدوّن بها ما يأتيه من أفكارٍ في أي وقت شاء، جزع وأحسّ بأن الأرض تميد من تحت قدميه حينما تخيل الفشل أمامه وهاله الحلم الغريب الذي راوده بعد نومه المفاجئ الغامض الثقيل وقرّر في نفسه أنَّ عليه أن ينفذ معادلته دون إمهال أو إرجاء.

خلع سترته وسرواله المبلّل بالدماء إثر سقطته، ثم خلع أيضًا لباسه الداخلي حتى صار عاريًا تمامًا، تأمّل جسده لثوانٍ ثم لمس صدره بحركة عصبية وهو ينظر متأملًا الشرارات المنبثقة أمامه كوميض البرق، لم يكن يتخيل أنّ الأمر مخيف لهذه الدرجة؛ لأنه وجد نفسه غير قادرٍ على تحريك قدميه، ينظر فزعًا إلى تلك الشرارات التي تضرب بلا توقفٍ، قرّر في نفسه بعد تفكير لم يطل أنه إن مات فسينتهي كل شيء وسيعمّه السلام وليس عليه أن يفكر في أي فشلٍ أو نجاح الآن؛ لأنَّ الأمر أكبر من طاقته على استيعاب كلّ تلك الأفكار الغازية لعقله أو تفنيدها.

اقترب من الجهاز بخطواتٍ مترددةٍ ثم توقف بجانب المقبض، ثم وضع عموداً حديديًاً ثقيلاً في الاتجاه الذي يديره نحو فتحه بحيث يدفع ثقل العمود بعد ثوانٍ المقبض ليدور فتعمل الآلة، أدرك بحسبةٍ صغيرةٍ أنه خلال عشر ثوان سيدور المقبض وتعمل آلته الخرافية، اتجه سريعًا ودون تفكير رغم الخوف الذي يدبّ في أعماقه تجاه المنتصف، كان الحماس والانفعال والخوف يسيطرون عليه، شرع يعدّ في سره، واحد، اثنان، ثلاثة، حتى الرقم عشرة وبسرعة البرق دار المقبض بتأثير ثقل العمود، أصدرت الآلة صوتًا رهيبًا رجَ الأركان وقلب كريستيان معًا الذي أحكم إغلاق جفنيه على عينيه مرتعدًا فتمركزت الشرارات الكهربائية في المنتصف فوقه تمامًا حيث صعقَتْه الشرارات بشدةٍ، فصرخ كريستيان صرخات متتالية تقشعر لها الأبدان، جحظت عيناه

رغمًا عنه وانفرجتْ ذراعاه أيضًا وقدماه وارتفع جسده قليلًا كأنّ قوة خفية تحمله فبدا منظره مهيبًا مرعبًا، وانطلقت طاقة كبيرة من النور حتى حالَتْ دون رؤيته أو رؤية أي شيء داخل الغرفة التي عمّتها أصوات سقوطٍ وتحطّم، وفجأة توقفت الآلة مصدرة بعض الشرارات الكهربائية المتناثرةً وعم الصمت والسكون الكون كله.

اختفى وميض الضوء رويدًا مخلّفًا بعض الدخان البارد الغريب ورويدًا شرع جسد كريستيان المسجّى على الأرض يظهر، بينما الصمت المقبض يحيط بالمكان خلا تلك الشرارات الضعيفة التي يصدرها الجهاز من وقتٍ لآخر، للحظة تخيّل كريستيان بأنه أُرسل إلى العالم الآخر وبأنّ كل شيء قد انتهى تمامًا لكن الحركة البطيئة والواهنة لمفاصل يده كانت خير إثباتٍ على أنَّ الحياة ما زالت تدبّ فيه.

لم يفتح عينيه وظل مستلقيًا لوهلةً محاولًا تكوين إحساس حقيقي عن المكان حوله، نهض بصعوبةٍ بالغةٍ ولكنه سقط مرة أخرى، لكنه حاول لمرات أخرى أربكه فيها الفشل إلا أنه وقف على قدميه الواهنتين، فتح عينيه والخوف يتملك منه، كانت المرآة في صدر المعمل قد تهشّمت ترقبه بقاياها عن كثبٍ وهو مولٍ ظهره لها، رأى أنَّ المكان قد عمته الفوضى حيث تطايرت الأوراق وانقلب المكتب والأدوات وتكسّرت بعض المعدات وكانت هناك رائحة دخان غريبة، أحسّ ببرودة غريبة تجتاح

جسده العاري، أوجسه ملاقاة المرآة لعلمه بأنَّ تجربته إمَّا نجحت نجاحًا منقطع النظير وإمَّا فشلتْ، وفشلت للأبد.

أغمض عينيه مرة أخرى ثم اتجه صوب المرآة يتحسّس طريقه بين الفوضى في المعمل حتى اصطدم ببقاياها اصطدامًا خفيفًا، لمسها بيده فوخزَتْه حوافها المتكسرة، لكنه لمسها كأنّه يلمس نفسه ويربتُ عليها ويرجوها أن تُذعن له ولا تخشى النتيجة، فتح عينيه بصعوبةٍ بالغةٍ خائفًا مترقبًا والحماس يدبّ في كلّ جزءٍ فيه، نظر في جزءٍ مكسورٍ باقٍ من المرآة مليًّا، اقترب منه أكثر حتى كاد يحطمه، جحظت عيناه، لم يكن يصدّق ما يراه، أنّى له أن يصدقه؟!، سالت دموعه حارّة فشرع يمسحها سريعًا حتى لا تعيق رؤيته لكنه في النهاية أذعن لها وبكى.. بكى كريستيان.

بكى وبكى وظل يبكي.

22

بؤبؤ أخضر صغير له بريق أزرق باهت يحيطه بياض مائل إلى الاصفرار، وجفنان هشّان جميلان لا تغطي أطرافهما الأهداب، ظلّ يتأمّل الشكل الجديد بلسان يعقده الدهشة والفخر، لقد تحوّلتْ كل الكآبة والأسى التي مرّ بهما على طول حياته إلى طاقةٍ لا نهائية من السعادة، حدّق في انتصاره كأنّه لا يصدق حقيقة ما يرى، لمس عينيه الجديدتين مرات ومرات في المرآة حتى يتأكد من حقيقتهما وللحظة اجتاحه إحساسٌ مؤلمٌ بأنّ ما يحدث هو نتيجة هلوسة حاقت به فهرع إلى غرفة البروفيسور، دلف إليها ثمّ بشيء من الهياج بحث عن المرآة فوجدها في صدر الغرفة، وقف يتأمّل نفسه ليؤكد لنفسه الحقيقة، بأنه يرى العالم الآن كما رغب وللمرة الأولى على طول حياته بأنّه استطاع أن يستنقذ قلبه قبيل السقوط في الهاوية، بأنّ السماء ترسل له إشارةً لتؤكد صدق مساعيه وصحتها، ليذهب العالم إلى الجحيم إذنْ، وليذهب كلّ مَنْ ظن أن المستحيل مستحيل إلى الجحيم أيضًا.

ازدادت حماسته واضطرمت داخله فقرَّر ألا يتوقف، فقد نجحت تجربته وأثبت قدرته على التحوَل، فعمد إلى رسم خطةٍ تسهل عليه تحقيق مأربه دفعة واحدة، قرّر في نفسه أنّه سيجمع كل ما يريده من جينات أولًا ثم يترك كل ذلك إلى تجربةٍ وحيدةٍ أخيرةٍ، أحسّ بأنه لن يستطيع أن يمرّ مرارًا بتلك التجارب ويرى نفسه يتحوّل شيئًا فشيئًا، فقلبه الطامح الثائر لن يستطيع الانتظار، لن يقبل الانتظار، فلقد ملك العالم بين يديه وأضحى كلُّ شيء ممكنًا الآن، فلِمَ يعرّض نفسه لتجرّع السعادة والانتصار قطرة قطرة وبيده أن يجرعها مرة واحدة وللأبد؟!

خلال الأيام اللاحقة عمد كريستيان إلى ابتكار عددٍ كبيرٍ من الأقنعة وصناعتها حتى يسهّل عليه تنفيذ خطته كما أن ارتداءه للعديد من الأقنعة المختلفة سيجعله في أمانٍ بعيدًا عن التشكّك أو الإمساك به إن حدثت في الأمور ما لا يتوقّعه، قام بإرسال خطابين موجّهين إلى عائلته، خطاب موجّه إلى إيما وتشارلي وخطاب آخر موجّه إلى دكتور نيلسون، طمأن أمّه بالتبنّي وأخاه على نفسه ووعدهما بقضاء عطلة الكريسماس معهما، ولقد كانت مشاعره جياشة في الخطاب بشكلٍ كبيرٍ للدرجة التي دفعَتْ إيما للبكاء شوقًا للقياه، كما أن تشارلي كان متحمّسًا للقاء أخيه الذي طال غيابه وانقطعت أخباره في الفترة الأخيرة.

أمّا الخطاب الموجه إلى دكتور نيلسون فقد احتوى على كلمات قليلة للغاية، كلمات أدهشت دكتور نيلسون حيث كتب

كريستيان في الخطاب: **«لقد تحوّل الفناء إلى حياةٍ والخيال إلى حقيقة واستحال الحزن إلى سعادةٍ، كما أؤكد لك بأن الثمن الذي دفعناه لا يُقارن بما حققته»**.

ابتسم دكتور نيلسون ابتسامة حزينة، وقف ينظر من النافذة في غرفة مكتبه على حديقة منزله، يتأمّل الرياح التي تعوي خارجًا وهي تهزّ بقوة الأشجار والزرع، تاهت عيناه في سقوط أوراق الشجر وتخيّلها كالأرواح المتداعية التي حان وقت قطفها لتؤول إلى حياةٍ أخرى غامضةٍ لا يكاد يعرف عنها شيئًا، ولكنه في سريرته كان يعرف الكثير والكثير جدًّا عن حياة يعيشها اتسمتْ بكل ألوان الغموض المرهقة البائسة أيضًا، ثم تساءل في نفسه بأسى: أيّ ورقة ستسقط قريبًا؟!، ثم قام سريعًا بكتابة خطاب لكريستيان وللأسف ذلك الخطاب لم يلقَ أيّ قبول لدى الأخير كما لم يلقَ غيره خلال الفترة السابقة بأكملها حيث شرع كريستيان في إلقاء كلّ الخطابات في درج مكتبه دون أن يعيرها اهتمامًا وقد تملك منه الشيطان ومن روحه تمامًا.

في الحقيقة إنَّ الجريمتين اللاحقتين اللتين ارتكبهما كريستيان كانتا أكثر إرهاقًا عن سابقتيهما؛ لأنَّ أحد الضحايا استفاق من سكره تقريبًا قبل أن يتمكّن كريستيان من وضع المخدّر له مما أدّى إلى نشوب معركةٍ داميةٍ بينهما انتهتْ بقتل الضحية بسكينٍ في صدره، وغضب كريستيان غضبًا شديدًا وظل يركل الضحية ركلًا مستمرًا وقد اعتراه انفعالٌ شديدٌ ثم صاح

فيه: «**أيها الغبيّ، لقد امتنعتَ عن صناعة التاريخ**»، دفنه بحزنٍ شديدٍ لكنه قرر كتابة اسمه بين أسماء ضحاياه عرفانًا له بالجميل؛ لأنه في النهاية يُعَدّ تجربة حقيقية في التمرس على القتل، ذلك الشيء الدميم الذي يدفعه ثمنًا لتحقيق مأربه، أما الضحية الأخرى فكانت إنسانًا بائسًا للغاية، فقيرٌ، معدمٌ لا يملك من أسباب الحياة ما يدفعه للاستمرار، وقد تفاجأ كريستيان حينما قال له: «**أنا أعرف جيدًا بأنكَ جئت بي إلى هنا لتقتلني، أرجو أن تكون ميتةً رحيمةً**».

نظر له كريستيان مذهولًا وقد عقدت الدهشة لسانه حيث كان في تلك اللحظة يدسّ المخدّر في كأسه، فأردف الضحية وهو يتناول الكأس من يد كريستيان المتجمّدة من هول المفاجأة: «**لا هناء في حياة تعجّ بمجانين مثلك**»، ثمّ تجرع الكأس مرة واحدة، سالت دموع كريستيان وهو يقوم بعمله على ذلك الشاب المسكين ولكن ما باليد حيلة، وللحظة هيّأ له عقله بأنه يقدم أعظم هدية لهذا المسكين بتخليصه من الحياة التي طالما نبذها، وقد كان رحيمًا به على عكس الضحايا السابقة حيث لم يقم بتشويه خلقته كالمعتاد كما يفعل مع البقيّة، ولكنه اكتفى بجرحٍ طوليٍّ في وجهه – من أذنه اليمنى إلى الأذن اليسرى – سالتْ على إثره دماء غزيرة، ثم غرس سكّينه في قلبه صائحًا والدموع تكاد تغشى رؤيته: «**لتعلم أيها الوجه أنّي بقتل صاحبك أمنحك الحياة**».

انتشرت الأخبار على طول مدينة كامبريدج باختفاء أربعةٍ من شبابها دون إنذارٍ، وتدخلت الشرطة في الأمر للتحقيق بشأن ما يحدث حيث هلع الناس وتكاثرت التساؤلات الغامضة والمخيفة حول ما حدث للضحايا، هل اختفوا بفعل فاعلٍ؟!، أم إن الأمر كله منوطٌ بظروف عادية كالسفر أو الهجرة دون إخبار أحدٍ خصوصًا أنَّ لكلّ ضحيةٍ ظروفها الخاصة التي لا تتوافق مع أخرى؟!، أم أنَّ هناك قاتلًا متسلسلًا يجرجر هؤلاء الشباب إلى الهاوية دون أن يلاحظه أحدٌ؟!، ولكن ما دوافعه للقتل؟!، هل هناك خيطٌ خفيٌّ يضع الضحايا في بوتقة واحدة ليكونوا عرضة للهلاك؟!، لا أحد يعرف ولم يستطع أحدٌ الجزم بشيءٍ واضح.

أمَّا عن الشرطة التي تدخلتْ في الأمر للتحقيق فقد كانتْ في أوجِ حيرتها، شرعتْ تمشي وراء الخيوط الممكنة علّها تجد خيطًا يقودها إلى شيءٍ ينير بصيرتها العمياء، لذلك وجدت أنَّه لا مناص من تشديد الحراسة على المدينة ونشر قواتها بها بشكلٍ خفيٍّ حيث ارتدى أفراد عديدون من الشرطة الملابس المدنية وانخرطوا بين الناس صباحًا ومساءً حتى يتسنَّى لهم القبض على المجرم الغامض إن وجد.

وسرعان ما أُبلغت الشرطة عن اختفاء ثلاثة ضحايا آخرين في ليلتين فقط، فازدادت الأمور تعقيدًا واشتدّ غضب الناس عليهم ووصموهم بالعار لعدم تمكّنهم من كشف الستار عن تلك القضية المقلقة المرعبة، لم تجد الشرطة أيّ دليلٍ يقودها أو حتى

لمحة ولو صغيرة عن الشيء المشترك بين هؤلاء الضحايا الذي أدّى لاختيارهم من قبل ذلك القاتل الملعون.

لم يمرّ سوى أسبوعين كان خلالهما كريستيان لا يتوقّف عن عمله ليل نهار عالمًا في نفسه أنَّ عليه الانتهاء في أقرب فرصة حتى لا يفتضح أمره وتصبح العواقب وخيمة، وصل عدد ضحاياه خلال هذه المدة إلى ١٥ ضحية ومع بعض الحسابات المعقدة أجزم أنَّ عليه أن يقتل سبع ضحايا أخرى حتى يكتمل عمله بالشكل الذي ابتغاه منذ البداية.

في تلك الليلة ذهب إلى حانةٍ حقيرةٍ على أطراف المدينة، دلفها بهدوء محاولًا بقدر الإمكان عدم إثارة الانتباه تجاهه ولمعرفته بنفسيّة البشر فقد جلس في مكانٍ واضحٍ للعيان بشكل عادي، فلطالما أجزم أنَّ البشر عميان عن الحقيقة دائمًا، خصوصًا إن كانتْ في مواجهتهم، فغالبًا ما تكون الحقيقة واضحة أمامنا ولكننا نأبى رؤيتها بملء إرادتنا ونشرع في البحث عنها بعيدًا عن وجودها الحقيقي.

جحظت عيناه حينما لمح الشخص الواقف في مواجهة الساقي، تأمّله لهنيهةٍ مفكرًا، كان هذا الشخص هو نيلسون الشابّ، اعترته أحاسيس متناقضة وهو يسبح داخل ذكرياته مع ذلك الشابّ الذي أوجعه وآلمه دون أن يقدّم له ما يدفعه لهذه التصرفات الخالية تمامًا من الشهامة والنبل. فوجه دميم واحد أزال كل الذكريات الجميلة بينهما كأنها لم تكن، بل دفعه أيضًا إلى

إبراحه ضربًا دون تأنيب لضميره أو سؤالٍ عن الحقيقة، بل انجرف نيلسون في توبيخه كالآخرين والإعراض عن حقيقته والإغراق في إذلاله، بل نَعْته أيضًا بالمسخ الدميم كما فعل الجميع معه، فقال بشكلٍ لا إرادي كأنه يحدث نفسه: «**فليذهب المنافقون جميعًا إلى الجحيم**».

لم يمرّ وقت طويل حتى كان نيلسون الشاب في صحبة كريستيان داخل المعمل في منزل البروفيسور، يتبادلان الحديث والنقاش حول أمور عديدة لا تخلو من مزاح ومرح وسُكرٍ يناوش نيلسون وحده وقد أقرّ الأخير بأنه يعرف ذلك المنزل جيدًا حيث يقطن العالم الجليل هنري ويزلي في هذا المنزل والذي يقوم بإلقاء محاضراته المجنونة في جامعة كامبريدج التي يدرس بها، وبعد أن تملك السُكْر منه اقترب من كريستيان ثمّ نظر حوله كأنه يتأكد من عدم وجود أحدٍ ثم همس وكأنه يودعه سرًا: «**أتعلم أني كسبتُ مالًا كثيرًا، بل أصبحت مرموقًا بين زملائي بفضل هذا العالم**».

تطلّع له كريستيان غير آبهٍ بكلماته التي غلبها السُّكر ونهض من مجلسه كي يجلب زجاجة خمرٍ أخرى أو بالأحرى ليدسّ له المخدر وفي تلك اللحظة سمعه يقهقه عاليًا دون سببٍ، فأرجأ الأمر إلى السُّكر الشديد الذي أذهب لبّه فسمعه يقول: «**لقد اتفق معي البروفيسور أن أفضح محتالًا لقاء مبلغٍ كبيرٍ من المال ودروس إضافية في علم الفلسفة مع بعض التوصيات لدى بعض العلماء والمحاضرين في الجامعة**»، ثم جرع الكأس في يده دفعة

واحدة فاستدار كريستيان متشكّكًا ناظرًا له وأمهل نفسه دقيقةً قبل أن يدسّ المخدر له حيث أثاره الاعتراف الأخير تحت وطأة السُّكر بينما نهض نيلسون الشابّ من مكانه مترنحًا وهو يقول: «**أريد كأسًا أخرى يا صديقي الطيب**».

أومأ كريستيان برأسه وقد أحسَّ بألم في صدره وقال بنبرةٍ متحشرجةٍ حاول جاهدًا أن تبدو طبيعية: «**ومَن ذلك المحتال يا ترى الذي يعبأ له رجلٌ عالم كهنري ويزلي؟!**».

قهقه نيلسون مخمورًا ثمَّ قال: «**شابٌّ دميمٌ ولكنه في الحقيقة كان عبقريًّا، لا أعرف إن كنت ستصدقني؟!**»، ثم قهقه مرة أخرى حيث شرع السُّكر يتملّك منه وكاد يسقط لكنَه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة، فأجلسه كريستيان على كرسيٍّ ووضع في يده كأسًا أخرى وهو يقول: «**سأحاول أن أصدقكَ**»، ثم جلب الكرسيّ الآخر وجلس في مواجهته.

«**لقد قابلت شابًا رائعاً في القطار وقد ادعى ذلك المحتال بأنَّه قريبٌ إلى اللورد والعالم الشهير نيلسون ريفز، وبعد مرور بعض الوقت قابلت شخصًا آخر يشبه طباعه وفلسفته العميقة، في البداية تشكّكت في الأمر ولكني سرعان ما نحّيته عن عقلي حيث نمَتْ بيننا صداقة قوية، لكن شكّي عاد مرة أخرى حتى جاءني البروفيسور هنري ذات ليلةٍ في منزلي وأطلعني على الأمر برمّته ووعدني لقاء تقديم هذه المساعدة النبيلة سيقوم بتقديم العون لي**»، نظر إلى سقف المعمل مخمورًا، بدا كأنَّه يتأمّل شيئًا

في مخيلته ثم جرع الكأس في يده، وساده سكونٌ غريبٌ من أثر السكر فنهض كريستيان من مكانه وقلبه يغور في قدميه، آلمه ذلك الاعتراف المخزي ولعن الحياة ومَن فيها، لعن الإنسان الذي يقضي على حياة آخر من أجل متاعٍ زائلٍ ضاربًا بعرض الحائط كل الأعراف الأخلاقية والإنسانية، **«اللعنة على العالم، اللعنة على الإنسان وجشعه»**، ردَّد كريستيان في نفسه وهو يدسُّ مزيدًا من المخدر في كأس نيلسون الشاب الذي قال في هذه اللحظة، **«إني أشرب كل يومٍ لكي أنسى، لم أتوقف عن الشرب منذ ذلك اليوم اللعين»**، التفتَ إليه كريستيان وفي يده الكأس فوجد أنَّ عينيه اغرورقتا بالدموع فأردف نيلسون: **«لم يقدّم لي ذلك الشاب إلا كل خيرٍ، ومع ذلك أذللته وسحقته، لقد أحبّه الجميع بخلقته تلك التي صنعها وبمجرد ظهور الحقيقة إلى النور نسينا جميعًا كل شيء وغالينا في ضربه وإهانته»**، دسّ نيلسون يديه بين كفيه وشرع يبكي.

تطلّع له كريستيان وقد دبّت الحيرة في قلبه من أمره، إنه يبكي! ولكن متى؟! بعد فوات الأوان، بعد أن تحوّلت الأمور إلى عاصفةٍ لا يمكن بأيّ ثمنٍ إيقافها، لقد صار كريستيان قاتلًا متوحّشًا يخشى ظله الجميع وعليهم أن يخشوه بعد كل تلك الجرائم التي يرتكبها دون شعورٍ بوخزٍ في ضميره، **«لِمَ البكاء وباستطاعتك التكفير؟!»**، قال كريستيان بنبرةٍ حانيةٍ مصطنعةٍ وهو يمدّ يده بالكأس الممزوج بالمخدر لنيلسون، نظر له الأخير نظرة شفقة

وتناول الكأس بعد وهلة وقد غشيه الحزن ثم جرعها دفعةً واحدةً فسمع كريستيان يقول: «**ولِمَ فعل البروفيسور ذلك؟!**».

أجابه نيلسون : «**لا توجد لديَّ أيّة فكرة**»، أجهش بالبكاء مرة أخرى وقال «**اللعنة عليَّ وعلى ما اقترفته يداي**».

قال كريستيان بصوتٍ هادئٍ مريبٍ: «**ما الشيء الذي لو قدّمته أزال عنك خطيئتك؟!**».

قال نيلسون تحت تأثير الخمر والمخدّر الذي شرع يتملّك منه : «**لو كان بإمكاني تقديم حياتي بأكملها تكفيرًا لهذا الذنب لقدمتها**».

أولاه كريستيان ظهره بعد أن ابتسم ابتسامةً غامضةً ثم قال جملة قديمة ألقاها عليه يوم كان رفيقاً له في القطار: «**إن كان للقبح معنى فهي قناعتك إن سألتني عن رأيي، وستثبت لك الأيام يومًا وفي ليلة لا تتوقعها أن الجمال هو أكثر فكرة تملك من الغواية أكثر ممَّا تتصور، فهو كالمرأة لعوبٌ متحذلقة، إن شعرت بالتهديد احتمت بفراش العدو**».

اختلجت عينا نيلسون وهو يسمع تلك الكلمات واستطاع رغم سُكره أن يتذكرها فقال مذهولًا: «**مستحيل**»، فأزاح كريستيان القناع عن وجهه ونظر إليه فبادله نيلسون نظرة مخمور أوشك على السقوط ورغم ذلك بدا غير مصدقٍ ما يراه، تلعثمت الكلمات ولم يعرف ماذا يقول من هول المفاجأة فاقترب منه كريستيان حتى كاد وجهاهما يتلامسان ثم قال: «أتعرف مَن

أنا يا صديقي المخلص؟!، أنا هو ذاك المسخ الدميم، القاتل المتوحش، الذي جاء ليخلّص العالم من أمثالك، ولا تحزن، ستُسهِم في صناعة عصرٍ جديدٍ مستنيرٍ للبشرية أجمع، ولن تنساك كتب التاريخ، لكن لتذهب نفسك الآثمة الآن وعلى يديّ إلى الجحيم».

رفع نيلسون يده كأنّه يدافع عن نفسه أو لينفي تلك الحقيقة التي يراها الآن ولكنه سرعان ما ذهب في نوم عميقٍ ثقيلٍ.

نوم بلا نهاية.

مفتش شرطة سكوتلاند يارد

تشارلز كافنديش —١٩٢٠.

أخيراً جاء الاستدعاء إلى المفتش كافنديش بعد أن وصلت الضحايا إلى ١٩ ضحية كان خلالها يكاد يفور غيظًا ممَّا يسمع ويقرأ كل يوم في الصحف حيث انتشرت الأخبار كالنار في الهشيم على طول البلاد داخل إنجلترا، وأصبح الحديث عن ذلك القاتل المجنون هو كلّ ما يثير الناس ويسترعي انتباههم وقد أطلقت عليه الصحف اسمًا برّاقًا، **«السفاح مقتنص الجمال»**، حيث كلّ ما توصلت إليه شرطة سكوتلاند يارد في النهاية أن ذلك السفاح يقتنص الشباب الذين يتمتعون بشكلٍ وهيئةٍ جميلةٍ، لكنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى أغواره ليكتشفوا حقيقة تفكيره

التي تقودهم له، وبعد أن يأست الشرطة من القبض عليه في محاولةٍ لتهدئة العامة في كامبريدج أرسلتْ إلى كافنديش ليتولى القضية باعتباره الرجل الذي لا تعوقه ثمَّة قضية مهما بلغت درجة غموضها، كما أن تاريخه الحافل بالانتصارات يشهد له بذلك، ولا ننسى أنَّ خلال الفترة الأخيرة أضحى كافنديش أكثر نشاطًا وصرامة عن ذي قبل واستطاع حلّ العديد من القضايا الغامضة بسهولةٍ وذاع صيته أكثر عن ذي قبل ولقبته الصحف ب «الرجل الحديدي » كما انتشرتْ صوره بالصحف وهو يدخن غليونه حيث أضحت عادة التدخين صفة جديدة ملازمة له حتى إنَّ غليونه صار شهيرًا أيضًا ولقبه بعض الصحفيين على سبيل المزاح بالغليون الساحر.

في الحقيقة إنَّ كافنديش خلال تلك الفترة القصيرة التي بدأت فيها جرائم القتل كان يضع تكهناته موضع دراسة ليدرس جيدًا شخص القاتل وقدراته، في الحقيقة إنَّ الأمر يبدو مشوشًا ويُعَدّ ناقصًا، فلا توجد جثة واحدة ولكن كلها بلاغات تفيد باختفاء شخص ما، فأنّى له دراسة حقيقة القاتل ونفسيته الغريبة تلك دون أن تكون هناك جثة بين يديه تعكس له شخص القاتل وكيفية تفكيره؟!، فإن كافنديش يؤمن أشدّ الإيمان بأن الضحية تمثل في شكلها وطريقة الإجهاز عليها شكل القاتل وتكوينه النفسي، فكان كلَّما قبض على خيطٍ منها ذاب منه وذهب أدراج الرياح، وكلما وصل إلى نظريةٍ ما استحالتْ إلى شيءٍ مشكوكٍ فيه

لا يمكن الاعتماد عليه في تحقيقاته، لكنه في نفسه كان يحسّ بخطرٍ داهم يتهدده، خطر قريب للدرجة التي جعلته يذعر كلما فكر فيه أوَ خطر في ذهنه، كان ذلك الخطر هو كريستيان، هل يمكن أن يكون كريستيان هو ذلك الشخص الذي يقوم بتلك الأفعال الشنيعة؟!، ولمَ لا؟!، فإن كل الأمور تؤهله للقيام بمثل هذه الجرائم الوحشية التي لا يكاد يعرف عن كينونتها شيئًا، فمثلا لِمَ يختار القاتل ضحيته على شيءٍ من الجمال والشباب؟!، ولمَ تبدو الأمور غامضة بهذه الطريقة؟! حتى شرطة سكوتلاند يارد بجلال قدرها وسمعتها المعروفة عالميًا لم تستطع خلال شهرٍ كاملٍ من التوصل لشيءٍ، بل إن الأمر يكاد يزداد تعقيدًا مع كل يوم يمرّ، لم يترك كافنديش أحاسيسه وأفكاره المتلاطمة تقوده كثيرًا ولذلك ذهب إلى دكتور نيلسون في معمله كعادته لسببين، السبب الأول لكي يعلمه بسفره إلى كامبريدج لتولّي قضية السفاح مقتنص الجمال، أمّا السبب الثاني لكي ينتزع منه بعض المعلومات إن أمكن ذلك.

في الفترة الأخيرة مع بداية الجرائم انطوى دكتور نيلسون على نفسه منكفئًا على عمله وتطلّعاته ولم يكن يكترث كثيرًا بأمر ذلك السفاح أو القضية برمّتها حينما ذكرها كافنديش أمامه في أكثر من مناسبةٍ، بل لم يكن دكتور نيلسون يتكلم كثيرًا في الأساس وبدا عليه الوجوم والتفكير العميق، وللحظةٍ شعر كافنديش بأنّ الرجل إما أن يكون مشغولاً جدًا بأفكاره وغير آبهٍ

بمجريات الأحداث في العالم حوله أو أنَّ هناك شيئًا آخر لا يعرفه عن ذلك الرجل الغامض بطبيعته.

جلس في مواجهته في هذا اليوم وقد بدا نيلسون شاردًا بعض الشيء ولكنه استقبله كما هي العادة بهدوءٍ وترحابٍ وقدّم له الشاي وسرعان ما فتح كافنديش الموضوع حتى لا يضيع وقت الرجل الثمين وأعلمه بسفره إلى كامبريدج من أجل القضية فلم يبدُ على دكتور نيلسون ردّ فعلٍ إلا لمحة بسيطة جداً لا تكاد تلحظ حيث لمح كافنديش عينيه وقد زاغتا مفكرتين وقد اعتراه لوهلة ضيقٌ دفع عينيه للاختلاج، سأله بخبث عن أحوال كريستيان فابتسم دكتور نيلسون وفتح درج مكتبه وناوله خطابًا أرسل ليلة أمس قائلًا: «**لتنظر بنفسك على أحواله**».

تعجَّب كافنديش للحظة وهو يتناول الخطاب من يد دكتور نيلسون الممدودة والذي رسم على وجهه ابتسامة عريضة ثم قرأ الخطاب سريعًا، لم يكن خطابًا طويلًا بل بعض الكلمات الموجزة التي تطمئن العائلة على حاله وقد قال مازحًا في إحدى الجمل: «**لا تخف يا سيدي، فإنَّ السفاح مقتنص الجمال يستحيل أن يقترب منّي، فأنا أبعد بكثيرٍ عن ذلك الجمال الذي لا ينفكّ الجميع عن التحدث بشأنه**».

ابتسم كافنديش وهو يعيد الخطاب إلى دكتور نيلسون قائلًا: «**يبدو أنَّه بخيرٍ، كما أنه يتمتَّع بحسّ دعابة كما أرى**».

نهض نيلسون من مكانه ووقف في مواجهة المفتش ونظر له نظرة طويلة متأملًا دون أن يتفوّه بكلمة، تلك النظرة اخترقتْ أعماق كافنديش حتى إنَّه ابتسم متلعثمًا في مكانه فقال الأول بنبرةٍ تقطع كل شكٍّ: «**هل تظن أنه السفاح يا سيدي؟!**».

تململ كافنديش في مكانه ولم يعرف ماذا يقول ثم ابتسم خجلًا ونهض هو الآخر من مكانه ونظر تجاه نيلسون قائلًا: «**لذلك جئتك، فلو كان هو السفاح فعليك أن تعرف بل توقن بأنني لم آتِ إلى هنا إلا للمساعدة والمساعدة فقط**».

ابتسم نيلسون ثم قال بهدوءٍ: «**تعجبني صراحتكَ دائمًا يا صديقي، وإن كنت تريد أن تعرف إذا ما كان كريستيان هو السفاح الذي يتحدثون عنه، فعليك أن تسأله بنفسك رغم أنني أعرف الإجابة مسبقًا**».

تطلّع إليه كافنديش والفضول يكاد يقفز من عينيه فقال نيلسون بهدوءٍ: «**في الحقيقة إن علمت الإجابة منه أرجو منك أن تُعلمني بها أنا أيضًا؛ لأني إلى هذه اللحظة لم أجرؤ على سؤاله مثل هذا السؤال، ليس لخوفي من الإجابة لأني أعرفها كما قلت لك وإنما خوفًا من وقع السؤال نفسه، هل فهمتني يا صديقي؟!**».

ابتسم كافنديش ابتسامة مريبة ثم قال: «**أتعلم يا صديقي الطبيب؟، كان لي صديقٌ قديمٌ يؤكد لي دومًا أن الوجوه لا ذنب لها، وإنما هي النفوس وكنت دائمًا ما أعارضه ولكن الحقيقة واضحة الآن**».

تململ نيلسون في مكانه ونظر في عينيه محاولًا سبر أغواره ولم يقل شيئًا فاسترسل كافنديش قائلًا: «**أعني أنه لا فارق بين وجهٍ دميمٍ وجميلٍ، الفارق يوجد هنا**»، ووضع يده على قلبه ثم أخرج غليونه وأشعله فتطلّع إليه نيلسون قائلًا: «**أتعلم يا صديقي؟، آخر شيء توقعته في هذا العالم أن تنمو ما بيننا صداقة**».

قهقه كافنديش وقال: «**إنها صداقة جسدية، ولكن الأرواح لم تلتقِ إلا قريبًا، فمَن تظنه أنا قد ذهب إلى عالم آخر**».

تأمّل نيلسون غليونه بنظرةٍ متفحصةٍ وأحسّ بخوفٍ خفيٍّ لكنه لم يُبدِ شيئًا، وبهدوءٍ استأذن كافنديش بعد أن ودّعه نيلسون وداعاً حارًّا آملاً أن يلقاه قريبًا، في حين أن نيلسون تمنّى له كل التوفيق في رحلته آملًا ألا تضيّعه هواجسه وتكهناته.

خرج كافنديش وحيدًا إلى الشارع شاردًا وقد غرق داخل أفكاره متسائلًا في نفسه: «**ما الذي كان يعنيه نيلسون حقًّا؟!**».

بينما كان نيلسون يرقبه من خلف النافذة ويسأل أيضًا: «**ما الذي كان يعنيه كافنديش حقًّا؟!**».

كامبريدج – عام ١٩٢٠ – البروفيسور هنري ويزلي.

في ذلك اليوم وبينما كان كريستيان يقرأ كتابًا في غرفة مكتب البروفيسور هنري ويزلي، وجد خطابًا ملقى في أحد الأدراج موجّها إليه، تعجّب كريستيان وأحسَّ بأنَّ أمراً مهمًّا في انتظاره، شرع في

قراءة الخطاب سريعًا، تقوّضت ملامحه وصارت أكثر دمامة ممّا هي عليها، بان عليه الغضب المشوب بالحزن وأحسَّ بأن الأرض تميد من تحته، لقد قرأ اعتراف ويزلي له بجرمه في حقه، ولكن متى؟!، بعد أن ذهب كلّ شيء وتحطم؟! بعد ما أضحى كريستيان السفاح مقتنص الجمال، بعد ما رفض العالم قلبه الطيب ولم يكترث لحلمه البسيط، لرغبته الحقيقية في أن يكون أحد شخوصه الذين يتمتعون بحياة طبيعية بعيدًا عن تلك التطلعات الجبارة التي لا تجلب سوى الحزن والخزي والألم أيضًا «**بئسًا للعلم والمجد الزائف، وبئسًا لكلّ مَن يشبهك يا بروفيسور، اللعنة عليَّ وعليك وعلى نيلسون وعلى كلّ مَن يجلب العار والحزن إلى هذا العالم**» صرخ كريستيان ممزقًا الخطاب إلى أجزاء صغيرة وظلّ يدهسه بقدمه كأنه يدهس معه الحقيقة بأكملها كأنّه يعلن للعالم بأنه لم يعد مكترثًا باعترافاته التي لن تقدم له العزاء أبدًا، وأيّ عزاء يمكن أن يستنقذ قلبه من الهوة السحيقة التي سقط فيها؟!، أيّ عزاء يستطيع أن يمنحه ولو جزءًا من السلام الذي تلاشى من داخله منذ طرده الجميع وأذلّوه ليذوق نتاج وجهه الدميم، منذ جمحت نفسه الآثمة وأقدمت على القتل بدم باردٍ؟!، اللعنة عليك يا بروفيسور، واللعنة على العالم.

ولم يمض على ثورة كريستيان وحزنه الشديد وقتٌ طويلٌ حتى عاد البروفيسور هنري ويزلي من رحلته شاعرًا بالحزن والألم يعتصرانه، أمضى طريق العودة في التفكير بمجريات حياته التي

هربت أيامها من تحت يديه دون أن يحسّ بها كما ينبغي، آلمه رؤية أخته في قبرها دون كلمة وداعٍ أو قبلة حقيقية حانية تؤكّد لها بأنها ليست وحدها في هذا العالم، بكى بحرقةٍ كأنّه لم يبكِ قطُّ في حياته، أدرك في خلواته بأنّه يبكي على نفسه، فنحن في الحقيقة نبكي على أنفسنا بعد رحيل مَن نحبّ، لأنهم يتركون داخلنا مكانًا خاويًا، جزءًا لم يعد ينتمي إلينا، يؤلمنا كلما تحسّسناه أو أقدمنا على ذكره كأنه في لحظةٍ تحوّل من سببٍ لحياتنا إلى سببٍ لشقائنا وعذابنا، تصير الذكريات مُرة تجيش بالدموع والقهر والإذلال كأنّ الزمن يسخر منا في أعماقه، تصير الأماكن موحشة نضيق بها ونتهرب منها، ورغم كل هذا الألم نتوق لتذكير أنفسنا به؛ لأنّه الشيء الوحيد الذي تبقى لنا من تلك التجربة القاسية..

تجربة الوداع والفقد.

آلمه التفكير على هذا النحو، ولمَّا وصل كامبريدج لم يذهب إلى منزله بل اتجه إلى مكتبه بالجامعة، فلم تكن لديه القدرة ولا الطاقة على مواجهة كريستيان ولا حتى رؤيته ليقينه بأنّه اطلع على الخطاب الذي اعترف فيه بجرمه في حقّه، فكّر بأمره طويلًا وما آل إليه بعد ما عرف تلك الحقيقة المُرَّة لكن قاطع أفكاره اقتحام بروفيسور زميل له في الجامعة مكتبه عليه ليقدِّم له العزاء بالشكل اللائق وخلال حديثهما أخبره بالجرائم التي اهتزَّتْ لها مدينتهم الصغيرة، وقصَّ عليه قصص اختفاء الأشخاص دون مقدماتٍ، وفي الحقيقة إنَّ كلمات البروفيسور ألقَت الرعب في قلب ويزلي،

تخيَّل ما حدث لهؤلاء الشباب وما قد يكونون قد تعرَّضوا له من هولٍ، فقاطع البروفيسور سريعًا واستأذنه في الانصراف إلى منزله متحجّجًا بحاجته إلى الراحة بعد رحلته الطويلة وقد ناوشته الأفكار السوداء، أحسَّ بأنَّ كل تلك الجرائم متعلقة بشكلٍ أو بآخر بكريستيان، رغم أنَّ ذلك التفكير يعدّ تفكيرًا يجلب الرعب إلا أنه رغم اجتهاده في تنحيته عن عقله لم يستطع قطُّ، بل ازداد الأمر سوءًا حتى وصل إلى المنزل ليجده كما هو غارقًا في كآبته وغموضه المهيب، لكنَّه أحسَّ بأن ثمة رائحة غريبة..

رائحة الموت المقبض.

مضى سريعًا نحو مكتبه باحثًا عن كريستيان ولكنه لم يجده فاتّجه سريعًا إلى المعمل؛ ليجده غارقًا في سكونٍ مريبٍ، مُضاء بإضاءةٍ خافتةٍ، نظر حوله فلم يجد ما يثيره لكن الظلام الخفيف حوله وعواء الرياح في الخارج حرّكا داخله إحساسًا مزعجًا، اقترب من المكتب داخل المعمل واتكأ بمرفقيه على سطحه ثم غامت عيناه في الذكريات، وبعد قليلٍ انتبه فجأة حيث بانت في عينيه فكرةٌ، كان للمكتب درجان أحدهما مغلق، حاول بقدر الإمكان فتح الدرجِ المغلق لكنه لم ينجح إلا بعد محاولاتٍ حثيثةٍ لم تأخذ وقتًا طويلًا، وجد في مواجهته عدداً كبيراً من الخطابات، اتضح له أنها جميعًا خطابات موجهة من دكتور نيلسون إلى كريستيان، فتح الخطاب الأول وشرع في قراءته، بانت في عينيه الحماسة، سرعان ما وجد نفسه يقرأ الخطاب الثاني ثم الثالث والعاشر

وهكذا دون شعورٍ بالوقت، متحمّسًا ومنفعلًا غير مصدقٍ ما يقرأه وما تحويه تلك الخطابات، إحساس بالفزع شرع يتملك منه مع كلّ كلمةٍ وبريق جنوني اتّقد في عينيه حتى لتشعر بأنّه أصيب بلوثة جنونية، نهض من مكانه منفعلًا وفي يده الخطابات وخلال خروجه اصطدم بالحمّالة الكبيرة التي وضعت في جانبٍ مظلم من الغرفة، نظر إليها مرتابًا، لمسها بهدوءٍ فوجد أنه يرتكز فوقها شيء ما مغطّى بملاءةٍ.

تتناثر عليها الدماء، إن صدقت عيناه الرؤية.

اقترب من الحمّالة وقد تسلل إليه الفزع ثم بحركةٍ سريعةٍ من يده رفع الملاءة ليجد جثة مشوهة الخلقة في مواجهته، من هول الموقف تراجع إلى الخلف وقد صدرت عنه شهقة قوية، جحظت عيناه ووضع يده على فمه كأنّه يكتم صرخةً، ثم عاد إلى الخلف بخطواتٍ وجلةٍ خائفةٍ مقبضًا على الخطابات بيده ليصطدم بجسد جامد ساخن فالتفت مرتعدًا ليجد كريستيان في مواجهته يرمقه بنظرةٍ ثابتةٍ جامدةٍ لا تعكس إحساساً، نظرة خاوية ميتة، ينقلها بين عينيه والخطابات في يده والجثة المشوهة، تراجع ويزلي متلعثمًا، رفع يده التي تحوي الخطابات وأشهرها في وجهه فزعًا ومنفعلًا كأنه يدافع عن نفسه ولكن دون أن ينطق بكلمةٍ، اقترب منه كريستيان بخطواتٍ ثابتةٍ دون أن يتفوّه بكلمة واحدة وعيناه تشعان بريقاً غريباً غامضاً، فشهق ويزلي كأنه يدفع الكلمات خارجًا

بما استطاع من قوةٍ فبدت نبرته متحشرجة مهزوزة: **«أنت.. أنت السفاح مقتنص الجمال».**

قال كريستيان بهدوءٍ غريبٍ مشيرًا بيده: **«اهدأ يا بروفيسور أرجوك»** ثم بان في عينيه نظرة استعطاف غريبة وقال: **«اهدأ يا صديقي الطيب.. أرجوك».**

استطاع ويزلي أن يصيح أخيرًا بدافع الخوف وهو يوجّه الخطابات في وجهه: **«أهدأ؟!، لن أهدأ حتى تنال عقابك، وما هذه الخطابات؟، إني لا أتصور أن يكون حتى الجحيم على هذه الشاكلة؟!، لقد بعتَ روحكَ للشيطان، ويجب الخلاص منك بحرقك»** وأسرع مارًّا بجواره منفعلاً ومتخبّطاً فسقط على وجهه ولكنه نهض سريعًا مرة أخرى منفعلًا يلملم الخطابات المتناثرة من على الأرض كأنها الدليل الوحيد على تلك المجزرة المنحرفة، بينما صوت كريستيان يتصدّى في المكان خلفه محاولًا إثناءه عمّا هو مقدمٌ عليه، نهض البروفيسور مرة أخرى وتطلع إلى كريستيان ثم قال: **«إما أن يكون العلم جسرًا إلى الله أو لا شيء، اليوم سيفتضح أمرك يا كريستيان»**، ثم رفع الخطابات في يده وقد لمعَتْ عيناه، ثمّ هز رأسه مستنكرًا ثم قال: **«من أيّ بابٍ من أبواب الجحيم دخلتما إلى هذه الحياة يا عزيزي.. كريستيان؟!».**

لمعت عينا كريستيان حينما سمعه ينطق اسمه بتلك النبرة التي تعني شيئًا طالما سعى في إخفائه، نبرة ساخرة متوعدة تنمُّ عمّا انتواه، فأمسكه من الخلف فأصابت ويزلي نوبة هيسترية وشرع

يصرخ فأطبق كريستيان قبضته على فمه حتى لا يصرخ، **«أرجوك يا بروفيسور، اهدأ»** حاول ويزلي التملُّص بقدر استطاعته من قبضة كريستيان القوية، أحس بأنفاسه محبوسة ومضغوطة تحت أصابعه الغليظة، بدَتْ كلمات كريستيان وجلة غير مفهومة وهو يحكم القبضة على ويزلي، محاولًا احتواء انفعاله، لم يكن في نيّته قطُّ سوى إسكاته، والحقيقة أنّه في جزءٍ منه في أعماقه السوداء كان يدرك النتيجة، بعد لحظات استكان البروفيسور، هدأ تمامًا، لم يعد يقاومه، انسحبَتْ أنفاسه، زهقَتْ روحه، زهقت للأبد.

هزَّه كريستيان كأنه لم يستوعب بعدُ ما حدث، أرخى قبضته سريعًا من فوق أنفاسه، مذهولًا، ثم تركه تمامًا ليسقط على الأرض، عيناه شاخصتان في الفراغ، في المجهول، في ذلك الفضاء الكبير الغامض، جلس كريستيان بجواره غير مصدِّقٍ ما حدث، وضع يده سريعًا على قلبه وتحسّس نبضه ليتأكد من الحقيقة القذرة التي تواجهه، صرخ كريستيان بلوعةٍ، صرخ بصوتٍ أشبه بحيوانٍ متوحشٍ، بكى بشدة مهتاجًا، جحظت عيناه وأحسَّ بأن ثقلًا مهيبًا يغور في قلبه، شرع يشد البروفيسور من معطفه منفعلًا كأنّه يستحثه على النهوض، لكن أيّ نهوضٍ ؟!، وأيّ محاولاتٍ يمكنها أن تعيد الموتى من سباتهم الغامض؟!

وقف كريستيان يحدّق في الفراغ من خلال الشرفة، ذهب في حلم يقظة غريب وثقيل، لم يكن يحسّ بوجود العالم حوله

ولا بوجوده هو نفسه، أحسّ بأنه تلاشى من الوجود، مقتَ نفسه ومقت العالم ومقت تلك اللحظة التي باع فيها نفسه للشيطان.

دفن جثة ويزلي بطريقةٍ لائقةٍ، ودون أن يدريٍ ظلّ يبكي لساعاتٍ طويلةٍ كأنَّه يفرغ حمولة ثقيلة طالما أنهكتْه وأثقلَتْ كاهله، شرع في تلاوة صلاته عليه ثم نظر نحو السماء وعلم أنَّ الوقت قد حان لإنهاء كلّ شيءٍ.

23

عقد كريستيان العزم على مغادرة كامبريدج في أقرب وقتٍ ممكنٍ، وبالفعل لم يُضِع الوقت، قام بإرسال خطابٍ إلى دكتور نيلسون يخبره فيه بحاجته إلى مكانٍ كبيرٍ واسعٍ لنقل بعض المعدات المهمّة فيه، ولم يخذله الأخير حيث قامَ بإفراغ معمله الخاصّ تمامًا من جميع المعدات والأدوات ثم أمر بنقلها إلى القبو في منزله بالريف، ثمّ قام كريستيان بشراء عربة خاصّة كلّفته مبلغًا كبيرًا مصمَّمة خصّيصًا من أجله، العربة في تصميمها تشبه تصميم الغرف المربعة الكبيرة، يبلغ ارتفاعها أكثر من ١٠ أقدام، بينما يبلغ طول جوانبها المتساوية ٨ أقدام، وقد صنعت بكاملها من الفولاذ ذات اللون المعدني، وبسرّيةٍ تامةٍ قام بنقل آلته الرهيبة ليلاً داخل تلك العربة، وقد كانت الآلة تضرب بصواعقها الخاصة دون توقفٍ خلال طريقها إلى لندن حتى إنّ الذين أشرفوا على نقلها أحسّوا بالجزع والرعب وكادوا يرفضون الإشراف على نقلها لولا المبلغ الكبير الذي نفحهم كريستيان إيّاه والذي دفعهم في النهاية لتكبّد تلك المشقة، وحينما وصلَت الآلة بسلامٍ إلى لندن

وتسلّمها دكتور نيلسون أرسل برقيةً إلى كريستيان ليطمئنه فيها على سلامة اختراعه.

وقف نيلسون أمام الآلة مشدوهًا، تخطف صواعقها المتكررة قلبه وتكهربه وتجوب بعقله في ممراتٍ سريةٍ لا يعلم مداها، أحسّ بالذهول واجتاحه الفخر لما يراه أمامه، لكنه في نفسه أحسّ بحزنٍ شديدٍ يتملك منه وأيقن بأنّ أمورًا كثيرة سرعان ما سينكشف عنها الستار لتظهر إلى النور، والنور إمَّا أن يضمّد جراحنا أو أن يكويها، آلمه التفكير بهذه الطريقة وحاول بقدر الإمكان تنحية هذا الأمر عن فكره، لكن بلا طائلٍ حيث كانت الآلة تواجهه متحدية؛ لتوقظه من غفوته لتؤكد له حقيقة ما يفكّر فيه، بل اقتراب حدوثه بأسرع ممَّا يتصور.

أدرك كريستيان بما لا يقبل الشكّ بأن أمره سيفتضح قريبًا خصوصًا حينما علم بأنّ المفتش العظيم تشارلز كافنديش قد تولّى القضية ولم يساوره الشكّ بأن كافنديش يعرف الجاني حقّ المعرفة ولن تكلفه القضية أيّ عناءٍ أو مجهودٍ للتوصّل إلى القاتل، وبالفعل حجز كريستيان تذكرته لمغادرة كامبريدج حتى يتسنّى له الوقت لإنهاء ما بدأه، فكّر في نفسه وأدرك بأنَّ الأمور سرعان ما ستنتهي، ولكن يجب أن تنتهي كما خطّط لها، أدرك طبقًا لحساباته بأنه يحتاج لمتبرعٍ أخيرٍ، لضحية أخيرة تساهم في صنع التاريخ وذلك الأمر لن يكّون عائقًا في مسيرته، اضطرب فكره في فترةٍ لاحقةٍ حيث شرعت بعض الأفكار الغريبة تناوشه من

وقتٍ إلى آخر، ماذا لو أهمل الأمر برمّته ومسح كل الدلائل التي تقود إليه؟!، ماذا لو عاد كما كان منكفئًا فقط على حلمه القديم البسيط؟!، وما حدث لم يكن أكثر من تطّلع أعمى في زمن يعج بالعميان والجهلة!، لوهلةٍ أحسّ بأنها فكرة مناسبة وقابلة للتطبيق، ولكن سرعان ما استفاق من ذلك الحلم السرمدي ونعت نفسه بالجبان لخلوّ عزيمته من استكمال المشوار لتغيير مجرى التاريخ، والتغيير يحتاج إلى التضحيات مهما بلغَتْ قسوتها ومهما كلّفه الأمر، كما أن البشر لم يبرهنوا إلّا عن نفاقهم وقسوتهم اللامتناهية، وذلك الأمر الأخير كان الدافع الحقيقي الذي ألهبه ودفعه دفعًا نحو النهاية الحتمية.

قام بإحراق كلّ الأوراق الهامّة التي دون فيها ملاحظاته وبيانات اختراعه كما قام بحرق جميع الخطابات الموجّهة من دكتور نيلسون، بعد ما انتهى من كلّ ذلك وقف في الحديقة في مواجهة منزل البروفيسور هنري ويزلي، ثمّ ركع على الأرض التي قام بدفن جميع ضحاياه فيها وقام بتلاوة صلاةٍ طويلةٍ كأنّه يودّعهم الوداع الأخير، يطلب لهم الرحمة ويدعو لهم بالخلود الذي ائتمنوه عليه، ثم وقف في مواجهة قبر هنري ويزلي ونظر تجاهه نظرة غامضة امتلأتْ بالحزن ثم قال مدمدمًا: «**لو لم تفعل ما جنيته ربما ما جنيت، ولو لم تكتشف الحقيقة المحزنة ما كان الموت ليطرق بابك**»، وانطلق في طريقه مغادرًا.

في الحقيقة إنَّ كافنديش لم يُضِعْ وقتاً، تقصَّى أمر كريستيان سريعًا ليقينه بأنّه هو الجاني، عرف شيئًا غريبًا، بأنَ كريستيان لا يذهب إلى الجامعة، وما هو أكثر غرابة ما أكّده له بعض الشخوص على عدم وجود شخص من الأساس اسمه كريستيان، لكنه مع تحقيقاته المتوالية علم بالقصة الغريبة للشابّ المشوّه الذي تمّ الاعتداء عليه من قبل بعض الطلاب في الجامعة، وخلال تحقيقاته أيضًا تبيّن له أنّه في كل مرة قبيل اختفاء أيّة ضحيةٍ يُرى في صحبتها شابٌّ له ملامح تتباين في كل مرة، فمنهم مَن أجزموا بأنه شابٌّ جميلٌ، ومنهم مَن أعطى مواصفات عادية لكنهم اتفقوا جميعًا بأن له نفس الهيئة الجسمانية فتأكّدتْ لكافنديش ظنونه، كان باستطاعة كافنديش أن يذهب مباشرة إلى كريستيان بمجرد مجيئه إلى كامبريدج لكنه يعلم يقيناً بأنَّ شابًّاً ككريستيان لن يكون إثبات الجرائم عليه أمرًا سهلًا، فعدم وجود دليلٍ مادّي واحد سيؤدي في النهاية إلى مشكلةٍ كبيرةٍ قد ينتج عنها تنحيته بعيدًا عن القضية حيث لن يقبل نيلسون توجيه الاتهام له بهذه البساطة وسيقف حائلًا بينه وبين كريستيان، وهذا ما لا يرجوه أبدًا.

ذهب إلى المنزل الذي يقطن فيه كريستيان ولكنه وجده خاويًا كما توقّع، لكنه أمر بالبحث في كلّ مكانٍ ممكنٍ داخل المنزل عن أيّ دليلٍ يقودهم إلى الحقيقة، لكنه لم يجد ثمّة دليلاً يقوده إليه فعمد إلى زيارة البروفيسور هنري ويزلي حيث كان

يعرف من خلال دكتور نيلسون بأنَّ كريستيان يتردَّد عليه من وقتٍ لآخر لمساعدته في تحصيله العلمي، وفي الحقيقة إنَّ ما وجده كافنديش أذهله، بل سحقه من الوجود نفسه.

«النهايات عادلة دائماً
حتى وإن لم نرها كذلك».

لندن - شتاء ١٩٢٠ - نيلسون ديفز.

«الموت يا سيدي هو شيءٌ آخر، أمامه لا نكذب، نرى الحقيقة واضحة، فإما أن نراها نورًا في نهاية الدرب أو لا نرى على الإطلاق، كل شيء قابعٌ في داخلك، الظلام والنور معاً، كلاهما قابعٌ في تلك النفس العميقة التي بالكاد تقرّر مصيرها»، جاءه صوت الذكريات كأنه آتٍ من مكانٍ آخر، من خلف زجاج سميك، أتى رتيبًا لكنه مزعجٌ، استفاق على صوت الشرارات الكهربائية التي تضرب هنا وهناك بلا توقفٍ، لمح ظلًا يتخايل

على الأرض بجانبه فانتشله من سكونه المؤقت فنظر خلفه ليجد نيلسون واقفًا مشدوهًا، عيناه تبرقان بصواعق كهربائية فبدا شكله مهيبًا ومخيفًا.

تململ كريستيان في مجلسه ثم نهض وبهدوءٍ ابتسم في وجه نيلسون ثم قال: «**أعلم بأنّك تكرهني الآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى، نحن نختار أقدارنا وعلينا أن ندفع لقاء هذا الاختيار، لقد اكتشفت مع رحلتي تلك بأنكَ لن تجني شيئًا من هذا العالم دون أن تدفع ثمنه وبالقدر الذي ستدفع به، ستحصد**».

لم يردّ عليه دكتور نيلسون واكتفى بنظرةٍ طويلةٍ غامضةٍ ثم نقل بصره تجاه الصواعق مفكرًا، فقال كريستيان: «**منذ الأزل ونحن ندفع الثمن لقاء فرصة الاختيار، لقد دفع آدم ثمن اختياره لتذوّق التفاحة، ولقد دفعت البشرية كلّها ثمن اختياراتها لتتقدّم وتنجز وترى النور الحقيقي الذي من خلاله نرى عظمة الصانع**».

أخذ نيلسون نفَسًا عميقًا بينما الرياح تعوي في الخارج منذرةً بالسوء ثم قال: «**لقد تخيلت أنّ الوجوه هي ما تحقق السعادة لصاحبها، ولكني على يقينٍ الآن بأن الوجوه ليست أكثر من وعاءٍ هشٍّ، لقد تخيلتُ أنّ الجمال يحصد الوداعة والهناء والمجد، بينما يحصد القبح الألم والمشقة والإذلال ولكني كنت مخطئًا يا كريستيان، كنت مخطئًا تمامًا**»، بانَتْ في عينيه لمحةً

من الذكريات ثم طأطأ رأسه بأسى واتجه صوب الباب ليغادر فسمع كريستيان يقول: «**لِمَ تركتني أجيء إلى هنا رغم ما تعرفه؟!**».

ابتسم نيلسون بمرارةٍ دون أن يدير وجهه ثم قال: «**لأنني لا أستطيع إنكار فضلك، ذلك الفضل الكبير الذي لا يستطيع إنكاره سوى المجرمين والملعونين**»، وابتسم بمرارةٍ ثم أردف: «**رغم أني أشكّ في الأخيرة كما أن هناك أسبابًا أخرى، فالبداية كانت هنا، في هذا المكان، هل تذكر؟!، ففضلتُ أن تكون النهاية هنا أيضًا، كما أنك تدري أنّ ما بدأناه سويًا لا بدّ أن ننهيه سويًا أيضاً**».

قال كريستيان بنبرةٍ حزينةٍ: «**ما زال يملك الآلة في مكانٍ ما**».

أومأ نيلسون برأسه ثم طأطأ رأسه مفكرًا لوهلة ثم قال: «**لم تعد الآلة تهمّني الآن وإن فكرت قليلًا فستجد أنّه لا مناص من مواجهة الحقيقة، أعتقد بأنّ النهاية صارت وشيكةً، فلقد علمت بأنّ كافنديش على أعتاب لندن، جاءها فاتحًا ليطرد غزاتها الجدد شرّ طردة، بل ليحاكمهم على الملإ أمام الجميع، بشنقهم وتعليق رؤوسهم على بواباتها العتيقة، لكنّي أؤكد لك بأنّ لديَّ مفاجأة لن يتوقعها أبدًا، مفاجأة ستوقف خططه تمامًا**»، تطلع إليه كريستيان بنظرةٍ مستفهمةٍ، لكنه أكمل حديثه بعد نظرة مَن أقدم على شيءٍ مهمٍّ «**أعتقد يا كريستيان بأنّه لم يعد لديك الوقت الكافي لتنفيذ مهمتك الأخيرة، لكنّي أستطيع أن أؤمنها لك إن وافقتني**».

تململ كريستيان في مكانه وتطلَّع إليه بنظرةٍ مستفهمةٍ، فاستدار نيلسون ثم مضى نحوه بخطواتٍ واثقةٍ حتى اقترب منه تمامًا ثم نظر في عينيه نظرة ذات معنى، ففغر كريستيان فاه، وأحسّ بأن الأرض تميد من تحته، مستحيل أن يصدّق بأنَّ ما ينتويه نيلسون حقيقي! لا؟!، ليس لهذه الدرجة؟! «**البؤس على العالم الغريب والبؤس على مَن باعوا أنفسهم للشيطان**»، قال كريستيان في نفسه في اللحظة التي رأى فيها نيلسون يغادر بخطواتٍ ثابتةٍ لرجلٍ أقدم على شيء في نفسه ولكنه قبل أن يختفي استدار وقال بلهجةٍ غريبةٍ: «**أتعلم يا ظلي على الأرض أنَّ العالم لا يمكنه تحمّل كلينا معًا؟، كما أنني لم أعد راغبًا في إيذاء مَن حولي أكثر من ذلك، إنَّ إيما لم تفهم بعد، لكنّها تحس، وإن كان هناك مَن آذيته في حياتك يا صديقي فهو إيما، ولقد شاركتك هذا الإيذاء بكلّ أسفٍ، لتكن النهاية باختياري كما بدأتها أيضًا باختياري**»، ثم ابتسم ابتسامةً حزينةً وانصرف تاركًا كريستيان في بؤرةٍ عميقةٍ من السواد.

مفتش شرطة سكوتلاند يارد - شتاء ١٩٢٠.
تشارلز كافنديش.

أفزع الأمر الجميع حين أُكتشفت الحقيقة، لم يمرّ وقتٌ طويلٌ حتى اكتشف كافنديش جثث جميع الضحايا المدفونة في

الحديقة، بل عثر على جثة البروفيسور نفسه، كاد يفرغ ما في جوفه دفعةً واحدةً بعد شعورٍ حادٍّ بالغثيان أصابه حين رؤية الجثث على حالتها تلك، مشوّهة بأيدٍ لا ترحم ولا تعرف للإنسانية سبيلًا، أحزنه ما رأى وما وجد وأحسّ بأن الإنسان بطبيعته ليس أكثر من حيوانٍ إن تجرد من أخلاقياته تحت أيّ مسمّى أو هدف مهما بلغ سموّه، فكّر في الأحداث اللاحقة وما ستؤول إليه الأمور، لكنه احتفظ بجميع كروت اللعبة في يده ولم يُفشِ سرًّا أو يصرّح عن نواياه وخطّته للمسؤولين، ولم يبدُ لأحدٍ ما يضمره في نفسه عن هذه القضية لكنه بشكلٍ غريبٍ بدا معتداً بنفسه، وعدهم بل وعد إنجلترا كلها بأنّه خلال أسبوعٍ واحدٍ سيقوم بتقديم ذلك السفاح للمحاكمة لتقتصّ منه العدالةُ بالشكل الذي يريح أرواح الضحايا الذين لا ذنب لها سوى أنهم وُجدوا في زمنٍ ضجّ بالمجانين تحت مسمّياتٍ فارغةٍ، وأهدافٍ ملعونة، وعقولٍ تدّعي المعرفة.

شرعت الصحف تكتب وتتحاكى عن شراسة القاتل وخلوّه من الرحمة وفطنة كافنديش، تردّد صدى القضية في جميع أنحاء البلاد حتى صارت الشغل الشاغل للجميع، بل إنّ كثيرًا من الناس استحوذت عليهم القضية للدرجة التي جعلتهم يتركون أشغالهم انتظارًا للقصاص آملين أن ينفذ كافنديش وعده.

في هذه الأثناء وبينما كان كافنديش يزداد تألقًا وبهاءً ويستعدّ للقبض على القاتل كان كريستيان في معمل دكتور نيلسون يستعدّ

أيضًا لمعركته الأخيرة التي إمّا أن تنتهي بالخلود، أو بالموت واللعنة والنسيان.

وصل كافنديش لندن وعقله مليء بالأفكار والتكهنات، جلس في مكتبه مفكرًا ومتطلعًا للقاء الحقيقة القذرة أمامه، عالمًا في نفسه بأنه سيخوض معركة عمره، لكنَّ شيئًا واحدًا في نفسه كان يؤرّقه على الدوام، شيء صلد في صدره لم يستطع البوح به على طول رحلته، عالق في روحه المرهقة ويكاد يفصله عن الحياة لكنه لم يكن يجرؤ على البوح به حتى لنفسه، أدرك خلال الفترة السابقة بأنَّنا عميان مجانين، لا نرى الحقيقة وإن رأيناها تُقنا إلى تجاهلها والبحث عنها بطرقٍ غريبةٍ في مكان أغرب لا يتسبّب إلا في هلاكنا في النهاية، والنهاية كلمةٌ قاسيةٌ لكنها حتمًا ستأتي، ستأتي رغما عنّا؛ لأنَّ الحكمة الإلهية أعظم وأبهى من حكمة أيّ مخلوقٍ كان.

في الحقيقة إنَّ كافنديش كان يبحث عن حقيقته هو وسط كل ذلك، أو بالأحرى في تلك القضية بالذات، لم يذهب مباشرة إلى دكتور نيلسون ولم يبحث عن كريستيان، لكنه نشر فرق أمن لمراقبة الاثنين عن كثبٍ بسرّيةٍ تامّةٍ، لكنَّ الصحفيين لم يكونوا ليتركوه في حاله يعمل بهذا الارتياح حيث أضحى أهم شخصية في إنجلترا كلها بعد تعهده الأخير، وما كان عليه سوى الامتثال لتلك الجلبة المهيبة حوله، ورغم أنّه في ظروف أخرى كان سيشعر بالفخر إلا أنه كان يحسّ بالألم يعتصره، ويكاد يسحقه كحشرةٍ

لا جدوى منها، ليس ألمًا من أجل كريستيان ولا من أجل نيلسون ولكن من أجل نفسه.

دلف إلى الغرفة التي توجد بها الآلة التي تركها فرنسيس وشرع يتأملها جالسًا على كرسيٍّ وحيدٍ داخل الغرفة، ظلّت عيناه متعلقتين بها وذكريات عديدة تناوشه، تتقاذفه وتكاد تغشي بصيرته، أمسك مفكرة فرنسيس التي احتفظ بها والتي وجدها على مكتبه يوم عثوره على جثته وتأملها لثوانٍ ثم تذكر كلمات الأخير وهو يقول: **«بالنسبة لي لَكَمْ تمنيت أن أكون محققًا عظيمًا يكتشف خبايا الإنسان من خلال جرائمه المروعة»**، طأطأ رأسه مفكرًا في تلك الكلمات وأحسّ بالخزي يتملّك منه، ولعن تلك اللحظة التي التقاه فيها، اللحظة التي غيرت مسار أمور عدّة داخله، بل قلبت أفكاره وحياته رأسًا على عقبٍ.

تذكر المسدس الذي انتحر به فرنسيس والذي اختفى مباشرة بعد الجريمة، أحسّ بأن ذلك الاختفاء يحمل وراءه سرًّا قد يكون فيه كارثة لا يستطيع السيطرة عليها، وللحظة شعر بوخزٍ غريبٍ في قلبه كأنّ نصل سكين استطاع النفاذ إليه، جلس على الكرسيّ في مواجهة الآلة، وأمسك بمفكرة فرنسيس وشرع في القراءة.

«الخلود حقيقةٌ راسخةٌ وواضحة في كلّ الفلسفات والكتب، وأستطيع أن أتحسّسه بين أوراقي وتجاربي، لقد حاول الأوائل بكل طاقاتهم أن يخلدوا أجسادهم عن طريق التحنيط والدفن بشكلٍ غريبٍ لائقٍ لاعتقادهم الراسخ في الحياة الأخرى، ولكن

السؤال الذي يحيرني: ما الذي كانوا يعنونه بالحياة الأخرى تحديدًا؟!، الجنة؟!، لا أعتقد ذلك أبدًا، فإنّ الربّ الذي خلق الجسد قادر بالتأكيد على إعادته إلى هيئته الأولى كما ذكرت الفلسفات والكتب المقدسة في الكثير من المواضع، إنهم يؤمنون بالبعث لمرةٍ أخرى على هذه الدنيا، ولذلك أبقوا على أجسادهم كي يعودوا إليها، فقد أكّد هيرودت في ممرّ مشهور أنّ المصريين أوّل مَن أكّدوا خلود النفس، وأنها ببساطة حينما تتحرر تدخل في الماء والهواء حتى تعود إلى الجسد مرة أخرى وتستغرق تلك الدورة ثلاثة آلاف سنة، وأنّ تلك العقيدة ومن شبه المؤكّد انتقلت إلى اليونانيين، ولكن الاعتقاد نفسه نشأ بشكلٍ مستقلٍّ في العديد من الدول منذ تاريخٍ مبكّرٍ للغاية، في كتاب الموتى لدى المصريين ترتبط بمفهوم الحكم بعد الموت، فالتحول إلى أشكالٍ بشريةٍ يُعَدُّ عقابًا على الخطيئة، وقد تمّ التعرف أيضًا على حيواناتٍ عديدةٍ لدى المصريين تؤكّد بأنها مسكن للأشرار، وطبقًا لذلك فإنّ بعض البشر وفي بعض الأحيان يتصورون أن الماعز والقطط مثلًا تسكنهم تلك الأرواح، أو بمعنى أدقّ يسكنهم الشيطان، ولكن الأمر أعقد منذ ذلك بكثيرٍ.

كما أكد بلوتارخ أنّ البشر العاديين بعد دورة تتمثل في ١٠ آلاف سنة يعودون مرة أخرى إلى الحياة في شكلٍ بشريٍّ لاستكمال مشوارهم ودورتهم الطبيعية للتخلص من آثامهم والارتقاء حتى يستطيعوا العودة إلى الوطن، القداسة، بينما

يأمل بارعون في الفلسفة أنَّ تلك العملية قد تستغرق ثلاثة آلاف سنة وعلى رأسهم أفلاطون، ولكن الملحوظة الأهم في كل ذلك هو أن فرجيل مرتبط بشكل العقيدة الذي يتمثل في هجرة النفس بعد تحررها إلى مكانٍ آخر مجهول حيث يتساءل ببساطة في قانونه الرابع: لِمَ قام المصريون بتحنيط بعض الحيوانات أيضًا؟!، أرى أنَّ الأمر برّمته مرتبطٌ ربما بخوفهم واعتقادهم بأنَّ النفس تتلبس بأي كائنٍ في محيطها بمجرد خروجها وتحررها من الجسد عند الموت، ولذلك وجب تحنيط الحيوان والاحتفاظ به لتلك اللحظة التي تعود فيها النفس مرة أخرى!!، كلها تساؤلات وفلسفات، ولكن في رأيي أنَّ الأمر أبسط من ذلك بكثيرٍ، ويمكن الاعتماد على بعض التجارب ولكن المنفِّذ لتلك التجارب هو الموت، والموت فقط، ولكن ماذا لو اقتربنا من الموت دون أن نسقط فيه؟! ماذا لو؟!!».

نظر كافنديش على السؤال متألمًا وأحسّ بغصّةٍ في حلقه ثم رمى المفكرة من يده على الكرسيّ بعد أن نهض واتجّه منفعلًا صوب الباب ثم أغلقه بشدةٍ مصدرًا صوتًا عنيفا.

ذهب كافنديش مساءً إلى منزل دكتور نيلسون وأفكار متلاطمة تتقاذفه، استقبله الأخير بتوجُّسٍ وفتورٍ لكنه لم يبدِ شيئًا له، أحسّ كافنديش بما يحتمل في صدر نيلسون لكنه آثر التكتم على ما ينتويه فقال: «لقد رأيت أمورًا مدهشة في كامبريدج يا دكتور، أمور لا تجلب سوى التعاسة والألم بكلّ أسفٍ، ولَكَمْ حزنت أشدّ

الحزن لوفاة عالمٍ مرموقٍ كهنري ويزلي بهذه الطريقة البشعة». ثمّ رمق نيلسون بنظرةٍ ذات معنى ثم تلَفت حوله كأنه يبحث عن شيءٍ ما ثم أردف: «**ولكن يحيّرني سؤالٌ: يا ترى أين كريستيان الآن؟!**».

دلف كريستيان إلى الغرفة في تلك اللحظة وقد بدا عليه ثباتٌ غريبٌ ثم قال بهدوءٍ: «**أنا هنا يا سيد كافنديش**». صافحه بيدٍ ثابتةٍ قويةٍ ثم قال دون أن يرفع عينيه عن الأخير: «**إنّ السيد كافنديش هنا من أجل التأكّد من هوية السفاح الذي تتطلع إليه إنجلترا كلّها. لقد تعهّد بتسليمه خلال أسبوعٍ واحدٍ؟، أليس كذلك؟!**».

ابتسم كافنديش ابتسامة هادئة ولم يردّ بينما قال دكتور نيلسون معترضا بذهولٍ: «**كريستيان، ماذا تفعل؟!**».

لم ينظر كريستيان تجاه دكتور نيلسون ولم يرفع بصره عن عيني كافنديش ثم قال: «**إني أقدم العزاء لمساعي سيد كافنديش الذي يشتَ بـي الجاني لمجرد أني أحمل خلقةً لا يد لي فيها، خلقة ترشّحني لأكون مجرمًا يقتنص الجمال من الشوارع**».

ظل كافنديش محافظًا على ابتسامته وبان في عينيه وميضٌ مخيفٌ يشوبه شيءٌ من السخرية، جلس على المقعد المواجه للمكتب ثم أخرج من جيب معطفه بهدوءٍ غليونًا مألوفًا. ألقى عليه نظرة مبتسمًا ثم نقل بصره بينهما فتسمر الاثنان في مكانهما مندهشَين وقد عقد الذهول لسانهما ثم تبادلا نظرة مليئة بالتساؤل،

فقال كافنديش بهدوءٍ ونبرةٍ واثقة: «أو ليست تلك الحقيقة يا كريستيان؟!، إنّ تلك الخلقة قد تحوّل أيّ شخصٍ إلى مجنونٍ حتى وإن كان عالمًا يدرك معنى العلوم؟!، حتى وإن كان (لوردًا) نبيلًا من عائلة عريقة يدرك بأخلاقه وتجاربه الاستثنائية بأنّ الحقيقة دائمًا أغرب من الخيال؟!، أنت أكثر الناس معرفة بي، تعرف تمامًا بأني رجل...»، وصمت لوهلةٍ وهو يتطلع لوجهيهما كأنّه يستمتع بتلك اللحظة ثم أردف قائلًا: «تعرف بأني رجل يفي بوعوده دائمًا».



لندن - عام ١٩١٨.

كان المكان مضاءً بنورٍ رهيب، بصورة لم يتخيل نيلسون إمكانية وجودها، بالشكل الذي دفعه لأن يغمض عينيه متجنبًا ذلك الألم الرهيب الذي أحسّ به، ولكن يد كريستيان قادته إلى داخل تلك الغرفة الفسيحة التي لها رائحة غامضة غموض الزمن، يحسّ بها ولكنه لا يستطيع التعرف أو الإمساك عليها، سمع صرير باب حديدي ثقيل يُفتح، وسرعان ما انغلق خلفه، فتح عينيه بصعوبة وأخذ وقتًا طويلًا حتى اعتادت عيناه الرؤية في جوف النور الرهيب الذي ملأ المكان، أحسّ برهبةٍ غريبةٍ تتسلل إليه، ليست كتلك الرهبة التي أحس بها حينما دلف إلى معبدٍ بوذيٍّ في الصين ولكنها أشد عمقًا وأكثر إجلالًا، لها جانبٌ مخيفٌ غريبٌ كالإحساس بدلوف إلى مقبرة قديمة لفرعون اختلف عليه التاريخ وكثرت حوله الأقاويل، نقل بصره على فرنسيس فوجده جالسًا

خلف مكتب أنيق كبير لا يوجد على سطحه ثمّة شيء إلا مطفأة ذهبية، أخرج غليونه وملأه بالتبغ ثم أشعله بهدوء وأخذ نفَسًا عميقًا، نفث سحابة من الدخان وهو ينظر تجاه دكتور نيلسون مبتسمًا ابتسامةً ثابتةً غامضةً، لم تكن هناك تعابير قاطعة تعكسها ملامح كريستيان لكن قطعت رؤيته آلة في منتصف الغرفة تساؤلاته وهواجسه، وفي الحقيقة إنَّ تلك الآلة فجَّرَتْ لديه تساؤلات أكثر وأثارت شكوكه بشكلٍ مثير، اقترب بحذر منها متأملًا ومشدوهًا ثم جال ببصره في المكان فلم يجد شيئًا آخر عدا ظلال كريستيان وفرنسيس في نهاية الغرفة يتأمّلانه بنظراتٍ ثابتةٍ وقد عمّ صمت غريب موحش المكان بأكمله.

«أنت تتساءل يا دكتور نيلسون، تتساءل ولكن بلا أجوبةٍ، أعرف ذلك كما أعرفك جيدًا يا صديقي اللدود»، قال فرنسيس بنبرة هادئة ثم نفث سحابة أخرى من الدخان ونظر في عيني نيلسون المتحفزتين وفي نفس الوقت تتثاقل عليه الأسئلة **«لِمَ يبدو كريستيان هادئًا إلى هذه الدرجة؟!، وكيف اختفى من الأساس؟!، وما السر وراء اختفائه؟!، ولماذا أقدم فرنسيس على مخاطرة كهذه؟!، مخاطرة قد تقود الأمور إلى منعطفٍ خطيرٍ بالنظر إلى الخلافات السابقة بيننا مع الأخذ في الاعتبار الجروح المعنوية والفشل الذي ألحقه فرنسيس بي؟!، ولِمَ أحسّ بأن هناك شيئًا غريبًا يدفعني للبقاء رغم ما أكنّه من عداء وكراهية لفرنسيس؟!»**، لطمته الأسئلة تباعًا لكن قاطع صوت أفكاره

اللانهائية صوت فرنسيس وهو يقول: «**لم أكرهك يومًا يا سيدي اللورد، بل لم أحمل لك أيّة ضغينةٍ تُذكر قطُّ، لكن الفشل يا سيدي قد يقود صاحبه إلى الجنون، وقد يدفعه إلى بغض كلّ مَن حوله، وقد يطوله الأمر أيضًا ليصل به إلى مرحلة تجعله يتخلى عن كلّ الجاه الذي يملك في هذا العالم من أجل إثبات وجوده كشخصٍ له قيمةٌ حقيقيةٌ**».

اعتدل فرنسيس في جلسته ونحّى الغليون جانبًا ثم قال مبتسمًا: «**لا تخشَ على كريستيان**»، ثم رمق الأخير بنظرةٍ ذات معنى بان فيها الإجلال والفخر ثم قال: «**إنه ولد ذكي، أذكى ممّا كنت أتصور في الحقيقة، ولقد جاء اليوم بناءً على طلبي أو لنقل بناءً على رغبته الحقيقية في التخلّص من تلك الوصمة السخيفة التي حاقَتْ به، إن كريستيان يدرك ويتفهّم تمامًا كل الأمور التي أتَتْ بك إلى هنا، إلى أعتاب قصر عدوك القديم والدائم**».

تطلع إليه نيلسون بنظرة مستغربة ثم قال: «**إني لا أفهم شيئًا ممّا تقول يا فرنسيس، ولا أعلم لِمَ أتيت بي إلى هنا؟، وما الغاية الحقيقية من وراء كلّ تلك الألاعيب السخيفة؟!**».

قهقه فرنسيس بصوتٍ عميقٍ مخيفٍ كان له صدى مدوٍّ في داخل الغرفة المغلقة بإحكام ثم قال: «**عزيزي نيلسون، أرجوك لا تستخفّ بعقلي، إنَّ ما قادَك إلى هنا ما هو إلا عقلك وفضولك الذي لا ينتهي، إنَّك تبحث عن المجهول حتى وإن كان ذلك في**

منزل عدوك، دعنا لا نلعب لعبة القط والفأر السخيفة، ولنتحدث كرجلين راشدين يعرفان تمامًا ما يقومان به».

اقترب منه نيلسون ثم قال: «أرجوك لا تُضِعْ وقتي أكثر من ذلك»، ثم نظر تجاه كريستيان وقال بنبرة مَن لا يعني كلامه: «هيا بنا يا كريستيان من هنا».

قال فرنسيس بصوتٍ قاطعٍ: «إني أعرض عليك الخلود يا سيدي»، رمقه نيلسون بنظرةٍ غريبةٍ مستفهمةٍ فشدّ فرنسيس على كلماته الأخيرة قائلًا: «الخلود يا سيدي، نعَم، كما سمعتَ تمامًا».

لم يعرف نيلسون ماذا يقول فقال فرنسيس بهدوءٍ: «أرجوك اسمعني، ولك القرار في النهاية، إمّا أن تسمع وتفهم ما أرمي إليه وإما أن تختار المضيّ قُدماً نحو عالمٍ متآكلٍ يتحكم الجهل به، وفي تلك الحالة لن أمنعك أبدًا».

أخذ نيلسون نفَسًا عميقًا ونظر في عيني فرنسيس كأنه يستشفّ الحقيقة من خلف كلماته الغامضة، لم يرفع فرنسيس عينيه عنه فبان لنيلسون بأنّ الرجل مُقدمٌ على شيءٍ خطيرٍ لن يتوانى عن تنفيذه أبدًا.

«دكتور نيلسون، أنت رجل عالم، لورد، نبيل، ورثتَ كلّ ذلك عن عائلة عريقة، بالأحرى لم تختر حياتك قطُّ، بل ورثتها وأجبرت على عيشها، مَن يلوم أيّ إنسانٍ في مكانك إن فشل أو حتى كره حياته؟، بصدقٍ تامٍّ أنا لا أصدق كل تلك الترّهات التي

تقول إنَّ علينا تقبل واقعنا كما هو بل والتكيف معه بدعوى أنها الرسالة التي جئنا من أجلها، لا شيء في هذه العالم يؤكّد حقيقة مخزية كهذه، ولكننا نحن البشر خلقنا تلك النظريات الناقصة المريضة من أجل ألا نغوص في طريقٍ موحلٍ نحن أضعف من أن نخوضه، الأمر ببساطة أنَّ الكون لا يخضع للصبيانية والجهل بمثل هذه البساطة، ولن يسامحنا على اقتراف مثل هذه الحماقات المخزية»، ابتسم فرنسيس وهو ينظر إلى دكتور نيلسون الذي بدَتْ عليه الحيرة وأحسَ بألمٍ غريبٍ يتسلل داخله، والتمعت عيناه لوهلةٍ بلمعةٍ حزينةٍ.

نهض فرنسيس من مكانه ثم وقف على بعد خطوتين من دكتور نيلسون ثم قال: «كل الفلسفات والأديان والنظريات تؤكد حقيقةً واحدةً، بأنَّ هناك رسالة جئنا من أجلها، لم يُخلَق كلّ هذا الكون الكبير من أجل أن نعيش حتى نموت في النهاية، نموت دون أن نكتشف الحقيقة، دون أن نعلم السرّ الكبير وراء خلقنا». صمت لوهلة وبدا عليه كأنَّ عبئًا ثقيلًا يجثو على صدره ثم أردف: «والحقيقة أنَّ ذلك السر لن يجده الإنسان ببساطة إلا في حالةٍ واحدةٍ، أن يدرك بأن جسده الفاني ليس أكثر من وسيلة للتعامل مع الكون، ولكنه ليس الغاية ولا الأداة الحقيقية لاكتشاف الوجود».

«**وما هي الأداة الحقيقية إذن يا فرنسيس ؟!**». سأله نيلسون متحديًا فابتسم فرنسيس وولّاه ظهره ثم مشى بخطواتٍ واثقة حتى وصل عند الآلة ولمسها بيده بشكلٍ حالم ثم استدار ليواجه نيلسون قائلًا بهدوءٍ: «**إنها النفس يا صديقي العَالِم**».

تأمّله نيلسون للحظة مفكرًا ثم قال متمتمًا كأنه يحدث نفسه: «**النفس!**».

قال فرنسيس بنبرةٍ عميقةٍ: «**نعم، النفس. سمّها كما تشاء وأطلق عليها من التعريفات ما تحب، النفس. الوعي. الجسد الأثيري. أيًا ما يكون، لكنها تبقى المتحكم الرئيسي في كل شيء**»، أغمض عينيه بشكل حالم ثم قال. «**آهٍ لو تدرك يا صديقي كم من السنوات مرّت وأنا أكافح وأعمل ليل نهار وأتأمل، أرفض النوم والراحة وأضحّي وأقبل كلّ تلك السخافات والأقاويل والافتراءات كي أصل في النهاية إلى ما وصلت إليه، نعم لنجد له ثمنٌ باهظٌ.. باهظ جدًا**».

«**إني لا أفهم ما ترمي إليه يا فرنسيس !**». قال نيلسون بنبرة حيادية مفكرة.

«**لا تتعجل يا صديقي اللورد، ما زال أمامنا متسعٌ من الوقت، إنّ النفس لها سوها الخاص وتركيبتها المعقدة. فمثلا قد ادعى أفلاطون أن النفس مقسمة إلى ثلاثة أقسام، قسم مسؤول عنه الرأس، وتلك أطلق عليها النفس العاقلة. والقسم الثاني وهو ما أطلق عليها النفس الغضبية وتلك مركزها الصدر،**

والقسم الأخير المسؤول عن الشهوة ومركزه البطن وتلك أسماها النفس الشهوية، وفي الحقيقة إن تطرقنا للموضوع بشكل أعمق فإني أكاد أختلف مع الرجل حيث إنّ النفس واحدة ولا يمكنني تقسيمها أبدًا بهذا الشكل، ولكن لنقل يا سيدي إنَّ النفس لا يوجد لها مركز داخل الإنسان وإنما مركزها حوله، وإن رجعت للأديان والكتب المقدسة والفلسفات فستتأكد ممَّا أقوله، فالإنسان يتسلم جسده الفاني مع ولادته، الجسد بمتطلباته ورغباته الاعتيادية التي نعرفها جميعًا، الأكل والشرب والمسكن والجنس وغيرها من الرغبات المتعلقة بالجسد، لكن المتحكّم بكل ذلك هو النفس، النفس هي التي تجمح الغضب والشهوة مثلًا إن كانت سويّة مدركة عاقلة وهي التي تنساق خلف شهوتها إن كانت شهوية وما يكفل أن يظل الميزان متوازنًا فلا ينجرف الإنسان نحو حيوانيته فهو العلم والإدراك حتى لا ننساق نحو مصير أسود، هل تتبعني يا دكتور نيلسون؟!».

أومأ نيلسون برأسه دون إرادةٍ منه وقد أحس بأنه نسيَ الوجود حوله تمامًا، بل نسي ما أتى به إلى هذا المكان من الأساس فقال فرنسيس: «**جيد، يمكنك الجلوس على مكتبي إن شئت**»، هزّ نيلسون رأسه بالنفي فتابع فرنسيس: «**المصريون هم أول مَن اعتقد وأكد خلود النفس، أي بعودة النفس مرة أخرى وأجزموا بوجودها في الماء والهواء وتجسُّدها أحيانًا في الحيوان حتى تعود في يومٍ ما وفي حياة أخرى في جسد بشري، وقد اعتقدوا أن**

تلك الدورة تستمر ثلاثة آلاف سنة في كلّ مرةٍ، ولكن في الحقيقة ومع البحث وجدت أن ذلك الاعتقاد موجود منذ تاريخ باكرٍ، وفي ثقافات قديمة أبكر من العصر الفرعوني المجيد المليء بالمفاجآت دائمًا، ولكن كتاب الموتى عند المصريين المرتبط بالحكم بعد الموت والذي يؤكد عودة النفس في صورةٍ بشريةٍ أخرى وحياة أخرى كعقاب على الخطيئة في الحياة السابقة وهكذا دواليك حتى تتحرر النفس مع ما اكتسبَتْه في نقطة دفينة بالتعلم حتى تصل في النهاية إلى الوطن الأم، القداسة، روح الخالق، وفي الحقيقة قد تجد أن الأمر يعتبر سخيفًا إن تطرقنا له بهذه البساطة كما ترى، ولكنه أعقد بكثير ممّا تتصور»، تنهّد فرنسيس تنهيدة تنمُّ عن إحساسه بالإرهاق والنفور ثم قال وهو يسير تجاه مكتبه: «لكنّ اليونانيين كان لهم رأيٌ آخر»، جلس على المكتب فجلس نيلسون بهدوءٍ في مواجهته وقد اعتراه فضول رهيب، بينما تأمل كريستيان ما يحدث بعيني العارف وابتسامة واثقة تتجلى على وجهه.

«اليونانيون يا سيدي»، قال فرنسيس ملوحًا بيده على سبيل الشرح بعد أن أشعل غليونه مرة أخرى، «لقد بدأ الأمر لديهم بالتقمص، والتقمص في الفلسفة اليونانية يعني انتقال النفس أو هجرتها بعد الممات وبخاصة تناسخها والكلمة اليونانية هي: ميتيمسايكوسيس (μετεμψύχωσις) ، وتعني بلا تحريفٍ أو ادعاءاتٍ وبشكلٍ قاطعٍ التقمّص في الفلسفة اليونانية القديمة،

وفي الحقيقة إن صديقي الكاتب الروائي الأيرلندي جيمس جويس سينشر رواية بعنوان «يوليسيس» وقد وافقت جريدة «ليتل ريفيو» على نشرها على حلقات خلال مارس القادم، الرواية تتناول فكرة التقمّص حيث تعتبر نموذجًا لموضوع التقمص بأكمله بشكلٍ رائع، ودون الدخول في تفاصيل عن ذلك العمل ستجد أنه يفتح المَجال لعدة موازنات بين شخصيات وأحداث ملحمة هوميروس وبين شخصيات وأحداث روايته «مثلًا: الموازنة بين ليوبولد بلوم يوليسيس، وبين مولي بلوم وبينيلوبي، وبين ستيفن ديدالوس وتليماك»، ابتسم فرنسيس وأخذ نفَسًا عميقًا ثم استرسل قائلًا: «نظرية التناسخ لدى أفلاطون تختلف عن نظيرتها لدى بعض الأديان فإنه يجزم كما نعرف بأنّ الفارق بين الإنسان والحيوان هو العقل ونحن ندرك بأن ذلك صحيحٌ تمامًا»، ثم نفث سحابة من الدخان واسترسل: «فيتصور أن قد تسكن نفس إنسان بعد تحرّرها حيوانًا ما لتأخذ شكله المادي دون حقيقته الباطنية، وذلك سبب تصوّر بعض البشر بأن هناك أرواحًا شرّيرةً تسكن الحيوانات حتى إنَّه من الطريف أنَّ ذلك الاعتقاد دفع البعض لزيارة أبنائه الذين وصلت أعمارهم إلى درجة كبيرة ظنًا منهم أنهم كانوا أبناءه في السابق أو ربما هو بنفسه يا سيدي اللورد».

تطلع إليه نيلسون مفكرًا فقاطع شكوكه فرنسيس قائلًا: «لن تدرك بأني محقٌ تمامًا فيما أقوله، ولن أسترسل أكثر في فلسفات أكثر من ذلك ولكن النفس غامضة غموض الزمن، والعلم واسعٌ وغريبٌ ونحن مع كل يوم نكتشف أننا لا نعرف شيئًا عن هذا العالم الكبير» ثم نظر تجاه الآلة بشكل مَن بان عليه الإعياء ثم تنهد قائلًا: «وتلك الآلة هناك هي باكورة أعمالي، معاناتي وجهدي، هي أنا لو كان ممكنًا أن أصفها بتلك الصفة».

نظر نيلسون تجاهها متشككًا مدركًا في نفسه رغم جنون الرجل عبقريته منقطعة النظير فسمع فرنسيس يقول وقد اختفت ملامحه خلف سحابةٍ كثيفةٍ من الدخان: «تلك الآلة لن تجعلكم تستغرقون عشرة آلاف سنة، ولا ثلاثة آلاف سنة، بل لن تجعلكم تستغرقون أكثر من ١٥ دقيقة فقط، ١٥ دقيقة خلالها تختارون أي جسد تفضلون المضيّ قُدمًا معه في هذه الحياة لاكتشاف الحقيقة».

دوّت كلماته كدوي الرعد على مسامع نيلسون الذي التمعت عيناه ببريق مخيف فحدج فرنسيس بنظرة مستفهمة يشوبها الريب فقال فرنسيس بهدوءٍ: «ألم تسأل نفسك يا نيلسون يومًا ماذا لو دنوت.. عانقت.. اقتربت من شفير الموت دون أن تموت فعلًا؟!، ماذا لو خضت تلك التجربة الفريدة؟! من ملامسة ذلك الكائن المهيب من بعيدٍ، من زيارته مجرد زيارة والعودة سريعًا

قبل أن يجهز عليك ؟!، ألم تتساءل ماذا سيحدث لو حصل ذلك الأمر؟!».

قال نيلسون والذهول يتملّك منه: **«قد لا يحدث شيءٌ، وقد لا أرى شيئًا، وربما سأسير في ذلك النفق الذي طالما تحدثوا عنه.. قد لا أعود معجبًا بالإضاءة في نهايته..»،** وابتسم ابتسامةً ساخرةً.

قاطعه فرنسيس قائلًا: **«وقد تعود إذا قابلت نفسًا أخرى تخبرك بأن هناك شيئًا لم يتمّ إنجازه بعد، ستعود إن كان لك مهمة لم تنتهِ بعد.. ستعود لتختار بنفسك بعد أن تحرّرت لدقائق معدودة، الدنوّ من الموت هو الحالة الوحيدة المثبتة علميًا التي تهيئنا بأن نرى كلّ شيء بماديته الحقيقية وبأن نعيش كل تفصيلة بتوقيتها الحقيقي لهذه الأرض، لن يفيدك التأمل ولا الخروج من الجسد؛ لأنَّ كل تلك التجارب أثبتت بأن التوقيت مختلف، قد ترى المستقبل أو الماضي ولن ترى الأشياء على طبيعتها، ستختلف المادية حتمًا، لكن مع الدنوّ من الموت ستعيش الحياة بشكلها الحقيقي وبتوقيتها الحقيقي وبماديتها الحقيقية أيضا ولكن...»،** وصمت قليلا ثم أردف بصوتٍ دافئٍ **«ليس بهيئتك الحقيقية».**

تطلع إليه نيلسون فزعًا ومعجبًا بعقليّته في نفس الوقت فسمعه يقول: **«السؤال هنا يا نيلسون الذي لا أعرف إجابةً قاطعةً له: ماذا لو سار في ذلك النفق شخصان معًا، شخصان**

يتمتعان بنفس الهيئة الجسمانية، كلٌّ منهما يملك الحياة التي يتمنّاها الآخر، أحدهما يملك الحب والوفاء والتبجيل ولكنه فشل في علمه وأضاع حياته مرغمًا على عيش حياةٍ لا يتمنّاها، يتوق إلى حياة البسطاء شديدة الهناء والآخر موصومٌ بالعار، يكرهه الجميع لكنه يتمتع بعقلية فذّة ورغم ذلك يتمنى لو أن يحصل على حياة الآخر»، نقل بصره بينهما ثم ساد صمتٌ ثقيلٌ حيث نظر كريستيان ونيلسون لبعضهما فقال فرنسيس بهدوءٍ: «ماذا لو التقى هذان الشخصان في ممرّ الموت، في ذلك النفق الأسطوري؟!».

أخذ نفَسًا عميقًا ثم قال: «أنتما وحدكما مَن تعرفان الإجابة».

مشى بخطواتٍ متمهلةٍ حتى وقف في مواجهة الآلة وفرد ذراعيه كطائر مهيب وهو يقول بصوتٍ كان له صدى غريب ومهيب داخل الغرفة: «تلك الآلة هي الطريق للوصول إلى ذلك النفق، ستساعدكما على اجتياز طرقات لم تحلموا يومًا بوجودها من الأساس، هناك ستعودان شخصين آخرين، أنا أعرف أنكما ستختاران جيدًا، لديكما الرغبة الحقيقية والدوافع التي تجعلكما تعودان في نفس الجسدين الفانيين لكما، ولكن كلّ نفسٍ في جسد الآخر، نعَم، في جسد الآخر، لتتحقق المعجزة، لتتحقق نبوءتي عن ذلك العالم».

ساد صمتٌ موحشٌ ثقيلٌ لمدة غير قصيرة، قال نيلسون بهدوءٍ وبنبرة مَن لا يعني كلماته: «**وما الذي يضمن لك بأننا سنوافق يا فرنسيس؟!**».

ابتسم فرنسيس ثم قال: «**أنا لا أضمن شيئًا، ولكني أرى منذ تلك اللحظة بأنّ نفسك يا سيدي اللورد تتواثب في مكانها أملًا في حياة أخرى بلا قيودٍ، أرى ذلك جيدًا الآن**»، قال فرنسيس جملته الأخيرة وقد لمعت عيناه فبدَتا عيني ذئبٍ في ليلةٍ قمريةٍ باردةٍ، تطلع نيلسون إلى كريستيان الذي نظر إليه وعلى وجهه ابتسامة لم يرها نيلسون في حياته.

⌛

بعد صمت طويل موحش تخلّلته استعادة الذكريات أخرج كافنديش من معطفه عدداً كبيراً من الخطابات، كان واضحاً أنّها تلك الخطابات التي وجدها الراحل هنري ويزلي التي من خلالها اكتشف الحقيقة ثم وضعها أمامهم فتعرفوا عليها في الحال، قال كافنديش بهدوءٍ: «**إن تلك الخطابات تؤكد تعاونكما في تلك المجزرة التي قام بها العزيز كريستيان، أو لنقلْ بوضوحٍ أكثر اللورد نيلسون بينما ساعده العقل الفذ نيلسون، أو لنقل بوضوحٍ العزيز كريستيان الجديد بهيئته الجديدة**».

تطلع نيلسون إلى كريستيان مبتسمًا ثم حدج كافنديش بنظرةٍ مستهزئةٍ ثم قال بنبرةٍ غريبةٍ وهو يقترب منه حتى وقف في مواجهته: «**أنت تعرف نيلسون جيدًا يا صديقي اللدود، تدري تمامًا بأنه لن يترك جعبته خاويةً بلا شيء يراهن عليه ويساوم به، أليس كذلك؟!، أليس كذلك يا.. فرنسيس ؟!**».

صاح كريستيان مستغربا : «**فرنسيس ؟!**».

أومأ نيلسون برأسه مبتسما ابتسامةً تنمّ عن انتصاره : «**نعم، فرنسيس**».

حدجه فرنسيس بنظرة مرتابة فأردف نيلسون: «**وتدري تمامًا بأني لم أحبّك يومًا، وكذلك أنت مهما ادّعيت ومهما حاولتَ التملّص من تلك الفكرة!**»، واقترب منه أكثر حتى صار وجهاهما متلاصقين فقال بهدوءٍ بعد أن نقل بصره تجاه كريستيان ثم أعاده مرة أخرى ليحدج فرنسيس بنظرةٍ ناريةٍ: «**وأعرف أنك كلفتَ نيلسون الكثير على مرّ حياته، قتلت طموحه وأعدته مرات ومرات، والعار يلاحقه دون أن تفكر ولو للحظة واحدة صادقة فيما تسبّبه له من آلام، والآن تأتي بكل وقاحة لتنتزع منه حلمه الأخير ولكن...**».

ارتسمت على وجه كافنديش ابتسامةً متوترة منتظرًا أن يكمل حديثه فقال نيلسون: «**ولكن هذه المرة لن توقفه أبدًا إلا بهلاكي أنا شخصيًا**».

ابتسم كافنديش ابتسامةً ساخرةً متوترةً ثم قال: **«وكيف ستفعل ذلك إذن يا كريستيان؟.. أوه.. آسف أقصد يا دكتور نيلسون»**.

ابتسم نيلسون ابتسامةً هادئةً واثقةً ثم اتجه نحو المكتب وأخرج كيسًا شفافًا بداخله مسدس لرجل معروف، مسدس مفقود ارتكبت به عملية انتحار، ربما جريمة قتل، لكن الأكيد أنَّ المسدس يحمل بصمات كافنديش وهذا ما جعل الأرض تميد من تحت قدمي كافنديش، وحينها قال نيلسون بهدوءٍ: **«أرأيت، لستَ وحدكَ مَن يملك خيوط اللعبة، ولست وحدك أيضًا مَن تمنّى أن يكون يومًا مفتشًا عظيمًا كالراحل كافنديش يا فرنسيس، لقد كنت أراقبك وكنت أدرك تماما بأنّك لن تموت بهذه البساطة، وحينما رأيت كافنديش المسكين، كافنديش الحقيقي يدلف إلى قلعتك الجهنمية أيقنت بأنك لا تنتوي خيراً، فراقبت كلّ شيءٍ عن كثبٍ، وبعد أن أدخلته آلتكَ عمداً وقمت بعملية التحويل كما تذكر قمت بضرب الرصاص عليه قبل أن يكتشف ما حدث له، وبعدها خرجت من القصر متسلّلاً بعد أن شربت المادة المنومة وألقيت نفسك أمام قصره كي لا يشكَّ بك أحدٌ، وكان سهلاً عليك بالطبع قبل كل ذلك أن تكتب خطاباً يفيد بانتحارك، لكن ما لم تفكّر فيه أن يتسلل أحدهم ويسرق المسدس، الدليل الوحيد الذي يحمل بصمات كافنديش الذي به قتل فرنسيس، أيّ عقل ذلك الذي أتحدث عنه سوى أنّه عقل**

الشيطان، كنت أعرف الحقيقة ولذلك لم أبيّن لك شيئًا لعلمي بأنّ هذا اليوم سيأتي، سيأتي لنتواجه كما نحن الآن».

انعقد لسان ذلك الرجل المجنون الواقف في مواجهتهما ولم يعرف ماذا يقول وعاودته تلك الذكرى البعيدة هناك حينما أتاه كافنديش مسالمًا غير عالم بمّا يجهزه له، تذكر حينما غطّ كافنديش في النوم لآخر مرةٍ في حياته قبل أن يضعه على الآلة ويدخل معه ليتبادلا الحياة إلى ما لانهاية، وحين تتم العملية يطلق الرصاص على جسد فرنسيس الذي حوى كافنديش الذي لم يكن يتخيّل أنه في اليوم الذي يتحوّل فيه إلى عالم يتمّ قتله بلا رحمةٍ، ببساطة قتل فرنسيس جسده، قتل ما تبقى منه وتلك الحادثة لم يستطع قط الخلاص منها على مرّ الأيام اللاحقة، جزء منه بات ميتًا، يمنعه عن النوم، يقتل أحلامه بالكوابيس ويستأثر به في الظلمات وحينها سمع نيلسون يقول: **«أرأيت يا صديقي بأني أيضًا رجلٌ يفي بوعوده؟!»**، وابتسم ابتسامةً ساخرةً.

وفي تلك اللحظة اقترب نيلسون من كافنديش ثم مال عليه وهمس في أذنه بشيءٍ ما ثم عاد إلى الخلف مبتسماً ابتسامةً غريبةً فتطلّع إليه كافنديش دون أن يبدو على وجهه أيّ تعبيرٍ يعكس ما يعتمل في صدره، وساد صمتٌ ثقيلٌ مقبضٌ حتى اعتقد نيلسون للحظة بأنه سيدوم إلى الأبد، وفي النهاية أومأ كافنديش برأسه له وقد بان في عينيه استسلامٌ غريبٌ، تطلع إليه نيلسون كأنه يتأكد من جدّيّته لوهلة طويلة ساد خلالها صمت أكثر ثقلًا وانقباضًا،

لم يقطعه سوى صوت الأفكار الغريبة السوداء بين الثلاثة فقال كافنديش بهدوءٍ: «**لك كلمتي يا كريستيان.. إني أوافق**».

فمدّ نيلسون يده له فنظر لها كافنديش ثم مدّ يده ليصافحه ونظر في عينيه فقال الأول: «**أرأيت نحن لا نختلف كثيرًا عن بعضنا البعض؟، أليس كذلك؟!**».

سحب كافنديش يده من يد كريستيان ثم طأطأ رأسه مفكرًا لهنيهةٍ ثم قال: «**ومتى سيكون ذلك؟!**».

قال نيلسون : «**حينما تكون مستعدًا**».

قال كافنديش: «**حتى لا تتحول الأمور وتسير في اتجاهٍ آخر، لم يعد أمامنا سوى يومين**».

قال نيلسون: «**ليكن في اليوم الأخير إذن، وأدعو الله أن يمنحك القوة لفعل ذلك**».

ابتسم كافنديش ابتسامةً باهتةً ثم أومأ برأسه محيّيًا الاثنين، وسرعان ما هبّ لمغادرة الغرفة فقال كريستيان: «**إنّ الدمية لا بدّ أن تنقلب على صانعها يا سيدي**»، استدار كافنديش وحدجه بنظرة قاسية فابتسم كريستيان وأومأ برأسه له محييًا فأخذ كافنديش نفَسًا طويلًا فسمعه يردف قائلًا: «**صدقني يا سيد كافنديش، إنه لمصلحة الجميع**».

ثم قال نيلسون بنبرةٍ محذرةٍ: «**دعك من الألاعيب يا صديقي، تأكد بأني أراقبك**».

نظر له كافنديش نظرةً طويلةً غامضةً سرعان ما بان فيها الاستسلام، ثم ما لبث أن غادر بينما تابعه نيلسون وكريستيان حتى اختفى عن الأنظار، تطلع نيلسون إلى كريستيان مذعورًا فقال الأخير: «**أعتقد أنني فعلت الصواب لكلينا**».

فقال دكتور نيلسون بأسى: «**هكذا تأتي نهاية الظالمين لأنفسهم يا عزيزي!**»، ثم ابتسم ابتسامةً باهتةً وغادر الغرفة سريعًا والحزن يأكله.

25

يومان وينتهي كلّ شيءٍ، تنتهي تلك القصة الغريبة بتفاصيلها الموحشة المقبضة، يومان ويعود العالم لينعم بجهله ويسبح فيه غارقًا في خيالاته اللامعقولة، في أمانيه – أماني المغفلين والغافلين – التي لا تتحقق، يومان فقط من عمر الزمن، فيهما ستنداح قصة غريبة وتُمسح من كتب التاريخ حتى لا يعرف الإنسان الحقيقة، بأنَّ هناك مَن حاول أن يصل إلى الحقيقة بطريقةٍ قد تبدو غريبة، نادرة الحدوث، أن يصل إلى تلك المرحلة من القداسة التي تقوده في النهاية إلى المنزل، إلى البيت الكبير الرحب حيث يعود إلى الوطن الأمّ؛ لينعم بالسلام الأبدي بعد رحلةٍ طويلةٍ قاسيةٍ مفعمةٍ بالنكران والنسيان.

قد تكون أنت بطل تلك القصة ولكنك لا تدري، نفسك الساقطة أغشتْ رؤيتك بينما النسيان الكبير متملّك منكَ، يحاصرك جسدك الفاني بغرائزه الهشة المزيفة التي تقصيك عن الحقيقة التي جئتَ من أجلها، التي خُلقت من أجلها، في الحقيقة إن جسدك ما هو إلا ستارٌ بينك وبين الحقيقة والأمل الوحيد في

التعلم، في تلك الفلسفة التي ستقودك في النهاية لتتذكر هويتك الحقيقية وهدفك الوحيد الذي خُلقتَ من أجله، لتستعيد ذكراك عن نفسك وعن الحقيقة وهكذا فقط يمكن العودة إلى الوطن.

والآن نعود لقصتنا.

خرج كافنديش من منزل دكتور نيلسون مفكرًا فيما حدث وما سيحدث، ابتسم في نفسه متألمًا بعد أن علم أنه لا مناص الآن من تحقيق الغاية الأخيرة، الغاية الإلهية السامية التي لا يستطيع أيّ مخلوقٍ أيًّا كان الوقوف في مواجهتها أو يحول دون وقوعها، ربّما لم يكن يتخيل أنّ الأمور ستصل به إلى هذا الدرب الضيق الوعر الذي سيؤدي في النهاية إلى الهلاك، لكنه في أعماقه أدرك بأنها نهاية عادلة، مفاجئة! قاسية لكنها تبقى عادلةً لكل شيء، كان بإمكانه الرفض بكل بساطة وليذهب العالم إلى الجحيم إن شاء، لكنه في أعماقه يدرك بأن موافقته تلك نابعة من داخله هو دون تحدياتٍ زائفةٍ، لم تحركه تطلعاته وعِناده المعهود بل لم يدفعه لذلك سوى اعترافه الكاملِ بالحقيقة والفشل معًا، حيّره نيلسون وما سيؤول إليه أمره مدركًا في نفسه بأنه سيلحق به ما لا يتصوّره وأدرك أيضًا بأن روح الغرور التي تملكتْ منه ستسقط في النهاية كما سقطت روحه هو أيضًا، نظر إلى السماء وابتسم ابتسامةً راضيةً رغم الألم البادي والكامن في صدره كصخرةٍ ثقيلةٍ تهوي وتغور في أعماقه، تطلع إلى المنزل بنظرة أخيرة أسيفة وسرعان ما ركب عربته وانطلق في طريقه.

جلس دكتور نيلسون في مكتبه تلك الليلة يتابع النجوم من خلال النافذة المفتوحة، يتأمل الكون الكبير حيث تزينَت السماء الصافية في تلك الليلة الدافئة على غير العادة بمصابيحها البعيدة المتلألئة واجتاحها غموضٌ مثيرٌ، لم يكن ثمّة خفاشٌ في المكان، لقد رحل الخفاش ورحلت معه كل المخاوف القديمة، ربما هي كذلك منذ زمنٍ، منذ الزمن نفسه لكنه لم يكتشف ذلك سوى الآن، فكر في تلك الأماني التي طالما ناوشته وطالما تمناها مهما كان الثمن، تلك الأماني التي جعلته يندفع بلا وازعٍ أو تفكيرٍ في طريقٍ غامضٍ لا تتضح معالمه، طريق مظلم ومقفرٍ ربّما لم يمشِ فيه إنسانٌ مِن قبل، ولكن الإنسان كائن مغرور لا يرضيه شيء ولا يوقف تغطرسه سوى سقوطه، وللأسف لا يعرف الحقيقة إلا في اللحظات الأخيرة، اللحظات التي لا يمكن أن يعود بعدها أبدًا ليخبر الآخرين عنها وإن عاد ـ فيما بعد ـ فلن يتذكر شيئًا وتلك هي المعضلة التي يقاسيها على طول رحلته على هذه الأرض.

جلس كريستيان في المعمل تلك الليلة شاردًا ومتأملًا سنين طويلة خلَتْ، أحلامه وتطلعاته، آلامه وعذاباته، مفكرًا بأسى في تلك الليلة الملعونة التي على إثرها تغيّر كل شيء وفكر في رفضه الغريب لطلب فرنسيس الأخير وتساءل في نفسه عن الحقيقة وراء ذلك؟! أهو الخوف من الرجوع مرة أخرى؟! أم أنها التطلعات الملعونة التي قادته إلى ما هو عليه الآن؟!، ربما ليس كلّ ذلك وأن السبب يكمن ببساطة في رغبته في استكمال ذلك الطريق

اللامعقول، المجنون! في الحقيقة لم يكن يعرف!، فقد تاه في الطريق ولم تعد العودة سهلةً أو ممكنةً، أحسّ للحظة بالحنين إلى الماضي وتمنى لو أنَّ كل ذلك لم يحدث قطّ، لو أنه لم يركب القطار، لو أنه لم يخترْ ذلك الجسد الدميم، لو أنه لم يوجد من الأساس ليقاسي تلك العذابات التي سبّبها لنفسه، تذكر ضحاياه بقلبٍ يتسلل إليه الألم لكنه سرعان ما نحّى الفكرة الأخيرة عن رأسه ووعدهم كما وعد نفسه بأنه سيعوّضهم عن تلك التضحية العظيمة التي قدموها له، وفي الحقيقة إنَّ كريستيان أحسّ في نفسه بأنهم سيعودون يومًا، ربّما في مكانٍ آخر وزمنٍ آخر، ربما أفضل.

جاء اليوم التالي قبيل اليوم الموعود وانتهاء كلّ شيء، أحسّت إيما بتغير كبير في نيلسون حيث جلس طول اليوم في صحبتها وصحبة تشارلي، بدا مرحًا، يداري حزنًا عميقًا في نفسه وألمًا يكاد يتوهج في عينيه، يقاوم أحاسيسه المضطرمة حتى لا يبكي في النهاية، أحسَّتْ بأنه يلجم إحساسًا بالضيق في داخله، ربتَ عليها بحنوٍّ بالغ قبل أن ينهض ويختفي تمامًا ثم قال لها بهدوء: **«ربما لم أكن الرجل الذي تمنيتِه، ولذلك أطلب منك السماح والغفران»**، وارتمى بين ذراعيها كطفلٍ صغيرٍ يطلب الصفح ثم أردف وهو بين ذراعيها بينما شرعَتْ دموعها تسيل من إحساسٍ قابضٍ يطبق على أنفاسها وينذرها بالسوء: **«لقد قاسيتِ الكثير وخسرتِ ما هو أكثر، لكنني أؤكد لكِ بأنَّ ما فعلته كان الصواب**

وبأنَّ إحساسي بك لم يمت قطُّ، وأرجو أن يصفح ذلك عن زلاتي الأخيرة»، ثم انتزع نفسه سريعًا من بين ذراعيها مغادرًا المكان ربّما لمرةٍ أخيرةٍ.

تابعَتْه إيما بعينيها وقد اعتصرها إحساسٌ بالذهول والعجز واجتاحها ألمٌ شديدٌ، وناوشتها أفكار سوداء وللحظة أحسَّتْ إيما إحساسًا غريبًا تجاه نيلسون زوجها، إحساساً بالبنوة أكثر منه إحساساً بكونها زوجته، نعَم، ولِمَ لا؟!، فلطالما كانت له الزوجة والأخت والصديقة والأم أيضًا، لمَ لا؟! لكن ذلك الإحساس ظل يكبر داخلها حتى احتلّها كاملًا، سقطتْ دموعها غزيرة وقد آلمتْها تلك الأحاسيس الغامضة التي لم تعد تفهم منها شيئًا، آلمها كونها تعيش في منزلٍ احتلته أسئلة بلا إجاباتٍ وأحاسيس لو صدقتها لكان الموت أرحم وأرقّ على روحها المرهفة، أحست إيما بأنّ هناك مَن يراقبها فنظرت حولها مستطلعة لتجد كريستيان يقف في مواجهتها، يتأملها بنظرةٍ غريبةٍ، وعلى وجهه ابتسامةٌ تنمّ عن إحساسه العميق بالامتنان، يقلب نظره فيها كأنّه بشكلٍ غريبٍ موجعٍ يودّعها، فاقتربت منه ونادت بلهفةٍ: **«كريستيان، لِمَ تبدو حزينًا إلى هذه الدرجة؟، وماذا يحدث بحقّ الله؟!»**.

ابتسم كريستيان ثم قال وهو ينظر في عينيها برقةٍ شديدةٍ: **«لقد طلبت منك أن تنقذيني بكلّ طريقةٍ ممكنةٍ، ولكنك لم تفعلي ذلك قطُّ، تذكري ذلك جيدًا»**.

أومأ لها برأسه ولو أنّها صدقت عينيها، فإن هناك دمعة سقطت على وجهه قبيل انصرافه تمامًا، ظلت تعتصر نفسها للإمساك على جملته الغريبة تلك، لقد سمعتها قبل ذلك، تحسَّ بها تحوم في ذكرياتها ولكنها لم تكن موجهة من كريستيان، ماذا؟!.. مستحيل... تطلعت إليه بقلبٍ مغمورٍ بالأسى حتى فارق عينيها تمامًا، في تلك الليلة سمعتْ ضَحكاته المجلجلة آتيةً من غرفة تشارلي فاسترقت السمع من خلف الباب لتتأكد لها ظنونها، بأنَّ هناك شيئًا مريبًا غريبًا يحدث في هذا المنزل، شيئاً ربما سينتهي على إثره كل شيء.

مفتش شرطة سكوتلاند يارد - شتاء ١٩٢٠.

اليوم الأخير - تشارلز كافنديش.

برقت السماء ورعدت، واحتشدت الغيوم لتظلل لندن بستار رمادي سميك داكن أحال النور إلى ظلمة، أنذرت السماء بوعودٍ مخيفةٍ وعوت الرياح تعصف مهددة بخطرٍ قريبٍ، بينما احتشدت قوات كبيرة من الشرطة وقد أخذت وضع التّأهب انتظارًا لتعليمات كافنديش حيث عمد إلى الصحافة لنشر الخبر على طول البلاد، ورغم هول الجوّ لم يتوانَ الناس عن التجمهر بأعداد غفيرة منذ نشر الخبر أمام مكتب شرطة سكوتلاند يارد وكلهم أملٌ في القصاص من ذلك السفاح الذي اقتنص الجمال، ليس فقط لارتكابه جرائم

قتل متوحشة تقشعر لها الأبدان، وإنما من أجل الجمال والسلام الداخلي الذي انتزعه من قلوبهم، من أجل ما قدمه من آلام عميقةٍ في نفوسهم وتصورات مشوهة عن العالم الذي يعيشون فيه، ألم تكفهم الحرب التي ضيعتْ عليهم سنوات وسنوات من الحب والسلام؟!، لقد جاءوا ليتأكدوا من أنَّ العدالة ما زالت قائمة وأنَّ كائنًا مشوهًا كذاك السفاح لا وجود له في هذا العالم، لن يسيطر الشر مهما بلغتْ قوته ومهما اشتد سلطانه، سيسقط حتمًا في النهاية.

لم يكن كافنديش قد ظهر منذ طلوع الفجر ومع تدفق الناس على لندن من كل مكانٍ في إنجلترا باتت الحركة شبه مستحيلةٍ، حيث توقفت العربات جانبًا واضطر الكثيرون إلى استكمال الطريق سيرًا حتى يصلوا إلى مكتب شرطة سكوتلاند يارد، رجال ونساء وأطفال وشيوخ، رجال يملؤها الغضب والألم وتنشد الثأر، ونساء يتهيّأن للحظة الفاصلة لتستريح قلوبهن بالقصاص من أجل فلذات أكبادهن، شباب لندن المقتولين، أطفال تصيح وتضحك منتظرة بحماسٍ ذلك الحدث الغامض الغريب، وشيوخ تتمنى ألا يتركوا العالم وعلى وجهه لطخة دامية قد تغير معتقداتهم في وقتٍ لا مجال فيه لتغيير أي معتقد.

وقف كافنديش في هذه الأثناء وعيناه متّقدتان بوميض ناريٍّ وقد بدا عليه سكونٌ غريبٌ مهيبٌ، لقد كانت الآلة تحترق ومعها تحترق ذكرياته المبهمة، يتابعها بعينيه اللامعتين متأملًا، أشعل

فيها النار بعد ترددٍ كبيرٍ كاد يمنعه، أحرقها كما أحرقت هي حياته وجرفته بعيدًا عن هدفه الحقيقي وتساءل في نفسه: هل كان فعلًا كما يقولون عنه في الخفاء؟!، مجنون تملّك منه الشر؟!، كائن لا يعرف الرحمة في صورة آدميّ؟!، تأمل بصعوبة تلك الذكريات المزروعة في نقطةٍ بعيدةٍ من نفسٍ صور لها عقلها بأنها تستطيع أن تخترق حدودها لتبرهن على قدرتها على النفاذ إلى الحكمة الإلهية، لقد كان ذلك هو نصف الاتفاق، أن تحترق تلك الآلة الملعونة وتختفي من الوجود إلى الأبد حتى لا تكون سببًا في شقاء آخر، ربّما فيما هو أسوأ، والعالم يضج بالمجانين.

وقف كافنديش حزيناً، شاعراً بالخزي والعار كشعور مقاتل مغوار أخبره قائده في النهاية بأنه لم يكن أكثر من قاتلٍ، آلمه ذلك الإحساس، أمّا نصف الاتفاق الآخر فهو أن يتخلص من نفسه، أن ينتحر فعلا، في الحقيقة إنّه لم يعد يهمّه وجوده الآن، لم يعد هناك شيء مهمّ يسترعي اهتمامه، فما الفائدة وقد فشل بعد أن صور له عقله الذي حاد عن الطريق بأنه نجح فيما لم ينجح فيه أحدٌ قبله؟!، سيشهد كافنديش على التجربة الأخيرة وبعدها سينتهي كل شيء، سينتهي كأنّه لم يكن من الأساس، فمع اختفاء تلك الآلة لن يعرف أحدٌ الحقيقة، ولن يستطيع أحد مهما بلغت قدرته على التنبّؤ بالحقيقة المخزية السافرة.

أخذ نفَسًا عميقًا ثم وضع يده في جيب معطفه وأخرج الغليون، غليون فرنسيس هورسلي وتطلع إليه مبتسمًا ابتسامةً باهتةً وومضت عيناه ببريقٍ غريبٍ، ثم أشعل الغليون بكبريت وأخذ منه نفَسًا عميقًا ثم قال بهدوءٍ: **«أنا رجل يفي بوعوده دائمًا»**.

وانطلق كافنديش في طريقه نحو النهاية.. انطلق وهو يعرف أنّه لم يكن يومًا كافنديش.

الفصل الأخير

احتشدت قوات الشرطة حول المبنى الذي يحوي معمل دكتور نيلسون بينما كافنديش يتقدّمهم وقد بدا مهيبًا يرتسم على ملامحه تعبيرٌ غامضٌ بينما الناس تسير خلف القوات في صمتٍ تامٍّ حتى بدوا كأنهم يسيرون في جنازة مهيبة للملك نفسه، لم يكن يقطع الصمت سوى دبيب خطواتهم التي تنشد القصاص والعدالة، خطوات حماسية ترجو أن تعود سعيدة بتحقيق السلام وإرساء الأمن، لم يعق الناس نظام الشرطة بل تقدموا خلفهم وكأنهم درع واقٍ لهم من خطرٍ غامضٍ لا يعرفونه، أشار كافنديش لهم بالتوقف بمجرد أن وصل فتوقفَ الجميع وقد اجتاحهم إحساسٌ بالحماس المشوب بالقلق والتردد، أخذ كافنديش نفَسًا عميقًا وقد استقرت في عينيه نظرة مَن أقدم على شيءٍ خطيرٍ، أشار برأسه لأحد الضباط فاقترب منه ثم همس بشيءٍ لم يتبيّنه أحدٌ.

اتجه الضابط وأمر رجال الأمن بمحاصرة المعمل، وفي ثوانٍ حوصر المعمل تمامًا من جميع الاتجاهات، أخذ كافنديش نفَسًا عميقًا ثم نظر في ساعته وسريعًا ما نقل بصره تجاه المعمل، مشى

بخطواتٍ متمهلة حتى توقف في مواجهة الباب وقام بقرعه فأتاه صوتٌ من خلف الباب يخبره ببساطة بأن ينتظر، انفتح الباب بهدوءٍ بعد ثوانٍ ودلف كافنديش وحيدًا إلى المعمل، كان الظلام دامسًا إلا من آلةٍ تضرب بغضب بصواعقها الكهربائية في كلّ مكانٍ، أدهشه المشهد وألقى الرعب في قلبه بينما وجد كريستيان يقف في بؤرةٍ قريبةٍ مظلمة تضيئها الصواعق من وقتٍ لآخر، تطلع إليه كافنديش بوجهٍ ساهم متحفز فاقترب منه كريستيان وبهدوءٍ قال: «**أرجو منك أن تمهلني نصف ساعة فقط، نصف ساعة وسيكون كلّ شيء تحت تصرفك**».

تململ كافنديش في مكانه ثم قال: «**لكن..**».

قاطعه كريستيان قائلًا: «**أرجوك يا كافنديش، لأجل عداوتنا الشريفة، حقق لي ذلك الطلب**».

تأمّله كافنديش ثم أخذ نفَسًا عميقًا مفكرًا لكنه في النهاية أومأ برأسه موافقًا واتجه صوب الباب، ألقى نظرةً أخيرةً عليه بدا فيها الألم قبل أن يغيبه الباب ثم أغلق الباب خلفه بهدوءٍ.

في تلك اللحظة أتَتْ إيما مسرعةً بين الحشود تصيح باسم نيلسون وكريستيان وقد بدا كأنها أصيبتْ بلوثة، صرخت بمجرد رؤية كافنديش الذي منعها بالقوة عن الدخول بينما صرخاتها تقطع الصمت الموحش، أمسك بها أحد رجال الشرطة بعد أن أبعدها كافنديش عنه وقد تملك الحزن منه.

وقف كريستيان في هذه اللحظات يتأمّل نيلسون النائم على الحمالة بعد أن حقق رغبته الأخيرة وبعد أن ودّع الحياة في صمتٍ كما جاءها أيضًا في صمتٍ، تأمله بقلب يغور في أعماقه وتذكر الثواني الأخيرة بينهما حيث غابت عيناه في الذكريات.

«**إنَّ العالم لا يستحق أن يعاش، كما أنني لا أستحق العيش، إن حققت ما رنوت إليه فأرجوك أخبر وجهي بأنّي لم أكرهه لكنني أشفقت عليه، أخبر العالم بأنَّ الجمال ما زال موجودًا إن بحثنا عنه، خطيئتي هي أنّي كرهت ما وهبني الربّ، لم أسعَ لاكتشاف الحكمة وراء دمامتي، لم أفهم المغزى الإلهي بل حولته لعدوٍّ قديمٍ واندفعت في مقاتلته حتى صرت ما أنا عليه الآن، نفس ملعونة وجسد لا ينتمي لي**».

تأمّله كريستيان بعينين دامعتين ثم قال: «**أرجوك سامحني**».

ابتسم نيلسون ثم قال: «**إني أسامحك من أجل الحياة التي منحتها لي، ولكن أرجوك نادِني بكريستيان، فأنا لم تغيّرني تلك الخلقة التي لم تكن لي من الأساس**».

تساقطت عبراته ثم مسح على رأسه فأردف قائلًا: «**والآن امنحني موتًا حقيقيًا لا أعود منه أبدًا**».

فردّ عليه قائلًا: «**أتمنى ألا تعود أبدًا**».

في تلك اللحظة استسلم جسد نيلسون الذي يحوي نفس كريستيان للمخدّر وشرعت التجربة في البدء.

استفاق كريستيان على الجلبة في الخارج فقبّل بهدوءٍ رأس نيلسون ثم غطاه بملاءة بيضاء وأغمض عينيه واتجه صوب الآلة التي كادت تفجّر المكان من شدة الغضب الذي تملّك منها، سار بهدوءٍ وأحلام كثيرة وأمنيات تحوم به، رأى نفسه يقف على أعلى منبر في إنجلترا بينما الجميع يهتف باسمه وبعظمة علمه الذي سيقود العالم إلى سبل أخرى لم يكن ليحلم بها يومًا، أحسّ بأن الأرض ستتغير بناءً على طلبه وبأنّ كلّ مَن قلّل من شأنه يومًا سيندم، سيحقق أخيرًا ما سعى لأجله سنوات وسنوات، سيعوض خيبات الآمال التي سحقَتْه بلا رحمةٍ، سيعود عظيمًا بعد أن يتحوّل ذلك الوجه إلى ملاكٍ لم يعرف البشر بوجوده قطٍ، وسينسى التاريخ كل ضحاياه وسيتذكره هو، ليذهب العالم إلى الجحيم، ليذهب بلا رجعةٍ.

وقف في المنتصف بعد أن عمد إلى إدارة ذراع الآلة وأغمض عينيه، أحدثت الآلة صوتًا مهيبًا ارتجَّتْ له الأركان حتى إنَّ الناس في الخارج أصابهم الرعب فانكمشوا على أنفسهم واحتموا ببعضهم البعض ورسموا الصليب على أجسادهم طلبًا لحماية الربّ من ذلك الشر المجهول، اهتزّ المبنى بقوة وتطايرت المعادن والأشياء في اتجاهات مختلفة حتى إنَّ باب المعمل الحديدي اقتلع من مكانه واندفع في اتجاه المنتظرين والمتربصين في الخارج، وأصاب بعضهم بينما اختفى كريستيان في بؤرةٍ كبيرةٍ من النور وصرخات مدوية.

هدأ المكان فجأة وعمّ الصمت والتساؤل، نهض كافنديش من مكانه حيث ارتطم بالأرض وأصيب في كتفه ونزفت منه الدماء ثم تطلع نحو المعمل بعقلٍ متسائلٍ وقلبٍ يرتجف، حاول أحد الضباط مساعدته ولكنه نحّاه بعيدًا عنه بعناد واضح بينما كانت إيما ما زالت تصرخ، اندفع تجاه الباب ودلف إلى المعمل فوجد كريستيان راكعًا على ركبتيه على الأرض موليًا ظهره له وقد هدأت الآلة تمامًا ولم تكن تصدر سوى وميض بسيط من الصواعق لا يُقلق، اقترب منه بحذرٍ ونادى عليه: «**كريستيان**».

لم يستجب له وظلّ على حاله فأعاد نداءه مرة أخرى: «**كريستيان**».

ولكنّه لم يستجب لمرة أخرى فأعاد النداء هذه المرة قائلًا: «**دكتور نيلسون**».

فمال بجانب رأسه بصعوبةٍ فبانت ملامحه من الجانب بشكل غير واضح، اقترب أكثر بحذرٍ حتى صار على بعد خطوةٍ واحدةٍ منه ووقف في مواجهته، تأمله بهدوءٍ حذرٍ فرفع دكتور نيلسون رأسه بهدوء فارتعد كافنديش من هول المنظر وعاد إلى الخلف خطوتين، لقد كان في الحقيقة أبشع منظر رآه في حياته وأبشع خلقة لمخلوق على وجه على هذه الأرض، كان يحاول البكاء ولكنه بآليته الجديدة وشكله المشوّه لم يستطع، نهض من مكانه بصعوبةٍ حيث تحول إلى كتلةٍ غريبةٍ من اللحم، شبه بشري، مسخ

حقيقي ثم حاول التحدث فخرجت كلماته بنبرة غريبة حتى عليه هو، نبرة خشنة، «**لقد... لقد... لقد نلت جزائي يا فرنسيس**».

لم يعلم كافنديش ماذا يقول فقد التهم المنظر البشع كلّ غاية وكل سبيل للتحدث، أحس بأنّ الأرض تميد من تحته.

«**لقد أنكرت محبة الله وكرمه، وقادني الغرور والكبر، وها هي النتيجة**»، قال في النهاية بعد أن وقف بصعوبةٍ على قدميه.

شرع يبحث بعينيه الغريبتين المتوحشتين عن شيءٍ ما داخل المعمل حتى وقعت عيناه على «**جركن**» بداخله «**كيروسين**» ملقى في الجانب، أمسكه بيده المفلطحة بصعوبةٍ فحاول كافنديش إثناءه، لكنه بقوة غريبة دفعه بعيدًا عنه فأخرج كافنديش مسدسه وصوبه تجاهه قائلًا: «**لن تفعل ذلك أبدًا**».

نظر تجاه المسدس ثم قال: «**لأحترقنَّ في الجحيم، لا تترك العار يلاحقني أكثر من ذلك، أرجوك دعني أحترق في الجحيم ولا تنسَ أنك أحد الأسباب فيما أنا عليه الآن**».

تململ كافنديش في مكانه مفكرا ومشاعر متضاربة تجوب داخله ثم أسدل المسدس وطالعه بوجهٍ غريبٍ بينما نظرات المخلوق ظلّتْ متعلقة به ورغم وحشيتها بان عليها الألم والإذلال فطأطأ رأسه وانسحب بهدوءٍ من المعمل ولكنه قبل أن يغيب قال: «**ألقِ لي قداحتك يا فرنسيس**»، وقف لبرهة يتأمله ثم أدخل يده في جيب سترته وأخرج قداحته وقذفها نحوه فسقطت بجانبه على الأرض وسرعان ما انسلّ خارجًا.

أفرغ المخلوق الكيروسين على رأسه حتى أغرقه تمامًا ثم انحنى على الأرض وتناول القداحة، تطلع إليها وسرعان ما انسالَت الدموع من عينيه، انسالت غزيرة، توجعه كل قطرة منها، آلمته حياته أكثر ممَّا آلمه ما وصل إليه، آلمه غروره وتطلعاته المجنونة التي جعلته يرضخ لما هو عليه الآن، قدح الولاعة ونظر إلى النار، تذكر على لهيبها ومع صرخات الناس في الخارج التي تطالب به الضحايا التي فتك بها دون وجه حقٍّ وتحت مسميات وتطلعات زائفة، تطلعات مجنون صورت له الحياة بأنه قادرٌ على تحدّي الخالق العظيم، «**لتذهب إلى الجحيم يا نيلسون.. لتذهب إلى الجحيم**»، قال جملته الأخيرة غاضبًا وبانفعالٍ ترك القداحة تهوي فوقه وهو يصيح: «**لتعلم أيها الوجه أنِّي بقتل صاحبك أمنحك الحياة**».

سمعت صرخات المخلوق مدوية من خارج المعمل بينما وقف الناس والخوف يعتصرهم يتلون الصلوات ويرسمون الصليب في الهواء وعلى أجسادهم حتى اختفت الصرخات تمامًا، بينما كانت إيما جاثيةً على ركبتيها مستسلمة وعبراتها تتساقط في هدوء، في تلك اللحظة أعلن كافنديش للحشد بأنَّ كل شيء قد انتهي وبأن أسطورة السفاح قد انتهَتْ بقتله لنفسه حرقًا ليستريح أهالي الضحايا، انسحب الناس تباعًا بهدوءٍ من المكان في صمتٍ ولم يتبقَّ سوى كافنديش المتأمل في تلك اللحظة وإيما التي ظلّت تتابع المكان وقد شرع يحترق أيضًا في صمتٍ ودموعها تترقرق

حتى ظهرت مجموعة خيول يمتطيها مجموعة ضباط تخترق الصفوف المغادرة، وقد عرفهم كافنديش في الحال من ملبسهم، إنهم من الحرس الملكي، هبط أحد الضباط ووقف في مواجهة كافنديش ثم قال: «**أنت السيد تشارلز كافنديش؟!**».

احتار كافنديش وتطلّع له ثم قال: «**نعَم، أنا تشارلز كافنديش رئيس مفتشي شرطة سكوتلاند يارد يا سيدي**».

قال الضابط بلهجة حازمة وقد أخرج من جعبةٍ في يده مسدسه المفقود ثم أشهره في وجهه: «**وهذا مسدسك؟!**».

أخذ كافنديش نفَسًا عميقًا ثم قال: «**نعَم، لقد...**».

قاطعه الضابط بحزم قائلًا: «**بأمرٍ من الملك سنقوم بالقبض عليك لارتكابك جريمة قُتل، حيث قمتَ بقتل العالم المعروف فرنسيس هورسلي متعمدًا**».

ابتسم كافنديش رغمًا عنه ولم يقل شيئًا ومدّ يديه للأمام حتى يكبّلوه، لم يتصور أنَ نصف الاتفاق الآخر سينفذ على هذه الشاكلة، ثم نظر خلفه على المعمل الذي يحترق وابتسم، ببساطة، ابتسم؛ لأنَه لم يكن ليتصوّر بأنه سيُعاقب على قتله لنفسه.



كما ذكرت لك .. الإنسان كائن مفعم بالنسيان ومليء بالتناقضات، يدفع نفسه دفعا خلف ستار جسده بشهواته وملذاته بمليء إرادته خوفا من الحقيقة، يغرق نفسه بيده ويقتل نفسه أيضا في النهاية ثم ببساطة ينشد الرحمة والغفران أملا في حياة هانئة بعد الموت، إني أكاد أنفجر يا سيدي عجبا لتلك الأنانية والتَنطُعُ الغريب الذي يتمتع به، في الحقيقة أن نهايتي كانت غريبة ولكن الأغرب الحياة التي عشتها، في هذه الرواية عشت تفاصيل قد لا تصدقها ولكن كن على يقين بأنها حدثت.

البروفيسور: فرنسيس هورسلي

لندن - انجلترا

هذه الرواية تنضح بالتناقضات، بالشخصيات الثرية المركبة، رحلة مليئة بالغرائب، أحداثها تكاد أن تأخذك إلى مكان تتساءل فيه عن ماهية نفسك وربما قد تتساءل عن ماهية حقيقة الكون نفسه.



عمرو الجندي كاتب روائي، عضو اتحاد كتاب مصر، صدرت له العديد من الأعمال التي تصدرت المبيعات المصرية والعربية لفترات طويلة، منها رواية فوجا عام 2011 ورواية مسيا عام 2014، يعتبر رائدا في الأدب النفسي حيث حازت أعماله على إعجاب الآلاف من القراء وجدير بالذكر رواية 313 التي اختارها آلاف القراء ضمن أفضل خمسة أعمال صادرة لعام 2013 على موقع الجودريدز كما أنه ترشح للعديد من الجوائز الأدبية المرموقة.





